

الفصل الأول

في معرفة التاريخ

قرأت على شيخنا العلامة أبي اليمن زيد بن الحسن بن زيد الكندي اللغوي رحمه الله تعالى بدمشق في شهور سنة أربع وستمائة كتاب «المعرب من الكلام الأعجمي» تأليف شيخه أبي منصور موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر المعروف بابن الجواليقي، وقرأت عليه الكتاب جميعه، وقرأه على مصنفه، قال: يقال: إن التاريخ الذي يؤرخه الناس ليس بعربي محض، وإن المسلمين أخذوه عن أهل الكتاب، وتاريخ المسلمين أرخ من سنة الهجرة، كتب في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فصار تأريخاً إلى اليوم^(١).

وقال أبو نصر الجوهري في «الصحاح»: التأريخ تعريف الوقت، والتورخ^(٢) مثله، وأرخت الكتاب يوم كذا، وورخته بمعنى، قال: والإراخ بقر الوحش^(٣). رواه بالكسر. قلت: وقد فرق الأصمعي بين اللغتين، فقال: بنو تميم يقولون: ورخت الكتاب تورخاً، وقيس تقول: أرخته تأريخاً^(٤).

وقال أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب في كتاب «الخراج» له: إن تاريخ كل شيء آخره، فيؤرخون بالوقت الذي فيه حوادث مشهورة^(٥).

(١) «المعرب»: ص ١٣٧. وقد اقتبس هذا الفصل الدواداري في «كتر الدرر»: ٩٢/١ - ٩٣.

(٢) في (ب) و(ل): والتعريف، والمثبت من مطبوعة الدكتور إحسان عباس وأشرنا إليها ب(ط).

(٣) «الصحاح»: (أرخ).

(٤) انظر «الإعلان بالتوبيخ» ص ١٧، و«أدب الكتاب» للصولي ص ١٧٨.

(٥) هذا النص مما خرم من كتاب «الخراج». وقد نقله عن قدامة ابن عساكر في «تاريخ دمشق»: ١٠/١ (مصورة دار البشير).

وقال ابن عباس: قد ذكر الله التاريخ في كتابه فقال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]. حدثنا عبد الوهاب المقرئ بإسناده عن ابن عباس قال: سأل مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فقال: يا رسول الله، ما بال الهلال يبدو دقيقاً مثل الخيط، ثم يزيد حتى يعظم ويستوي ويستدير، ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان على حال واحد؟ فنزل ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ أي: في دينهم وصومهم وفطريهم، وعدة نسايتهم، والشروط التي تنتهي إلى أجل معلوم^(١). وقال قتادة في تفسير الآية: جعلها الله تعالى مواقيت لصوم المسلمين وإفطاريهم وحجهم ومناسكهم وعدة نسايتهم وغير ذلك، والله أعلم بما يصلح خلقه^(٢).

وقال أحمد ابن حنبل رحمه الله: حدثنا إسماعيل، حدثنا أيوب، حدثنا نافع، عن ابن عمر قال: ذُكِرَ الهلالُ عند رسول الله ﷺ فقال: «لا تصوموا حتى تروه، ولا تفطروا حتى تروه، فإن غمَّ عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوماً ثم صوموا»، أخرجاه في «الصحيحين»^(٣).

واختلفوا في مبدأ التاريخ على أقوال:

أحدها: حدثنا جدي، حدثنا أبو غالب محمد بن الحسن الماوردي بإسناده إلى عبد العزيز بن عمران قال، قال عامر الشعبي: لما كثر بنو آدم عليه السلام في الأرض وانتشروا أرخوا من هبوط آدم، فكان التاريخ إلى الطوفان، ثم إلى نار الخليل عليه السلام، ثم إلى زمان يوسف عليه السلام، ثم إلى خروج موسى عليه السلام من مصر ببني إسرائيل، ثم إلى زمان داود عليه السلام، ثم إلى زمان سليمان عليه السلام، ثم إلى زمان عيسى^(٤). وقد رواه محمد بن إسحاق عن ابن عباس.

(١) أخرجه ابن عساکر في «تاريخ دمشق» ١/ ١٠، وانظر «كنز الدرر»: ٩٣/ ١.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره»: ١٨٥/ ٢.

(٣) أحمد في «مسنده» (٤٤٨٨)، والبخاري (١٩٠٦)، ومسلم (١٠٨٠)، ولفظه عندهم بغير هذا السياق.

(٤) أخرجه ابن عساکر في «تاريخ دمشق» ١/ ١٥، وانظر «عمدة القاري» ١٧/ ٦٦، و«الإعلان بالتوخيخ» ص ١٣٦.

والثاني: أن التاريخ كان من آدم إلى الطوفان، ثم إلى نار الخليل عليه السلام، ثم أرخ بنو إسماعيل من بناء البيت، ثم إلى معد بن عدنان، ثم إلى كعب بن لؤي، ثم من كعب إلى عام الفيل؛ قاله الواقدي.

والقول الثالث: أن حمير تؤرخ بالتبابعة، وغسان بالسُد، وأهل صنعاء بظهور الحبشة على اليمن، ثم بغلبة الفرس؛ ثم أرخت العرب بالأيام المشهورة، كحرب البسوس وداحس والغبراء، ويوم ذي قار، والفجارين^(١) ونحوه، وبين حرب البسوس ومبعث نبينا ﷺ ستون سنة. حكاه محمد بن سعد عن ابن الكلبي.

والرابع^(٢): أن الفرس أرخت بأربع طبقات من ملوكها، فالأول: بكيومرت وقيل: طهمورث بالطاء، ويقال له: «كل شاه» ومعناه ملك الطين، ويعتقدون أنه آدم، والثاني: بيزدجرد، والثالث: أردشير بن بابك، والرابع: بأنوشروان العادل. حكاه هشام بن الكلبي عن أبيه.

قال: وأما الروم فأرخت بقتل دارا بن دارا إلى ظهور الفرس عليهم. وأما القبط فأرخت ببختنصر إلى قلابطرة صاحبة مصر، وأما اليهود فأرخت بخراب بيت المقدس.

وأما النصارى فبرفع المسيح عليه السلام. وقال أبو معشر^(٣): التواريخ أكثرها مدخول، والفساد يعتريها من أجل أنه يأتي

(١) في (ب) و(ط): «الفجار»

(٢) انظر «الإعلان بالتوبخ»: ص ١٣٧.

(٣) هو جعفر بن محمد بن عمر البلخي، المنجم المشهور، كان إمام وقته، وكان من أصحاب الحديث، ثم تحول إلى علوم الحساب والهندسة، ثم عدل إلى علم أحكام النجوم، وكان عمره (٤٧) سنة، وتوفي وقد جاوز المئة، وكان فاضلاً حسن الإصابة، ضربه المستعين أسواطاً لأنه أصاب في شيء، فكان يقول: أصبت فعوقبت (ت ٢٧٢هـ)، من تصانيفه: «الزيج» و«مواليد الرجال والنساء». انظر ترجمته في «الفهرست» ص ٣٣٥، و«وفيات الأعيان» ١/ ٣٥٨.

على سني أمة من الأمم زمان من الأزمنة، وتطول أيامه، فإذا نقلوه من كتاب إلى كتاب أو من لسان إلى لسان يقع فيه الغلط، إما بالزيادة فيه أو النقصان منه، كالغلط الذي وقع بين آدم ونوح والأنبياء في السنين، فإن اليهود قد اختلفوا في ذلك اختلافاً متفاوتاً، وكذا ما وقع في تواريخ الفرس مع اتصال ملكهم إلى أن زال، في تخليط كثير.

والدليل على صحة ما ذكر أبو معشر قوله ﷺ: «لا تجاوزوا عدنان، كذب النسابون»^(١). وسنذكر الحديث في سيرته ﷺ^(٢).

قلت: وهذا الذي أشرنا إليه يتعلق بالجاهلية، فأما في الإسلام فقد اختلفت الروايات، فروى الحافظ أبو القاسم ابن عساكر^(٣) رحمه الله تعالى في «تاريخ دمشق» عن أنس بن مالك أنه قال: كان التاريخ من مقدم رسول الله ﷺ المدينة، وكذا قال الزهري: قدم رسول الله ﷺ المدينة في ربيع الأول، فأرخوا.

قال الحافظ: المحفوظ أن الأمر بالتاريخ من زمان عمر بن الخطاب رضي الله عنه^(٤).

قال ابن عباس: قدم النبي ﷺ المدينة وليس لهم تاريخ، فكانوا يؤرخون بالشهر والشهرين من مقدمه، فأقاموا على ذلك إلى أن توفي رسول الله ﷺ وانقطع التاريخ، ومضت أيام أبي بكر رضي الله عنه على هذا وأربع سنين من خلافة عمر، ثم وضع التاريخ^(٥).

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» ٥٦/١، وابن عساكر في «تاريخه» ٣٩٥/١ عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان إذا انتسب لم يجاوز في نسبه معدن عدنان بن أدد، ثم يمسك ويقول: «كذب النسابون، قال الله: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾».

وأخرجه ابن سعد ٥٦/١، والطبري في «تفسيره» ١٨٧/١٣ عن ابن مسعود أنه كان يقرأ: «وعاداً وعود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله» ثم يقول: كذب النسابون. قال ابن كثير في «البداية والنهاية» ٢/١٩٤: والأصح عن ابن مسعود.

(٢) لم يرد الحديث في سيرته، ولعل المختصر قطب الدين اليونيني قد اختصره، أو سها عنه المؤلف.

(٣) «تاريخ دمشق» ١٦، ١٥/١.

(٤) «تاريخ دمشق»: ١٦/١.

(٥) انظر «عمدة القاري» ٦٦/١٧، و«الإعلان بالتوبخ» ص ١٣٤.

واختلفوا^(١) في سببه: فروى ابن السمرقندي^(٢) أنَّ أبا موسى الأشعري كتب إلى عمر: إنَّه يأتينا منك كتبٌ ليس لها تاريخ، فأرَّخ لتستقيم الأحوال، فأرَّخ^(٣).

وقال أبو اليقظان^(٤): رفع إلى عمر صلُّ محله في شعبان فقال: أيما شعبان؛ هذا الذي نحن فيه أم الماضي أم الذي يأتي^(٥)؟

وقال الهيثم بن عدي^(٦): أول من أرَّخ يعلى بن أمية، كتب إلى عمر من اليمن كتاباً مؤرخاً، فاستحسنه، وشرع في التاريخ^(٧).

وقال ابن عباس^(٨): لما عزم عمر على التاريخ جمع الصحابة واستشارهم، فقال سعد بن أبي وقاص: أرَّخ لوفاة رسول الله ﷺ، وقال طلحة: أرَّخ لمبعثه، وقال عليّ ابن أبي طالب: أرَّخ لهجرته، فإنها فرقت بين الحق والباطل، وقال آخرون: لمولده، وقال قوم: لنبوته. كان هذا في سنة سبع عشرة من الهجرة، وقيل: في سنة ست عشرة، فاتفقوا على هذا.

ثم اختلفوا في الشهور: فقال عبدالرحمن بن عوف: أرَّخ لرجب، فإنه أول الأشهر الحرم، وقال طلحة: من رمضان لأنه شهر الأمة، وقال عليّ: من المحرم لأنه أول السنة، وهو من الأشهر الحرم، وقيل: إنما أشار بالمحرم عثمان، والأولُ أصح.

(١) من هنا بدأ السقط في (ب) إلى قبيل فصل في الفرات ص ١٢٠ من هذا الجزء

(٢) هو إسماعيل بن أحمد بن عمر، أبو القاسم، شيخ ابن عساكر وستأتي ترجمته في وفيات سنة (٥٣٦هـ).

(٣) انظر «عمدة القاري» ١٧/ ٦٦، و«الإعلان بالتوبيخ» ص ١٣١.

(٤) هو عامر بن حفص، ويلقب بسحيم، وكان عالماً بالأنساب والمآثر والمثالب، ثقة فيما يرويه (ت ١٧٠هـ) له تصانيف منها: «أخبار تميم» و«النسب الكبير» انظر ترجمته في «الفهرست» ص ١٠٦.

(٥) انظر «عمدة القاري» ١٧/ ٦٦.

(٦) أبو عبد الرحمن الثعلبي المؤرخ، عالم بالشعر والأخبار والمثالب والمآثر والأنساب، توفي في «فم الصلح» قرب واسط سنة (٢٠٧هـ) من كتبه: «المعمرين» و«كتاب المثالب» انظر ترجمته في «الفهرست» ص ١١٢، و«سير أعلام النبلاء» ١٠/ ١٠٣.

(٧) انظر «عمدة القاري» ١٧/ ٦٦، و«الإعلان بالتوبيخ» ص ١٣٢.

(٨) الخبر بنحوه في «الإعلان بالتوبيخ» ص ١٣٤. وانظر «تاريخ دمشق»: ١٧/ ١-١٨.

قال ابن سيرين وابن المسيب: ثبت التاريخ بمشورة علي؛ وقال الأصمعي: إنما أرخوا من ربيع الأول شهر الهجرة، وهو وهم، والأول أصح: من المحرم.

وقال سفيان الثوري: بالتاريخ يتبين كذب الرواة من صدقهم؛ وقال حفص بن غياث: إذا اتهمتم الشيخ فحاسبوه بالسنين، احسبوا سنّه وسنّ من كتب عنه؛ وقال حماد بن زيد: لم يُستَعَنْ على الكذابين بمثل التاريخ.



فصل

في انقضاء مدة العالم وابتدائه^(١)

اختلف العلماء في ذلك على أقوال :

أحدها : أن عُمر الدنيا من هبوط آدم إلى الهجرة سبعة آلاف سنة، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : هي جمعةٌ من جُمعِ الآخرة، قد مضى منها ستة آلاف سنة وبقي ألف سنة^(٢).

والثاني : أن عمر الدنيا ستة آلاف سنة^(٣) وسبع مئة سنة. قاله كعب الأحبار ووهب ابن منبه.

والثالث : أربعة آلاف سنة وست مئة سنة واثنان وأربعون سنة وهو نص التوراة^(٤).

والرابع : خمسة آلاف سنة وخمس مئة واثنان وثلاثون سنة، وهذا قول النصارى^(٥).

والخامس : أربعة آلاف سنة ومئة واثنان وثمانون سنة. وهذا قول اليونان.

والسادس : حكاه أبو جعفر الطبري عن المجوس فقال : وأما المجوس فيزعمون أن قدر مدة الزمان من لدن «كيومرت» إلى وقت هجرة نبيِّنا ﷺ ثلاثة آلاف سنة ومئة وتسع وثلاثون سنة، ولا يذكرون شيئاً فوق كيومرت، وهو آدم عندهم^(٦).

قلت : وقد اختار الطبري القول الأول، وهو سبعة آلاف سنة، واحتجَّ بأخبار منها ما رواه في «تاريخه» فقال^(٧) :

حدثنا محمد بن بشار بإسناده عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : «أجلكم من

(١) هذا الفصل الثالث من فصول المقدمة، وقد قفز إليه قطب الدين اليونيني متجاوزاً الفصل الثاني، انظر ص ٧ من هذا الجزء .

(٢) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١٠ / ١.

(٣) في (ط) : «ألف سنة»، والمثبت من (ل)، وأخرج خبرهما الطبري في «تاريخه» ١٠ / ١.

(٤) انظر «تاريخ الطبري» ١٧ / ١، و«الكامل» ١٤ / ١.

(٥) الذي في «تاريخ الطبري» ١٨ / ١، و«الكامل» ١٤ / ١ : إن من خلق آدم إلى الهجرة خمسة آلاف سنة وتسعمائة واثنين وتسعين سنة وشهوراً.

(٦) «تاريخ الطبري» ١٨ / ١.

(٧) «تاريخ الطبري» ١١ / ١.

أجلٍ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، مِنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى مَغْرِبِ الشَّمْسِ» انفرد بإخراجه البخاري^(١).
 وقال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين» وأشار بالسبابة والوسطى،
 قلت: وهذا حديث متفق على صحته^(٢).
 وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤]، وكقوله: ﴿يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ
 السَّاعَةِ أَبَانَ مُرْسِنَهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ [الأعراف: ١٨٦-١٨٧] ونحو ذلك.
 وروى أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال: «عمر الدنيا سبعة أيام من أيام الآخرة»^(٣).
 وقد ثبت أن النبي ﷺ قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»^(٤).



(١) البخاري (٣٤٥٩).

(٢) البخاري (٦٥٠٣)، ومسلم (٢٩٥٠) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه. وأخرجه - أيضاً - البخاري

(٦٥٠٤)، ومسلم (٢٩٥١) من حديث أنس رضي الله عنه. وأخرجه البخاري (٦٥٠٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أورده الديلمي في «مسند الفردوس» (٤١٥١) عن أنس موقوفاً.

(٤) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فصل

في حَدِّثِ العالم^(١) وإثبات الصانع بالدلائل القواطع^(٢)

اختلف العلماء في مبلغ العالم على أقوال:

أحدها: أنهم ثمانون ألف عالم - قاله مقاتل - أربعون ألفاً في البر، وأربعون ألفاً في البحر، وحكاة عن عبيد بن عمير.

والثاني: أربعون ألف عالم، الدنيا من شرقها إلى غربها عالم واحد، وما العمارة في الخراب إلا كفسطاط في الصحراء، قاله وهب بن منبه.

والثالث: أنه ألف عالم، ست مئة في البحر وأربع مئة في البر، قاله سعيد بن المسيب.

والرابع: ثمانية عشر ألف عالم، قاله الحسن.

والخامس: أنه لا يقدر أحد أن يحصيهم سوى الله تعالى، وهو الأصح، لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَظُنُّ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

فأما إثبات الصانع، فقال أحمد بن حنبل رحمه الله - وقد تقدم إسنادنا إليه^(٣) - حدثنا أبو معاوية بإسناده عن عمران بن الحصين قال: قال رسول الله ﷺ لبني تميم: «يا بني تميم اقبلوا البشرى» قالوا: قد بشرتنا فأعطنا، فتغير وجهه وقال: «يا أهل اليمن اقبلوا البشرى إذ لم يقبلها بنو تميم» فقالوا: يارسول الله قد بشرتنا، فأخبرنا عن أول هذا الأمر كيف كان، فقال: «كان الله ولم يكن شيء - أو قبل كل شيء - وكان عرشه على الماء، ثم خلق السماوات والأرض، وكتب في اللوح المحفوظ - أو في الذكر - كل شيء». انفرد بإخراجه البخاري^(٤).

(١) في هامش الأصل: قال أبو العباس أحمد البوني رحمه الله: من قال يحدث العالم فقد قال بقدمه من حيث لا يشعر. وهذا القول فيه انغلاق.

(٢) هذا الفصل اقتبس أكثره من «مرآة الزمان» الدواداري في «كنز الدرر» ١٤/١ وما بعدها.

(٣) هذا أحد الأدلة على أن الذي بين أيدينا هو مختصر قطب الدين اليونيني، فقد ساق الحديث من «مسند أحمد»، وحذف إسناد سبط ابن الجوزي إليه، انظر ص ١٠ من هذا الجزء.

(٤) أحمد في «مسنده» (١٩٨٧٦)، والبخاري (٣١٩١).

فصل

إذا ثبت هذا فنقول: مذهب جملة المسلمين أن الله تعالى كان ولم يكن معه شيء، وأنه أحدث العالم على غير مثال، ومذهب الأوائل: أن العالم قديم، وأن الفلك لم يزل دائراً بشمسه وقمره.

وقال قوم من الفلاسفة بقدوم العناصر والهيولى الذي هو أصل العالم؛ وقال أصحاب الرصد بأن الأفلاك والنجوم تدبر أمر العالم. ونحن نرى أثر العجز عليها ظاهراً: أما النجوم فبالخسوف والكسوف والانتقال، وأما الأفلاك فبالدوران، وهذا آية القهر، [فالصانع قاهر]^(١)، وصانع العالم واحد.

وقالت المجوس: هما اثنان النور والظلمة، فالنور يقال له: يزُدان، والظلمة: أهرَمَن. وهذا شيء اخترعوه من غير أصل، وبطلان قولهم ظاهر، إذ لو كانا اثنين لجاز أن يكون أحدهما مريداً لحركته والآخر مريداً لسكونه، فحصلاً معاً متضادين ولا يجوز؛ وإلى هذا وقعت الإشارة بقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وروينا عن شقيق البلخي^(٢) رحمه الله أنه قال: قرأت أربعة وعشرين كتاباً في التوحيد فوجدت معانيها كلها في قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾.

فصل^(٣)

ولا يجوز أن يكون له ولد لوجه:

أحدها: أنه لو كان له ولد لاستأثر الأشياء كلها لولده فتعطل مصالح عباده.

والثاني: أن الولد نتيجة الشهوة، والله تعالى منزّه عن ذلك.

والثالث: لأن الولد بعضُ الوالد، والله منزّه عن البعضية.



(١) ما بين حاصرتين زيادة من «كنز الدرر» ١/ ١٥.

(٢) هو شقيق بن إبراهيم، ستأتي ترجمته في وفيات سنة (١٩٤هـ).

(٣) انظر «كنز الدرر» ١/ ١٦.

فصل (١)

ولا يجوز عليه نوم لوجوه:

أحدها: لثلاثا يرجع الداعي عن بابه خائبا.

والثاني: لأنَّ النوم غفلة والباري منزّه عنها.

والثالث: لأن الله يمسك السماء بغير عمد ولا علاقة، فلو نام لوقعت على الأرض؛ وقال أبو إسحاق الثعلبي^(٢) بإسناده عن عكرمة عن أبي هريرة قال: سمعت النبي ﷺ يحكي عن موسى عليه السلام على المنبر قال: «وقع في نفس موسى هل ينام الله تعالى؟ فأرسل إليه ملكاً فأرَّقه ثلاثاً وأعطاه قارورتين، في كلِّ يدٍ قارورة، وأمره أن يتحفَّظ بهما، قال: وجعل ينام وتكاد يداه تلتقيان فيحبس إحداهما على الأخرى، حتى نام نومةً فاصطكت يداه فانكسرت القارورتان؛ قال: فضرب الله مثلاً أنه لو نام لم تستمسك السماوات والأرض»^(٣).

والرابع: لأن النوم آفة، ويزيل العقل والقوة ويقهرهما، والله تعالى لا يجوز عليه ذلك.

(١) انظر «كنز الدرر» ١٦/١.

(٢) هو أحمد بن محمد بن إبراهيم، الثعلبي النيسابوري المفسر، من تصانيفه: «التفسير الكبير» و«عرائس المجالس» (ت ٤٢٧هـ). انظر ترجمته في «وفيات الأعيان» ١/٧٩.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٨/٣، وأبو يعلى في «مسنده» (٦٦٦٩)، والخطيب في «تاريخ بغداد» ١/٢٦٨، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٢٢، ٢٣) من طريق أمية بن شبل، عن الحكم بن أبان عن عكرمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ. وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١/٨٣ وقال: وفيه أمية بن شبل، ذكره الذهبي في «الميزان» ولم يذكر أن أحداً ضعفه، وإنما ذكر له هذا الحديث وضعفه به. وقال ابن كثير في «تفسيره» ٣٠٨/١: وهذا حديث غريب جداً، والأظهر أنه إسرائيلي لا مرفوع، والله أعلم. وقال الخطيب: هكذا رواه أمية بن شبل عن الحكم بن أبان موصولاً لا مرفوعاً، وخالفه معمر بن راشد فرواه عن الحكم عن عكرمة قوله.

وأخرجه الخطيب ١/٢٦٨ من طريق عبدالرزاق، عن معمر، عن الحكم، عن عكرمة، موقوفاً عليه. وقال ابن الجوزي في «العلل» ١/٤١: ولا يثبت هذا الحديث عن رسول الله ﷺ وغلط من رفعه والظاهر أن عكرمة رأى هذا في كتب اليهود فرواه، فما يزال عكرمة يذكر عنهم أشياء.

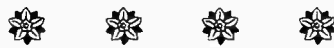
والخامس: لأن النوم استراحة، والله تعالى لا يأخذه تعبٌ فيستريح؛ وقال أبو إسحاق الثعلبي بإسناده عن سفيان الثوري، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله قال: سئل رسول الله ﷺ أينام أهل الجنة؟ قال: «لا، النوم أخو الموت»^(١).

وقال الله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥] السَّنة: النوم الخفيف وهي النعاس؛ وقال الزجاج^(٢): هي ريح تجيء من قبل الرأس لينة فتغشي العين، والوسنان بين النائم واليقظان.

فإن قيل: فالملائكة لا تنام فقد شاركت الباري في هذه الحالة؟! فالجواب: أن الملائكة لا تنام ويجوز عليها النوم، والباري سبحانه وتعالى لا يجوز عليه ذلك.

فصل^(٣)

والباري سبحانه ليس بجسم، وقالت الكرامية: هو جسم إلا أنه لا يشبه الأجسام. واحتجوا بما ورد من آيات الصفات كقوله تعالى: ﴿وَأَصْنَعُ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [هود: ٣٧] وبأخبار الصفات ونحوها، ونحن نقول: الجسم محدود بالطول والعرض ونحوه، والباري ليس بمحدود بالطول والعرض، وأمّا الآيات والأخبار فمؤولة بما يليق به سبحانه.



(١) أخرجه البزار (كشف الأستار ٣٥١٧)، والعقيلي في «الضعفاء» ٣٠٨/٢، والطبراني في «الأوسط» (٩٢٣)، ٨٨١١، وابن عدي في «الكامل» ١٥٣٣/٤، وأبو نعيم في «الحلية» ٩٠/٧، وابن الجوزي في «العلل» (١٥٥٣، ١٥٥٤).

وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٤١٥/١٠ وقال: رواه الطبراني في «الأوسط» والبزار، ورجال البزار رجال الصحيح.

وقال الرازي في «العلل» ٢١٩/٢: الصحيح عن ابن المنكدر عن النبي ﷺ، ليس فيه جابر. وأخرجه العقيلي ٣٠١/٢ عن ابن المنكدر عن النبي ﷺ مرسلًا.

(٢) هو إبراهيم بن السري، أبو إسحاق البغدادي، نحوي زمانه، من تصانيفه: «معاني القرآن» و«فعلت وأفعلت» (ت ٣١٠هـ). انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» ٣٦٠/١٤.

(٣) انظر «كنز الدرر» ١٦/١.

فصل (١)

وهو موصوف بما وصف به نفسه من العلم، والقدرة، والحياة، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام، ونحوه في كتابه القديم وعلى لسان رسوله الكريم، وقد بسطنا القول في هذه الفصول في كتابنا المسمى بـ «التّضيد في مسائل التّوحيد».

فصل (٢)

واختلف العلماء في أول المخلوقات على أقوال:

أحدها: أن أول المخلوقات القلم، وقال أحمد بن حنبل بإسناده إلى عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «أول ما خلق الله القلم، فقال له: اجرّ - أو اكتب - فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة»^(١). وهذا اختيار ابن عباس والحسن وعطاء ومجاهد وعامة العلماء.

وقال ابن عباس: لما خلق الله القلم وقال له: اجرّ بما هو كائن إلى يوم القيامة، جرى على اللوح المحفوظ بذلك؛ وفي رواية عن ابن عباس: فسبح الله ومجّده ألف عام قبل أن يكتب المقدرات. قال: وهو في زمردة خضراء، طوله ألف عام، وهو مشقوقٌ بالنور، ولما نظر الله إليه انشقّ نصفين^(٢) من هيبة الله تعالى.

وأما النون، فقد اختلفوا فيه فقال قوم: هو الدّواة، وهو اختيار الحسن وقتادة والضحاك، ورواية الثمالي عن ابن عباس.

وعامة المفسّرين على أن النون الحوت الذي يحمل الأرض، وسنذكره في بابه.



(١) انظر «كنز الدرر» ١/ ١٨.

(٢) انظر «كنز الدرر» ١/ ٢٤.

(٣) أحمد في «مسنده» (٢٢٧٠٧).

(٤) في (ل) و(ط): «بنصفين» والمثبت من «كنز الدرر».

فصل

وقد أكثر العلماء في وصف القلم، وروي عن ابن المقفع^(١) أنه قال: الأقلام مطايا الفطن^(٢) ورسل الكرام وبيان البنان. وقوام الأمور بشيئين بالقلم والسيف، والقلم فوق السيف^(٣). وأنشد^(٤): [من البسيط]

إن يخدم القلم السيف الذي خَضَعَتْ له الرِّقَابُ ودانت دونه الأُمَمُ
فالموت والموت لا شيء يخالفه ما زال يتبع ما يجري به القلمُ
كذا قضى الله للأقلام مُذْبِرَاتٍ أن السيوف لها مَذْأَرْهَفَتْ خدام
وقال أبو إسحاق الثعلبي: أنشدنا أبو القاسم السدوسي، أنشدنا أبو السميع الهاشمي، أنشدنا ابن صغنون لأبي تمام الطائي^(٥): [من الكامل]

ولضربة من كاتبٍ ببنانه أمضى وأبلغ من دقيقِ حسامٍ
قومٌ إذا عزموا عداوةً حاسدٍ سفكوا الدما بأسنّةِ الأقلامِ
قلت وقد ناقض أبو تمام قوله: [من البسيط]

السيفُ أصدقُ إنباءٍ من الكُتُبِ^(٦)

ومن أحسن ما قيل في هذا الباب قول البُحْثَرِيِّ^(٧): [من البسيط]

(١) هو عبدالله بن المقفع، ستأتي ترجمته في وفيات سنة (١٤٥هـ).

(٢) وردت هذه العبارة عن عدد من الأعيان منهم عمرو بن مسعدة والعتابي والبحري، انظر «أدب الكتاب» ٦٧ و٦٨، و«صبح الأعشى» ٤٤٧/٢، وعبارة ابن المقفع في أدب الكتاب: القلم يريد القلب يخبر بالخير وينظر بلا نظر.

(٣) انظر «أدب الكتاب» ص ٧٥.

(٤) في (ل) زيادة بعدها: لأبي الفتح البستي رحمته الله، ولم أقف على من نسب الأبيات الآتية له، وإنما نسبت إلى علي بن العباس النونجي أو ابن الرومي، انظر زهر الآداب ٤٣١، وديوان المعاني ٧٧، والعمدة ١٠٢/٢، وديوان ابن الرومي ٢٢٩٤/٦.

(٥) هو حبيب بن أوس، وستأتي ترجمته في وفيات سنة (٢٨٣هـ)، والأبيات في «الحاسن والمساوي» ص ١٢، و«معجم الأدباء» ١٧/١٤١، ولم نقف عليهما في ديوانه.

(٦) البيت في ديوانه ٤٠/١، وتماه: «في حده الحد بين الحد واللعب».

(٧) هو الوليد بن عبيد، وستأتي ترجمته في وفيات سنة (٢٨٤هـ)، ولم نقف على البيتين في ديوانه، وأوردهما =

قومٌ إذا أخذوا الأقلامَ من غضب ثم استمدوا بها ماء المنيات
نالوا بها من أعاديهم وإن كثروا ما لا يُنالُ بحدِّ المشرفيات
والقول الثاني: إن أول ما خلق الله الماء. رواه الضحاك عن ابن عباس^(١)، واحتج
بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود: ٧] قال: خلق الله جوهرًا فصيره ماء.
والقول الثالث: النور والظلمة، قاله محمد بن إسحاق، قال: ثم مَيَّزَ^(٢) بينهما
فجعل الظلمة ليلاً والنهار مضيئاً.

والرابع: العرش والكرسي، قاله وهب بن منبه.

والخامس: اللوح، قاله مقاتل.

والسادس: نقطة، فنظر إليها فمالت فصيرها ألفاً فبدأ به المخلوقات.

والقول الأول أظهر.

فصل^(٣)

أول المخلوقات القلم.

أول جبل وضع في الأرض أبو قبيس، وقيل: قاف وسنذكره في الجبال.

أول مسجد وضع في الأرض المسجد الحرام.

أول بيت وضع للعبادة الكعبة.

أول الأنبياء آدم عليه السلام.

أول قتيل في الأرض هابيل.

أول من خطَّ بالقلم وخاط الثياب إدريس، وكان الناس يلبسون الجلود.

أول من اختتن، وأضاف الضيف، واستحدَّ وجزَّ شاربته، وقصَّ أظفاره وقرَّ رأسه،

= الصفدي في «الوافي بالوفيات» ١١٦/٧ عن المستظهر بالله لنفسه، والوطواط في «غرر الخصاص» ص ١٥٠.

(١) انظر «تاريخ الطبري» ٣٥/١.

(٢) في (ل): «خير» والمثبت من (ط).

(٣) انظر «الأوائل» للطبراني (١، ٩، ١٠، ١٣، ٤١)، و«الأوائل» للعسكري ١/١٤٠، ٢/١٩٩، ٢٠١، =

ورأى الشَّيبَ، ونصب أنصاب الحرم، ويُنكسَى حُلَّةً يوم القيامة إبراهيم عليه السلام.
 أول من تكلم بالعربية، وركب الخيل إسماعيل.
 أول من عمل القراطيس يوسف.
 أول من سرد الدروع وكانت صفائح، وقال: «أما بعد» داود.
 أول من دخل الحمام وصنعت له التَّوْبَةُ وكتب «بسم الله الرحمن الرحيم» وعمل له
 الصابون سليمان عليه السلام.
 أول من سمي ييحيى: يحيى بن زكريا.

فصل (١)

أول من تجبَّر في الأرض وخُجِر له الرقاق نمرود.
 أول من خضب بالسواد وقطع الأيدي والأرجل من خلاف وصلب فرعون.
 أول من طبخ الآجر هامان.

فصل (٢)

أول من سيَّب السوائب وبَحَرَ البحائر، وحمى الحام، ووصل الوصيلة في الجاهلية
 عمرو بن لحي.
 أول من قطع في السرقة وقضى بالقسامة ودخل الكعبة حافياً الوليد بن المغيرة.
 أول من قسم للذكر مثل حظ الأنثيين، وصبغ بالزعفران عامر بن جشم.
 أول من قضى في الخنثى من حيث يبول عامر بن الظَّرب.
 أول من سبى السبايا سبأ بن يعرب بن قحطان فسمي به، واسمه عامر.
 أول من حذا النعال جذيمة بن مالك.

= و«لطائف المعارف» ص ٦-٧، و«المدھش» ص ٥٢، و«الوسائل إلى معرفة الأوائل» ص ١٥، ٢٠، ٦٦، ٨٦.
 (١) انظر «الأوائل» للعسكري ١١٩/٢، و«الوسائل إلى معرفة الأوائل» ص ٢١، ٦٣، ٩١.
 (٢) انظر «المعارف» ص ٦٢٦، و«الأوائل» للعسكري ٢٢/١، ٥٧، ٦٤، ٧٥، ٧٧، ٩٨، و«لطائف المعارف»
 ص ١١، و«المدھش» ص ٥٢.

أول من سنَّ الدية مئة من الإبل عبدالمطلب.

أول عربية كست الكعبة الديباج نُثِيْلَةُ بنتِ جَنَاب^(١) أم العباس بن عبدالمطلب.

فصل^(٢)

أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة.

أول ما نزل عليه من القرآن ﴿أَفْرَأْ بِأَسِيرِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١].

أول ما علمه جبريل الوضوء.

أول من أسلم من الرجال أبو بكر ومن الصبيان عليّ ومن النساء خديجة ومن الموالى زيد بن حارثة.

أول آية نزلت في القتال ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلُمًا﴾ [الحج: ٣٩].

أول من أسلم من الأنصار جابر بن عبد الله بن رثاب^(٣).

أول من هاجر إلى الحبشة حاطب بن عمرو.

أول من بايع ليلة العقبة أسعد بن زرارة، وقيل: البراء بن معرور.

أول من هاجر إلى المدينة مصعب بن عمير، ومن النساء أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط.

أول من استقبل القبلة قبل أن يُفَرَّضَ استقبالها البراء بن معرور.

أول من جمّع بالمدينة مصعب بن عمير، وقيل: أسعد بن زرارة، وهي أول جمعة جمعت في الإسلام.

أول من بنى لله مسجداً عمار بن ياسر.

(١) في (ط): «نثيلة بنت حباب»، وانظر «جهرة أنساب العرب» ص ١٥، و«توضيح المشتبه» ٣٠/٩.

(٢) انظر: «المعارف» ص ٤٣٣، و«الطوائف المعارف» ص ١٢، ١٥، ١٨، و«الأوائل» للعسكري ١/١١٠، ١٥٨، ٢٦٥، ٣٠١، ٣٠٩، ٣١٢، ٣١٣، ٣٢٧، ٣٣٢، ٣٠/٢، ٥٠، ٦٠، ١١١، ١١٢، ١١٤، ١٢٧، و«الأوائل» للطبراني (٦٢)، و«الوسائل إلى معرفة الأوائل» ص ٢٥، ٢٩، ٣٨، ٣٩، ٤٢، ٦٣، ٦٤، ٧٦، ٨٦، ٩٤، ١٠١.

(٣) في (ط) و(ل): «ريان» والمثبت من «الإصابة» ٢١٢/١، و«توضيح المشتبه» ١٠٨/٤، و«تاج العروس» (رأب).

- أول شهيدة في الإسلام سمية أم عمار.
- أول من أذن بلال.
- أول من أوصى في الإسلام بثلاث ماله البراء بن معرور .
- أول من رمى بسهم في سبيل الله سعد بن أبي وقاص.
- أول من عدا به فرسه في سبيل الله المقداد بن الأسود.
- أول من سنَّ الصلاة عند القتل خبيب بن عديّ.
- أول من دُفِنَ بالبقيع عثمان بن مظعون.
- أول من سُمِّي في الإسلام بمحمد محمد بن حاطب.
- أول مولود وُلِدَ في الإسلام بالمدينة من أولاد المهاجرين عبدالله بن الزبير، ومن الأنصار النعمان بن بشير، وبالبصرة عبدالرحمن^(١) بن أبي بكر.
- أول ظهاري كان في الإسلام ظهار أوس بن الصامت .
- أول لعانٍ كان في الإسلام لعان هلال بن أمية.
- أول خلعٍ كان في الإسلام خلع ثابت بن قيس بن شماس.
- أول مرجوم في الإسلام^(٢) ماعز .
- أول رايةٍ عقدت في الإسلام راية عبد الله بن جحش، وهو أول من تسمَّى بأمير المؤمنين^(٣).
- أول امرأة ضرب على قبرها فسطاط زينب بنت جحش.
- أول من حُملت في المدينة على نعش فاطمة عليها السلام.
- أول من جمع القرآن أبو بكر رضي الله عنه.

(١) في (ط) و(ل): «عبد الله»، والمثبت من «المعارف» ص ٢٨٩، و«سير أعلام النبلاء» ٤/ ٣١٩-٣٢٠.

(٢) من هنا فقدت أوراق من (ل) إلى فصل في ذكر الأقاليم.. الإقليم السابع وسنعمد مطبوعة الدكتور إحسان عباس .

(٣) في «المدحش» ص ٥٣: هو أول من دعا: يا أمير المؤمنين. وفي «الأوائل» للطبراني (٦٢) عن سعد بن أبي وقاص: أمر رسول الله ﷺ عبدالله بن جحش بن رثاب على سرية، وكان أول أمير في الإسلام.

- أول مَنْ مَصَّرَ الْأَمْصَارَ وَدَوَّنَ الدَّوَاوِينَ وفرض الأ عطية عمر بن الخطاب رضي الله عنه.
- أول من قَصَّ في المسجد تميم الداري بإذن عمر.
- أول من زاد في الْأَذَانِ يومَ الجمعة وجلس في الخطبة عثمان بن عفان رضي الله عنه.
- أول من مات من الصحابة بالكوفة ودفن بظاهرها خباب بن الأرت.
- أول من عمل المقصورة في الجامع معاوية بن أبي سفيان .
- أول رأسٍ حمل في الإسلام رأس عمر بن الجون.
- أول من قَدَّمَ الخطبة يومَ العيد قبل الصلاة مروان بن الحكم.
- أول من وُزِرَ في الإسلام ابن نضلة^(١) ، مات بالحبشة فورثه ابنه النعمان.
- أول من لبس الطيلسان بالمدينة جبير بن مطعم.
- أول من ركب ومشى بين يديه الناس الأشعث بن قيس.
- أول من عمل المحامل^(٢) الحجاج بن يوسف.
- أول من سمي في الإسلام عبدالملك ، عبدالملك بن مروان.
- أول من نَقَطَ المصاحف يحيى بن يعمر.
- أول من وضع النحو أبو الأسود الدؤلي.
- أول قاضي بالمدينة عبدالله بن نوفل بن الحارث ، وبالكوفة أبو قرة الكندي ، وبالبصرة كعب بن سور ، وبالعراق سلمان بن ربيعة ، وسيأتي تفصيل ذلك في موضعه.

فصل^(٣)

واختلفوا في أي شيء خلق الله بعد القلم ، فقال قوم : اللوح المحفوظ ؛ وروى مجاهد عن ابن عباس قال : اللوح من درة بيضاء ، وطوله مثل ما بين السماء والأرض ، وعرضه ما بين المشرق والمغرب ، وحافته من الدر والياقوت ، وقلمه نور ، وهو متصل

(١) هو عدي بن نضلة. انظر «الإصابة» ٤٧١ / ٢ ، و«الوسائل إلى معرفة الأوائل» ص ٦٣ .

(٢) في (ط) : «المخافل» ، والمثبت من «الأوائل» للعسكري ٦٠ / ٢ ، و«تاج العروس» (حمل).

(٣) انظر «كنز الدرر» ٢٥ / ١ .

بالعرش، ثم قرأ ابن عباس: ﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ الآية^(١) [البروج: ٢٢]. وقد ذكر الثعلبي معناه.

وروي أيضاً عن أنس أن اللوح المحفوظ في جبهة إسرافيل^(٢). وقال مقاتل: هو عن يمين العرش.

وقال قوم: خلق بعد القلم الكرسي ثم العرش، وسنذكره.



(١) أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» ١٣٥/٥، والطبراني في «الكبير» (١٠٦٠٥)، والحاكم ٤٧٤/٢، ٥١٩ من طريق أبي حمزة الثمالي، وبكير بن شهاب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لوددت أن عندي رجلاً من أهل القدر فوجأت رأسه، قالوا: ولم ذلك؟ قال: لأن الله خلق لوحاً محفوظاً من درة بيضاء دفناه يا قوتة حمراء، قلمه نور، وكتابه نور، وعرضه ما بين السماء والأرض، ينظر فيه كل يوم ستين وثلاث مئة نظرة، يخلق بكل نظرة ويحيي ويميت، ويعز ويذل، ويفعل ما يشاء.

قال الحاكم أولاً: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وقال الذهبي: اسم أبي حمزة ثابت وهو واه بمرة. وقال ثانياً: هذا حديث صحيح الإسناد فإن أبا حمزة الثمالي لم ينقم عليه إلا الغلو في مذهبه فقط.

وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٩١/٧ وقال: رواه الطبراني من طريقين ورجال هذه ثقات.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٢٨٧/٢٤.

فصل

في حدّ الزمان والأيام وما نقل في ذلك عن العلماء والأعلام

الزمان : اسمٌ لقليل الوقت وكثيره ، وطويله وقصيره ، ويُجمع على أزمان وأزمنة وأزمن . وقد ذكره الجوهري^(١) . ويقال : الزَّمن أيضاً ، وهو عبارة عن حركات الفلك ، ويدخل فيه ساعات الليل والنهار ، والساعات مقدّرات بقطع الشمس والقمر درجات الفلك^(٢) .

فأما اليوم فقال الجوهري : أصله أيّوأم ، وجمعه أيام^(٣) . ومعيّاره من طلوع الفجر الثاني إلى غروب الشمس ، فإن قيل : إنما يعرف اليوم بطلوع الشمس وغروبها ولم تكن الشمس يومئذ ، فالجواب أن الباري سبحانه لا يحتاج إلى طلوع الشمس في مخلوقاته لأنه ليس عنده ليل ولا نهار ، بذلك وردت الأخبار والآثار .

فالحاصل أن الله خلق السماوات والأرض قبل خلقه الأيام والليالي والشمس والقمر ، وقد رواه مجاهد عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى : ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أَنْتِنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت : ١١] فقال الله سبحانه وتعالى للسماوات : أطلعي شمسي وقمري ونجمي ، وقال للأرض : شققي أنهارك وأخرجي ثمارك فأجابتا^(٤) .

واختلف العلماء في الأيام التي خلق الله فيها السماوات والأرض والمخلوقات : هل هي مثل أيام الدنيا المعروفة أو مثل أيام الآخرة^(٥) ، كلُّ يوم^(٦) ألف سنة ، على قولين : أحدهما : أنها مثل أيام الدنيا ، قاله مجاهد والحسن البصري ، لأنها هي المعهودة ؛ والثاني : أنها مثل أيام الآخرة ، وبه قال ابن عباس وعامة العلماء^(٧) ، قال

(١) «الصحاح» (زمن).

(٢) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٢٢.

(٣) «الصحاح» (يوم).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٩٨/ ٢٤.

(٥) في (ط) : «الأخرى» والمثبت من «كنز الدرر» ١/ ٢٦.

(٦) في كنز الدرر ١/ ٢٦ : كل يوم مقداره .

(٧) انظر «البدء والتاريخ» ٢/ ٥٢.

الله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [السجدة: ٥].

فإن قيل: فهلاً خلقها في لحظة واحدة وهو أهون عليه؟ فالجواب من وجوه: أحدها: أن الثبوت أبلغ في القدرة، والتعجيل لا تقتضيه الحكمة، قاله ابن عباس. والثاني: أن الله تعالى أراد أن يظهر في كل وقت أمراً تستعظمه الملائكة، قاله مجاهد. والثالث: أن الذي يتوهمه المتوهم من إبطاء الخلق في ستة آلاف سنة يتوهمه في ستة أيام عند قوله تعالى: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾. وقال سعيد بن جبیر: إن الله تعالى كان قادراً أن يخلق المخلوقات في لمحة واحدة، وإنما خلقها في ستة أيام تعليمًا لخلقه الرفق والثبوت في الأمور. وحكاها عن ابن عباس، وهو معنى القول الأول.

واختلفوا في أسماء الأيام: فقال الزجاج والفرأ وأبو عبيد، وقد رواه الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء أنبأنا بذلك جماعة عن أبي القاسم السمرقندي قالوا: كانت العرب العاربة تقول ليوم السبت: شيار، وليوم الأحد: أول، وليوم الاثنين: أهون، وللثلاثاء: جبار، وللأربعاء: دبار، وللخميس: مؤنس، وليوم الجمعة: العروبة؛ وأول من نقل العروبة إلى يوم الجمعة كعب بن لؤي^(١).

وقد ذكر الجوهري هذه الأيام وقال: كانت العرب تسميها في أساميهم القديمة، أنشدني أبو سعيد السيرافي قال: أنشدني ابن دريد لبعض شعراء الجاهلية قال: [من الوافر]

أَوَّلُ أَنْ أَعِيشَ وَإِنَّ يَوْمِي بِأَوَّلِ أَوْ بِأَهْوَنَ أَوْ جُبَارِ
أَوْ التَّالِي دِبَارِ أَمْ فَيَوْمِي بِمُؤْنَسٍ أَوْ عَرُوبَةً أَوْ شِيَارِ^(٢)
والثاني: أنهم كانوا يسمون يوم السبت: أبا جاد، ويوم الأحد: هوز، ويوم الاثنين: حظي، والثلاثاء: كلمن، والأربعاء: سعفص، والخميس: قرشت، والجمعة: العروبة. حكاها الضحاك عن زيد بن أرقم^(٣).

(١) «الأوائل» للعسكري ٤٧/١.

(٢) «الصحاح»: (هون).

(٣) أخرجه الطبري في «تاريخه» ٤٢/١، وانظر «المنتظم» ١٢٣/١.

والثالث: ذكره أبو إسحاق الثعلبي عن ابن عباس قال: خلق الله يوماً واحداً فسماه يومَ الأحد، وخلق يوماً وسماه: يوم الاثنين، وذكر باقي الأيام على هذا^(١).

قلت: والتوفيق بين هذه الأقوال ممكنٌ، لأنه يحتمل أنها كانت قديمة ثم تغيرت ونقلت بطول الزمان كما فعلوا بالشهور، لما نذكر.

فأما السبت فجمعه: سبوت وأسبت، وقال الجوهري: سمّي يوم السبت لانقطاع الأيام عنده، قال: والسبت: الراحة، والسبت: الدهر، والسبت: ضرب من سير الإبل وهو العنق، والسبت: قيام اليهود بأمر سبتها، قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبُتُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣] والمُسْبِتُ الذي لا يتحرّك، والسُّبَاتُ النوم، وأصله الراحة^(٢).

وقد ذكر هذه الأسماء أبو عبيد فقال: أحد وآحاد واثنين وأثنانين، وثلاثاء وثلاثاوات، وأربعاء وأربعاوات، وخميس وأخمسة، وجمعة وجمعات.

واختلفوا في أيّ يوم بدأ الله الخلق على أقوال:

أحدها: أنه بدأ بها يوم السبت وكان الفراغ منها يوم الجمعة، قال الإمام أحمد بن حنبل بإسناده عن عبدالله بن رافع مولى أم سلمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي وقال: «خلق الله التربة يوم السبت، وخلق الجبال فيها يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبثّ فيها الدوابّ يوم الخميس، وخلق آدم يوم الجمعة بعد العصر إلى الليل [في آخر] ساعة من ساعات الجمعة ما بين العصر إلى الليل». انفرد بإخراجه مسلم^(٣).

وقد رواه [عكرمة] عن ابن عباس قال: جاءت اليهود فسألوا رسول الله ﷺ عن المخلوقات، فذكر الحديث - إلا أن الطبري ذكر أنه بدأ بالخلق في يوم الأحد لما نذكر - فلما قال: وخلق آدم يوم الجمعة في آخر ساعة، قالت: ثم ماذا؟ فقال: ثم استوى على العرش، فقالوا: لو أتممت: ثم استراح يوم السبت، فغضب رسول الله ﷺ غضباً

(١) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ٤٢، وانظر «المنتظم» ١/ ١٢٣.

(٢) «الصحاح»: (سبت).

(٣) أحمد في «مسنده» (٨٣٤١)، ومسلم (٢٧٨٩).

شديداً، ثم أنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ۖ فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ الآيات^(١) [ق: ٣٨-٣٩].

وقد ذكره أبو إسحاق الثعلبي في آخر سورة «ق»، وقال فيه: فقالت اليهود: صدقت إن تمت، قال: وما ذاك؟ قالوا: ثم استراح يوم السبت واستلقى على العرش. فنزلت الآيات.

والثاني: أنه بدأ بالمخلوقات يوم الأحد. قاله كعب الأحبار ومجاهد والضحاك، وحكاه أبو جعفر الطبري عن اليهود^(٢)، ورواه عن ابن عباس. وحكاه الثعلبي أيضاً أنه قال: خلق يوماً واحداً وسماه: يوم الأحد، وذكره، وكذا هو في التوراة. ولهذا قالوا: استراح يوم السبت، وبه قالت النصارى، لأن عيسى عليه السلام رفع فيه إلى السماء.

[والثالث: يوم الاثنين، قاله محمد بن إسحاق. والقول الأول أصح لوجهين، أحدهما: لأجل الحديث الصحيح الذي رواه أبو هريرة وأن النبي ﷺ نصَّ عليه، وقد قال أبو هريرة: أخذ رسول الله بيدي، والثاني: لأن فيه مخالفة لليهود لأنهم أبطلوا الخلق يوم السبت وقالوا استراح، ومخالفة النصارى أيضاً]^(٣).

فصل^(٤)

واختلفوا في خلق السماوات والأرض، أيهما أسبق؟ على قولين: أحدهما الأرض قاله ابن عباس، والثاني: السماوات، قاله مجاهد. وسنحقق القول فيما بعد إن شاء الله تعالى.

فصل^(٥)

واختلفوا في خلق الليل والنهار أيضاً على قولين: أحدهما: النهار خلق أولاً، قاله

(١) «تاريخ الطبري» ٤٥/١، والحاكم ٥٤٣/٢، وكنز الدرر ٢٨/١، وما بين معكوفات منها.

(٢) «تاريخ الطبري» ٤٤/١.

(٣) ما بين حاصرتين زيادة من «كنز الدرر» ٢٩/١.

(٤) انظر «كنز الدرر» ٢٩/١.

(٥) انظر «كنز الدرر» ٢٩/١.

عكرمة ومجاهد، لأنه ضياء والنور مقدم على الظلام، والثاني: الليل، وبه قال ابن عباس وعامة العلماء، ولقوله تعالى: ﴿وَلَا أَيْلُ سَابِقِ النَّهَارِ﴾ [يس: ٤٠] ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ أَيْلٌ تَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارُ﴾ [يس: ٣٧] فدلّ على أن الليل مقدم عليه، ولأن الظلمة أصل والضوء عارض، وهو من إشراق نور الشمس فلا يكون أصلاً، وقد نصّ عليه ابن عباس فقال: رأيتم حين كانت السموات والأرض رَتْقاً، ما كان بينهما إلا ظلمة^(١).

فصل

وأما السنة، فقال يعقوب بن السكيت: هي واحدة السنين، وأصلها: سَنَهِ وتصغيرها: سُنَيْهَة وسُنَيْة، وجمعها: سنون، بكسر السين، وبعضهم يضمها.

فصل^(٢)

وأما الشهر، فذكر أبو منصور بن الجواليقي في «المعرب» أن أصله سهر بالسين المهملة، فَعُرّب، وقال الفراء: إنما سمي شهراً لشهرته وظهوره^(٣)، ويسمى الهلال شهراً لشهرته؛ وقال الفراء: أول شهور العرب العاربة: ناجر، وأول شهور المستعربة: المحرم.

وقال الجوهري: لما نقلت العرب أسماء الشهور عن اللغة القديمة سموها بالأزمنة التي وقعت فيها.

قلت: لم يفسّر الجوهري معنى هذا الكلام ويحتاج إلى بيان؛ قلت: أما قوله لما نقلت العرب: يريد المستعربة، ذلك لأن العرب قسمان، عاربة وهم الخُلص الذين لم يخالطوا الحاضرة، ومستعربة وهم الذين خالطوا الحاضرة؛ قال أبو العلاء: العاربة مثل طسم وجديس، ومن كان معاصراً لهم، وأما المستعربة فهم المتأخرون وهم الذين نقلوا أسماء الشهور، فقالوا: المحرم وصفر إلى ذي الحجة.

فأما العرب الأوائل، فقرأت على شيخنا أبي اليُمْن زيد بن الحسن الكندي رحمه

(١) أخرجه الطبري في «تاريخه» ٦١/١.

(٢) انظر «كنز الدرر» ٨٤/١ وما بعدها.

(٣) «المعرب» ص ٢٥٥. وفيه: «وقال ثعلب» بدل: «الفراء».

الله قال: قرأت على شيخنا أبي منصور بن الجواليقي، عن الخطيب أبي زكريا التبريزي، عن أبي العلاء المعري قال: كانت العرب العاربة تسمي هذه الشهور بغير هذه الأسماء فتقول للمحرم: مؤتمِر، ولصفر: ناجِر، ولربيع الأول: خوَّان، ولربيع الآخر: وبَّصان، ولجمادى الأول: رُبَّى، ولجمادى الآخر: حَنين، ولرجب: الأصم، ولشعبان: عازل، ولرمضان: ناتق، ولشوّال: وُعَل، ولذي القعدة: وَرَنَة، ولذي الحجة: بُرْك.

تفسيرها: أما مؤتمِر، فاشتقاقه من المؤامرة في ترك الحرب احتراماً له، وأما ناجِر، فالنجر الأصل، جعلوه أصل الحرب؛ وأما خوَّان: فمن تخوينهم الحرب أي نقضهم، وأما وبَّصان: فمن الوَبْص وهو بريق السلاح، وكانت الغارات تشتد فيه، وأما رُبَّى: فمن قولهم شاة رُبَّى على وزن فُعْلى أي كثيرة النَّتاج، وكانوا يجمعون فيه الأموال، وأما حنين: فلأن أسفارهم تطول فيحْتَنُون فيه إلى المنازل والأهل، وأما الأصم: فلأنهم ما كانوا يُغيرون فيه ولا يسمعون قعقة السلاح فسَمِّي أصمَّ به، ومنهم من يقول: رجب مضر وسنذكره.

وأما قولهم ناتق؛ فمن قولهم: نتقت الشاة إذا كثر ولدها، وأما وُعَل: فالوعل الملجأ، كانوا يلجأون فيه إلى المنازل، وأما وَرَنَة؛ فالأَرْن - بإسكان الراء - النشاط، كانوا ينشطون فيه للحج^(١)، وأما بُرْك؛ فلأنَّ الإبل كانت تبرك فيه في الموسم حتى ينقضي، وقيل: هو من البركة.

وأما شهور المستعربة؛ فسمي المحرم لتحريم القتال فيه، كان الرجل يلقي قاتلَ أبيه أو ابنه أو أخيه فلا يعرض له، وكذا في الأشهر الحرم [كلها]، قال الجوهري^(٢): إلا حيَّان من العرب خثعم وطِيئ فإنهم كانوا يستحلون القتال فيه وفي الأشهر الحرم.

وأما صفر: فلأنَّ المنازل كانت تَصْفَرُ منهم، أي: تخلو، والصَّفر الخالي، وقال الجوهري عن ابن دريد: والصَّفران شهران من السنة أحدهما المحرم^(٣). وقيل: لأنهم

(١) أورده الفيروزآبادي في «القاموس» في مادة (ورن)، وذكر معنى ما ذكره المصنف المرزوقي في «الأزمنة والأمكنة» ٢٧٩/١.

(٢) «الصحاح»: (حرم).

(٣) «الصحاح»: (صفر).

كانوا ينزلون بلاداً يقال لها: صفر، والأول أصح.

وأما شهر ربيع: فلأنهم كانوا يرتبكون فيهما، وقال الجوهري: والربيع عند العرب ربيعان: ربيع الشهور وربيع الأزمنة، فربيع الشهور شهران بعد صفر، ولا يقال فيهما إلا شهر ربيع الأول وشهر ربيع الآخر، وأما ربيع الأزمنة فربيعان: الأول منهما: ربيع الكلا، وهو الفصل الذي تأتي فيه الكمأة والنّور ينضر، والربيع الثاني، وهو الفصل الذي تدرك فيه الثمار^(١).

وأما جُماديان: فلأن الماء كان يجمد فيهما، وهو فعّال من الجَمَد.

وأما رجب: فمن الترجيب، وهو التعظيم، يقال: رَجَبْتُهُ أي: عَظَّمْتُهُ، وقال الفراء: ومنه قولهم: نخلة مُرَجَبَةٌ، إذا كثر حملها أقاموا لها دعائم لثلاث تنكسر أغصانها، وفيه لغتان: رجب ورحم، لأن الرحمة تنصب فيه صباً، ويقال له: رجب مضر أيضاً لأنّ مضر كانت تعظمه أكثر من غيرها فنسب إليها، وجمعه: أرجاب؛ وقيل إنما سمي: الأصم، لأنه لا يشهد بالقبائح على هذه الأمة.

وأما شعبان: فلأن الشَّعب هو الاجتماع، كانوا يتشعبون فيه بعد الفرقة، وقيل: إنما سمي شعبان، لأنه يتشعب فيه خير كثير لرمضان [أي يتجمع].

وأما رمضان: فاشتقاقه من الرَّمَض، وهو وقع حرّ الشمس على الرمل، ومنه: الرَّمضاء، ورمضت الفصال: إذا وجدت حرّ الشمس.

وأما شوال: فمن السَّوْل، وهو الارتفاع، لأن النوق تشوّل فيه، أي: ترفع أذنابها للقاح، وقيل: لأنّ ألبان الإبل كانت تشوّل فيه، أي: تقل [وجمعه شوالات وشوائل] وهو أول أشهر الحج.

وأما ذو القعدة: فلأنهم كانوا يقعدون فيه عن القتال تعظيماً له [وجمعه ذوات القعدة].

وأما ذو الحجة: فلأنهم يتأهبون فيه للحج ويقصدون مكة من [سائر] الآفاق، [وجمعه ذوات الحجة]^(٢).

(١) «الصحاح»: (ربيع).

(٢) مابين حاصرتين زيادة من «كز الدرر» ٨٦/١.

فصل

والعرب تسمي كلَّ ثلاثِ ليالٍ من الشهرِ باسمِ.

فصل^(١)

والعرب تؤرخ بالليالي دون الأيام، لأن سنيهم قمرية، فالعمل فيها على القمر لأنه يرى في الليل عالياً، فيقال في أول ليلة من الشهر: استهل الهلال، ولا يقال ذلك في النهار، بخلاف سائر الأمم، فإن سنيهم على سير الشمس وهي نهارية؛ ثم العرب تعد السنة ثلاثمائة وأربعة وخمسين يوماً وسدس يوم^(٢)، لأن شهراً يكون تاماً وشهراً يكون ناقصاً غالباً.

فصل في شهور الروم^(٣)

الروم تعد السنة ثلاث مئة وخمسة وستين يوماً وربع يوم، وشهورهم مختلفة العدد، وأولها:

نيسان، وهو ثلاثون يوماً.

وأيار أحد وثلاثون يوماً. ولثماني عشرة منه ترجع الشمس هابطة من الشمال.

وحزيران ثلاثون يوماً.

وتموز أحد وثلاثون يوماً، وكذا آب، فإذا انسلخ آب قلَّ الحر.

وأيلول ثلاثون يوماً، ولثلاث عشرة منه عيد الصليب، ولثماني عشرة منه يستوي

الليل والنهار.

وتشرين الأول أحد وثلاثون يوماً، وفيه يكون المهرجان، ومعناه: أنه كان في

الفرس ملك ظالم جبار اسمه «مهر» فمات في نصف هذا الشهر، و«جان» هو الروح،

أي: «مهر» ذهب روحه. وبين المهرجان والتيروز مئة وستون يوماً، والفرس تسمي هذا

(١) انظر «كنز الدرر» ٨٧/١.

(٢) في «الفتاوى الكبرى» ١٣٨/٢٥: وبعض يوم خمس أو سدس. وانظر «التعريفات» ص ١٦١.

(٣) انظر «كنز الدرر» ٨٧-٨٨/١.

اليوم أول الشتاء.

وتشرين الآخر ثلاثون يوماً.

وكانون الأول أحد وثلاثون يوماً، ولسبع عشرة منه يكون النهار تسع ساعات^(١)، ويكون الليل أربع عشرة ساعة، وذلك منتهى طوله؛ وفي الليلة الخامسة والعشرين منه ولد المسيح عليه السلام.

وكانون الآخر أحد وثلاثون يوماً، وفي أول ليلة منه توقد نار عظيمة بأنطاكية، والنصارى تعظم تلك النار^(٢) وتقول بأن النصرانية ظهرت من أنطاكية في تلك الليلة بعدما دثرت، وتسميها مدينة الله.

وشباط ثمانية وعشرون يوماً وربيع يوم في ثلاث سنين متواليات، والسنة الرابعة تسمى: كبيسة، فتكون تسعة وعشرين يوماً يقسم ذلك في أربع سنين، ولسبع ليال منه تسقط الجمرة الأولى، وهي الجبهة، ولأربع عشرة منه تسقط الثانية وهي الزبرة، ولإحدى وعشرين منه تسقط الثالثة وهي الصرفة، فينصرف البرد، وفيه يتكامل الجمار؛ واليوم الخامس والعشرون منه أول أيام العجوز^(٣).

وآذار ثلاثون يوماً^(٤)، وفي الرابع عشر منه فصل الربيع ونزول الشمس الحمل، ويعتدل الليل والنهار، وفي ذلك اليوم النيروز. وقال ابن الجواليقي: ويقال: النيروز، وقد تكلمت به العرب^(٥)، والله أعلم.

فصل في عدد الفرس

السنة عندهم ثلاث مئة وستون يوماً، كل شهر ثلاثون يوماً، وأول شهورهم: قَرَوَرْدِين ماه، وأول يوم منه النيروز، والثاني^(٦): أُرْدِيَهْشْت ماه، والثالث: خُرْدَاد

(١) في «كنز الدرر» زيادة: تسع ساعات ونصفاً وربعاً وهو منتهى قصره.

(٢) في «كنز الدرر» زيادة: والنصارى تعظم تلك الليلة وتلك النار.

(٣) في «عجائب المخلوقات» ص ١١٧: في السادس والعشرين.

(٤) في «عجائب المخلوقات» ١١٧: آذار أحد وثلاثون يوماً.

(٥) «المعرب» ص ٣٨٨.

(٦) أي من شهور الفرس.

ماه، والرابع: تير ماه، والخامس: مُرداد ماه، والسادس: شهر يرم ماه^(١)، والسابع: مِهْرُ ماه، وفي الثامن عشر منه يكون المهرجان. والثامن: آبان ماه، والتاسع: آذرماه، العاشر: دِي ماه، والحادي عشر: بَهْمَن ماه، والثاني عشر: إسْفَنْدَار مد ماه، وهذه أسامي ملوكهم.

فصل في عدد القبط

السنة عندهم ثلاث مئة وخمسة وستون يوماً، كل شهر ثلاثون يوماً مثل شهور الفرس، إلا أنهم يجعلون بعدها خمسة أيام يسمونها: اللواحق، وتدعى «العمياء» أيضاً، فأول يوم من السنة عندهم هو التاسع والعشرون من آب عندنا، وأول شهورهم: توت، وهو أيلول بالسريانية. والثاني: باب، وهو تشرين الأول. والثالث: هتور، وهو تشرين الثاني. والرابع: كيهك، وهو كانون الأول. والخامس: طوبه، وهو كانون الآخر. والسادس: أمشير، وهو شباط. والسابع: برمها، وهو آذار. والثامن: برمودة، وهو نيسان. والتاسع: بشنس، وهو أيار. والعاشر: بوونه، وهو حزيران. والحادي عشر: أبيب، وهو تموز. والثاني عشر: مسري، وهو آب، وفيه يتكامل النيل.



(١) كذا هو في «عجائب المخلوقات» ص ١٢٢، وفي «الآثار الباقية» ص ٤٢، و«المعجم الفارسي» (شهر): «شهر يور».

فصل

في خلق الأرضين ومدة التصوير والتكوين^(١)

قال علماء اللغة: إنما سميت الأرض أرضاً، لأنَّ الأقدام تدقُّها وترضُّها. وقال الجوهري: الأرض مؤنثة، وهي اسم جنس، وجمعها أَرْضُون، وقد تجمع على أُرُوض، وأما قول ابن عباس: أَزْلَزْتُ الْأَرْضَ أَمْ بَيَّ أَرْضٌ؟ فإنَّما أراد الرُّعْدَةَ والنَّفْضَةَ^(٢).

وروى أبو إسحاق الثعلبي عن ابن عباس قال: أولُ ما خلق الله القلم فجري بما هو كائن إلى يوم القيامة، ثم رفع بخار الماء فخلق منه السموات، ثم خلق النون وهو الحوت الذي يحمل الأرض، فبسط الأرض على ظهره، فتحرك النون فمادت الأرض، فأثبتت بالجبال، فإن الجبال لتفخر على الأرض، ثم قرأ ابن عباس ﴿وَتَّأَلَّفُمُ اللَّامَ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١]^(٣).

واختلفوا في اسم هذا الحوت؛ فقال الكلبي ومقاتل: بهموت^(٤). وقال أبو اليقظان والواقدي: ليوثا، وروي عن علي عليه السلام أنه بلهوت؛ قال الراجز:

مالي أراكُم كلُّكم سُكُوتاً والله ربِّي خلَقَ البلهوتا^(٥)
وقال الثعلبي أيضاً: قالت الرواة: لما خلق الله تعالى الأرض وفَتَّقَهَا بعث من تحت العرش ملكاً فهبط إلى الأرض حتى دخل تحت الأرضين السبع، فوضعها على عاتقه، إحدى يديه بالمشرق والأخرى بالمغرب، باسطين قابضتين على الأرضين السبع حتى ضبطها، فلم يكن لقدمه موضع قرار، فأهبط الله تعالى من الفردوس ثوراً وجعل قرارَ قَدَمَي المَلِك على سنامه فلم تستقرَّ، فأحْدَرَ الله ياقوتة حمراء من الفردوس غلظها مسيرة خمس مئة عام، فوضعها على سنام الثور فاستقرَّت عليها قدماه، وقرون ذلك الثور هي أربعون ألف قرن خارجة من أقطار الأرض، ومنخرأه في البحر، فهو يتنفس

(١) انظر «كنز الدرر» ١/ ٨١.

(٢) «الصحاح» (أرض).

(٣) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ٥١.

(٤) ضبطه الألوسي في «روح المعاني» ٢٩/ ٢٣: بفتح الياء المثناة التحتية وسكون الهاء.

(٥) أورده القرطبي في «تفسيره» ١٨/ ٢٢٤، وفيه: «البهموتا».

كلَّ يوم نفساً، فإذا تنفس مدَّ البحر، وإذا ردَّ نَفْسَه جزر، فلم يكن لقوائمه موضع قرار، فخلق الله صخرة خضراء كغلظ السموات والأرض، فاستقرت قوائم الثور عليها، وهي الصخرة التي قال لقمان لابنه: ﴿فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ﴾ الآية [لقمان: ١٦] فلم يكن للصخرة مُسْتَقَرٌّ، فخلق الله نوناً - وهو الحوت العظيم -، فوضع الصخرة على ظهره وسائر جسده خال، والحوثُ على البحر، والبحرُ على متن الريح، والريح على القدرة تقلُّ الدنيا كلها بما عليها، قال لها الجبار سبحانه: كوني، فكانت^(١).

وقد روى أبو بكر الخطيب بمعناه عن ابن عباس، فقال بإسناده عن عكرمة عن ابن عباس، وفيه: وكانت الأرض تمورُ موراً تتكفأ، كما تتكفأ السفينة، فبعث الله تعالى جبريل، فلم يقدر أن يسكنها، فقال: يا إلهي، قد علمت أنك لم تقدّر ذلك على يدي، ولو بعثت بعوضة لسكنتها، قال: فأرسل الله عز وجل ملكاً من تحت العرش، فدخل تحت الأرض وذكره.

وفيه: وقرونُ ذلك الثور خارجة من أقطار الأرض قد اشتبكت بأقطار السموات إلى العرش، ومنخرا الثور في ثقبين من تلك الصخرة، فهو يتنفس كل يوم نفسين، فإذا تنفس مدَّ البحر وإذا ردَّ نَفْسَه جزرت البحار.

وفيه: واسم الحوت بلهوت، فانتهى إبليس إلى الحوت فقال: ما خلق الله خلقاً أعظم منك، فلمَ تحملُ هذه الأثقال؟ فهمَّ أن يلقي ما عليه، فبعث الله تعالى بقَّةً فدخلت في عينه فشغلته عن ذلك، ثم أنبت الله جبل قاف من تلك الياقوتة الخضراء فأحاط بالدينا، ثم أنبت منه الجبال وشبك بعضها ببعض بعروقه كالشجر في الأوتاد، فإذا أراد الله أن يزلزل أرضاً أوحى إلى قاف فحرك ذلك العرق، وهو حديث طويل اختصرته. وقد أخرجه الحافظ أبو القاسم المعروف بابن عساكر في كتابه المعروف بـ«كتاب الزلازل».

وحكى الثعلبي عن كعب الأحبار: أن إبليسَ تغلغل إلى الحوت الذي على ظهره الأرض كلها فوسوس إليه: أتدري ما على ظهرك يا لوثيا من الأُمم والدواب والشجر والجبال وغيرها؟ ولو نفضتهم لاسترحت، فهمَّ لوثيا أن يفعل ذلك فبعث الله إليه دابةً

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٥-٦.

فدخلت في منخره ووصلت إلى دماغه، فضج الحوت منها إلى الله تعالى، فأذن لها فخرجت؛ قال كعب: فوالذي نفسي بيده إنه لينظر إليها وتنظر إليه إن هم بشيء من ذلك عادت إليه كما كانت، فلا يزال كذلك إلى يوم القيامة^(١).

وروى الحافظ أبو القاسم أيضاً في «كتاب الزلازل» عن أنس عن النبي ﷺ قال: «أُسِّسَتِ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُونَ السَّبْعُ عَلَى ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾»^(٢).

قلت: ولا يصحُّ هذا عن رسول الله ﷺ إنما هو موقوف على أنس^(٣).

وذكر ابن قتيبة في «المعارف» عن التوراة، وقال في السفر الأول منها: خلق الله السمواتِ وآدمَ وحواءَ. وذكر ألفاظاً شنيعةً منها: أن الله تعالى يخلق بشراً على صورته وما أشبه هذا^(٤)، والله تعالى منزّه عن الصورة لأنّه ليس بجسم، وإن صحَّ في الأخبار حديثُ الصور^(٥) فيُحْمَلُ على الصفة، وهو اللائق بالله سبحانه وتعالى.

وقال أحمد بن حنبل: حدثنا يزيد بن هارون بإسناده عن النبي ﷺ: «لما خلق الله الأرضَ جَعَلَتْ تَمِيلُ، فخلَقَ الجبالَ وألقاها عليها فاستقرَّت، فتعجبت الملائكةُ من خلْقِ الجبال، فقالت: يا رب، هل من خلقت شيءً أشدَّ من الجبال؟ قال: نعم، الحديدُ، قالت: يارب، هل من خلقت شيءً أشدَّ من الحديد؟ قال: نعم، النارُ، قالت: يارب، فهل من خلقت شيءً أشدَّ من النار؟ قال: نعم، الريحُ، قالت: يا رب،

(١) «عرانس المجالس» ص ٦.

(٢) أورده السيوطي في «الجامع الصغير» (١٠٢٠) وعزاه لتمام في «فوائده» وفيه موسى بن محمد بن عطاء، وهو متَّهم بالكذب. انظر «الميزان» ٢١٩/٤.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٧٣٨/٢٤، وأبو الشيخ في «العظمة» (٨٩٦)، وأبو نعيم في «الحلية» ٣٨٣/٥ من حديث كعب الأحبار قوله. قال الألوسي في تفسيره ٢٤/٢٩: وللقصاص في هذا الفصل روايات لا يعول عليها، ولا ينبغي الإصغاء إليها.

(٤) «المعارف» ص ٩-١١.

(٥) أخرجه الحارث كما في (بغية الباحث ٨٧٢)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٥١٨)، والطبراني في الكبير (١٣٥٨٠) من حديث ابن عمر ؓ عن النبي ﷺ قال: «لا تقبحوا الوجه، فإن ابن آدم خلق على صورة الرحمن».

وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٠٦/٨ وقال: رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح غير إسحاق بن إسماعيل الطالقاني، وهو ثقة وفيه ضعف. وانظر الكلام عليه في «فتح الباري» ١٨٣/٥.

فهل من خلقك شيء أشد من الريح؟ قال: نعم، ابن آدم، يتصدق صدقة يمينه، ثم يخفيها عن شماله». وقد أخرجه الترمذي^(١) في «جامعه» وذكره، وهذا الحديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه.



(١) أحمد في «مسنده» (١٢٢٥٣)، والترمذي (٣٣٦٩) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وهو حديث ضعيف.

فصل

في ذكر البيت الحرام المخصوص بالإجلال والإعظام

ذكر الجوهري، وقال: الكعبة البيت الحرام، سمي بذلك لتربُّعه^(١). وقال الخليل ابن أحمد: إنما سميت الكعبة كعبةً لارتفاعها وعلوِّها واستدارتها. وقال مجاهد: سميت كعبةً للتربيع^(٢). والعرب تسمي كلَّ بيت مربع كعبة؛ وقال مقاتل: لانفرادها عن البناء، وقال الفراء: سميت كعبة لبنائها مربعةً على موضع رفيع، وسمي: البيت الحرام لأن الله تعالى حرَّمه وعظَّم حرمة.

وقال أحمد بن حنبل رحمه الله بإسناده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كانت الكعبة خَشْفَةً على رأس الماء عليها ملكان يسبحان الليل والنهار قبل خلق الأرض بألفي عام^(٣)».

قال أبو عمرو بن العلاء: الحَشْفَةُ: الأكمة الحمراء. وقال الجوهري: الحَشْفَةُ: الحُسُّ والحركة^(٤). ومعناه على هذا أنها كانت تضطرب وتتحرك على الماء.

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: وضعت الكعبة على أربعة أركان - قبل أن يخلق الله الدنيا - على وجه الماء، ثم دحا الأرض من تحتها^(٥).

وروى العوفي عنه أنه قال: أرسل الله تعالى الريح فمسحت الماء حتى حَوَتْ على خشفة، وهي التي تحت الكعبة، ثم إن الله مدَّ الأرض من تلك الخشفة، حتى بلغت حيث أراد الله في الطول والعرض^(٦).

وروي عن كعب الأحبار أنه قال: وجد حجر في أسفل المقام من أيام جُرْهُم

(١) «الصحاح»: (كعب).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٧/٧٦.

(٣) لم نقف عليه في «مسند» أحمد ولا في غيره من مصادر التخريج، وذكره ابن الجوزي في المنتظم ١/١٢٩ من قول أبي هريرة دون إسناد ولا عزو. والخشفة: حجارة تبت من الأرض نباتاً.

(٤) «الصحاح»: (خشف).

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١/٥٤٨.

(٦) أخرجه الحاكم ٢/٥١٢ من طريق عطاء عن ابن عباس، وذكره ابن الجوزي في المنتظم ١/١٢٨.

مكتوب فيه: «إني أنا الله ذو بَكَّةَ، حرَّمتها يومَ خلقتُ السموات والأرضَ، ويومَ وضعتُ هذينَ الجبلينَ، وحففتها بسبعةِ أملاكٍ حنفاءَ، مَنْ أَمَّ هذا البيتَ زائراً عارِفاً بحَقِّي، مُقَرِّراً بالوحدانيةِ، حرَّمتُ جَسَدَهُ على النارِ»^(١).

وقال أحمد بإسناده عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «كأنِّي أنظرُ إلى أسودَ أَفْحَجَ ينقضُها حجراً حجراً» يعني: الكعبة. انفرد بإخراجه البخاري^(٢). والأفحج: المتباعد ما بين الفخذين.

وسنذكر ما يتعلق بالبيت الحرام في قصة الخليل عليه الصلاة والسلام.



(١) أخرجه عبدالرزاق في «مصنفه» (٩٢١٩) من حديث الزهري، قال: بلغني أنهم وجدوا. وأخرجه ابن أبي شيبة (نشرة العمري ٢٨٦/٤) من حديث مجاهد. وأخرجه الطبري في «تفسيره» ٥٤٨/١ من حديث عطاء بن أبي رباح.
(٢) أحمد في «مسنده» (٢٠١٠)، والبخاري (١٥٩٥).

فصل

في مساحة الأرض، ومقدار طولها والعرض

قد أشار جماعة من المهندسين العلماء إلى مثل ذلك :

المأمون في «كتاب الجغرافيا» وهو كتاب ألفه بطليموس، وابن خُرداذبه في كتاب «المسالك والممالك»، وابن حوقل، وأبو معشر، وقد أشار أبو الحسين ابن المنادي إلى طَرَفٍ من ذلك.

واختلفوا في مساحة الطول والعرض على أقوال :

أحدها : أن الأرض أربعة وعشرون ألف فرسخ، اثنا عشر ألفاً للسودان، وثمانية آلاف للروم، وثلاثة آلاف لفارس، وألف للعرب، حكاه جدي رحمه الله في مصنفاته كالمنتخب وغيره عن قتادة^(١).

والثاني : أنها مسيرة خمس مئة سنة منها ثلاث مئة عمران، ومئتان خراب، لا ساكنَ بها . قاله ابن مضر^(٢).

والقول الثالث : أن طولها أربع مئة سنة وعرضها مئتان . قاله مجاهد.

والرابع : أن طولها وعرضها مسيرة ثلاث مئة سنة، العمران مئة سنة، والخراب مئة سنة، والبحار مئة سنة . قاله حسان بن عطية^(٣).

والخامس : أنها ستة وثلاثون ألف فرسخ في مثلها، فالهند والسند اثنا عشر ألف فرسخ، وهم ولد حام بن نوح، والصين ثمانية آلاف فرسخ، وللروم عشرة آلاف، وللعرب أربعة آلاف، وفيما بين ذلك ألفان. قاله السدي عن أشياخه.

والسادس : أن مقدار الدنيا ألف فرسخ، ثلث هواء، وثلث بحار، وثلث للناس والدواب. قاله مغيث بن سُمَيٍّ^(٤).

(١) انظر «المنتظم» ١٢٩/١.

(٢) أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» ١٧٣/٣.

(٣) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» (٩٣٦).

(٤) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» (٩٤٧) وفيه : الأرض ثلاثة أنواع : ثلث... وجاء في «كنز الدرر» ٩٦/١ : =

وقال في «جغرافيا»: الهند والصين والمشرق خمسون ألف فرسخ، ومن حدود الهند إلى العراق أربع مئة فرسخ، وعمل رومية الروم ثلاثة آلاف فرسخ. وقد ذكره الفزاري.

وقال مقاتل: ما العمارة في الخراب إلا مثل القسطاط في الصحراء^(١).

وقال أبو الحسين ابن المنادي: لا خلاف أن الأرض على هيئة الكرة، وهي موضوعة في جوف الفلك كالمُحَّة في البيضة، والنسيم محيط بها كالبياض من المُحَّة، وهو جاذبٌ لها من جميع جوانبها، والأرضُ جاذبةٌ لما في الأبدان من الثقل، بمنزلة المغناطيس الذي يجذب الحديد، والفلك محيط بالنسيم كإحاطة القشر بالبياض، وهي مقسومة بنصفين، وبينهما خطُّ الاستواء، وهو من المشرق إلى المغرب، وهو طول الأرض، وأما عرضها: فمن القطب الشمالي الذي يدور حوله بنات نعش، إلى القطب الجنوبي، وذلك ثلاث مئة وستون درجة، والدرجة خمسة وعشرون فرسخاً، والفرسخُ اثنا عشر ألف ذراع، وهو أربعة آلاف خطوة بخطوة البعير، وهو ثلاثة أميال، والذراع أربعة وعشرون إصبعاً، والإصبع ستُّ شعيرات، كلُّ شعيرة ستُّ شعرات من شعر البرذون، وهذا الذراع قدره المأمون بمحضر من المهندسين والحساب، وهو بين الطويل والقصير، دون ذراع البحار والذراع الهاشمي، فعلى هذا التقدير يكون ما بين القطبين تسعة آلاف فرسخ.

وقد أشار إلى هذا ابن خرداذبه في كتاب «المسالك والممالك»^(٢). وأشار في «جغرافيا» إلى هذا.

وقال ابن حوقل: «كتاب جغرافيا» ذكر فيه بطليموس طول الأرض وعرضها، وجبالها وبحارها وأنهارها، ومدنها، وجميع ما فيها، فنقله المأمون إلى العربية. قال كعب الأحبار: وجدت في التوراة أن الدنيا مثلُ نسر، فالشامُ رأسه، والروم صدره، والمشرق والمغرب جناحاه، واليمن ذنبه، ولا يزال الناس بخير ما لم يفرغ

= «ثلاثون» وفي «الدر المنثور» ٤/٤٣: ثلاثة أثلاث: ثلث...

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» ٤/٧٠ من حديث وهب بن منبه.

(٢) «انظر المسالك والممالك» ص ٤.

الرأس، فإذا فرغ الرأس هلك الناس.

وقال ابن حوقل: ما بين يأجوج ومأجوج إلى ناحية البحر المحيط في الشمال براري وقفار، ليس فيها عمارة ولا نبات لشدة البرد بها، وسببه انحراف الشمس عن القطب الشمالي، وكذا ما بين المحيط والسودان براري لا شيء فيها لشدة الحر، وسببه ميل الشمس إلى ناحية الجنوب^(١).



(١) «صورة الأرض» ص ٢٢.

فصل

في ذكر الأقاليم الدالة على حكمة الحكيم

قال الجوهري: الإقليم واحدُ الأقاليم السبعة^(١). ولم يبين، قلت: والأصح في حدِّ الإقليم: أنه بلدان وأماكن تقطعها الشمس في طلوعها وغروبها وارتفاع درجتها.

وذكر في «جغرافيا» وقال: الدنيا سبعة أقاليم، كلُّ إقليم تسع مئة فرسخ في مثلها، والبحر الأعظم محيط بها، وجبل قاف وراء البحر، وأطراف السماء عليه كأطراف الخيمة على وجه الأرض، وأن خضرة السماء تلونه، ولبعد المسافة تبين أنها زرقاء.

ثم رتبَ الأقاليم فقال: أولها إقليم الهند، ثم الحجاز، ثم إقليم مصر والشام والمغرب، ثم إقليم بابل، ثم إقليم الروم، ثم إقليم الترك، ثم إقليم الصين^(٢).

قلت: وما يُكتفى بهذا، ولا بدَّ من البسط في حدِّ الأقاليم، وقد ذكر أبو معشر وابن حوقل وأبو الحسين بن المنادي طرفاً من ذلك، فنأتي على أقوالهم فنقول:

الإقليم الأول^(٣): إقليم الهند: ويتدئ من المشرق من أقصى بلاد الصين، فيمرُّ على بلاد الهند، ثم على ساحل السُّند^(٤) إلى ناحية الجنوب، فيمر على عُمان، ثم على اليمن وظفار وحَضْرَمَوْت وعدن وصنعاء وتَبَالَة وجَرَش، وما إلى تلك البلاد حتى يقطع البحر إلى جزيرة العرب، فيأتي عليها، ثم يقطع بحر القُلْزُوم ويمر على بلاد الحبشة، ويقطع نيل مصر ويمر على مدينة الحبشة، وتسمى جَرَمَى^(٥)، وعلى مدينة التُّوبَة وتسمى دُمُقْلَة، ثم يمر في أرض المغرب على جنوب بلاد البربر، إلى أن ينتهي إلى بحر الغرب الكبير.

وهذا الإقليم صحيح الهواء يورث صحة الأجسام والحكمة. قال أبو معشر: وله من البروج الجدي، ومن النجوم زحل.

(١) «الصباح»: (قلم).

(٢) انظر «المدحش» ص ٦٤.

(٣) انظر الأقاليم السبعة في «معجم البلدان» ١/ ٢٨-٣٢، و«كنز الدرر» ١/ ٩٧-١٠١.

(٤) جاء في «كنز الدرر» ١/ ٩٨: «ساحل بحر السند».

(٥) في «معجم البلدان» ٢/ ١٢٩: «جَرَمَة».

قلت: ولما ذكرت في هذا الإقليم جزيرة العرب، ذكرت حدودها، وقد اختلفوا فيها:

فقال الجوهري: وأما جزيرة العرب هي ما بين حَفَر أبي موسى الأشعري إلى أقصى اليمن طولاً، وفي العرض ما بين رمل يَبْرِينَ إلى منقطع السَّماوة^(١).

وقال الأصمعي: هي ما بين نَجْران والعُدَيْب، يعني نجران اليمن، قال: وإنما سميت جزيرة العرب لإحاطة البحر بها من كل مكان، فجعل حدّها من المغرب بحر القُلْزُم، ومن المشرق الفرات لأنها تمر على أرض الكوفة، وتصبّ في البحر.

قلت: وجزيرة العرب هي أرض العرب وهي عُسْرِيَّة، وقد حدّها أصحابنا فقالوا: هي ما بين العُدَيْب إلى أقصى حُجْر باليمن، ومهرة إلى حدّ الشَّام.

الإقليم الثاني: وهو إقليم الحجاز، يبتدئ من المشرق فيمر على بلاد الصين، ثم يمرُّ على بلاد الهند، ثم على السُّند وفيه مدينة الكافور، ويقال لها: الفنصورة، ثم على الدَّيْل، ثم على البحر الأخضر، ويقطع جزيرة العرب في أرض نجد وتهامة، وفيه اليمامة والبحرين وهَجْر والمدينة ومكة والطائف وجُدَّة، ثم يقطع بحر القُلْزُم ويمر بصعيد مصر، فيقطع النيل ويمر على أُسْوَان وإخميم، ثم يمتد في أرض المغرب على وسط بلاد أفريقية، ثم يمر على بلاد البربر، وينتهي إلى البحر المحيط.

وقال الجوهري: الحجاز بلاد، وسميت بذلك لأنها حجزت بين نجد والغور^(٢).

وروي عن الأصمعي أنه قال: إنما سمي الحجاز لأنه احتُجز بالجرار الخمس: حَرَّة بني سُلَيْم، وحَرَّة واقم، ولم يذكر الباقيات^(٣).

وقال الجوهري: النجد ما ارتفع من الأرض، وقال: نجد من بلاد العرب، وهو خلاف الغور، والغور هو تهامة، وكل ما ارتفع من تهامة إلى أرض العراق فهو نجد^(٤).

(١) «الصحاح»: (جزر).

(٢) «الصحاح»: (حجز).

(٣) وباقي الحَرَّات الخمس: حرة سَوْران، وحرة ليلي، وحرة النار. «معجم البلدان» ٢/ ٢١٩.

(٤) «الصحاح»: (نجد).

وقال أبو معشر: ولإقليم الحجاز من البروج العقرب، ومن النجوم الزهرة.

الإقليم الثالث: وهو إقليم الشام ومصر، يبتدئ من المشرق فيمرّ على بلاد الصين، ثم على بلاد الهند، ثم على شمالي بلاد السند، ثم على بلاد كابل وسجستان، ثم على سواحل بحر البصرة، وفيه مدينة إصطخر ونسا ونيسابور وشيراز وسيراف، ثم يمر على كُور الأهواز والبصرة وبغداد والكوفة والأنبار وهيت، ثم يمر على بلاد الشام: حمص ودمشق وصور وعكا وطبرية وعسقلان وغزة والقدس والرملة، ثم يقطع أسفل مصر ويمر على تيّس ودمياط والفسطاط والفيوم والإسكندرية، ثم يمر على بلاد المغرب ويدخل سبّته حتى ينتهي إلى البحر الكبير.

قال أبو معشر: وله من البروج الجوزاء ومن النجوم عطارد، وهواؤه غليظ يورث الصفار، ومريض من يسكنه من أهل المغرب الاستسقاء والبطن، والغالب على الشام الدم. وقال الجوهري: الشام بلاد تذكّر وتؤنّث^(١).

وحده من العريش إلى الفرات، واختلفوا لِمَ سُمّي الشام شاماً، قال ابن المقفّع: سمي الشام بسام بن نوح، وسام اسمه بالسريانية «شام»، وبالعبرانية «شيم». وقال الكلبي: سمي الشام لشامات في جباله حمر وسود وبيض.

قلت: والأصح إنما سمي الشام لأنه عن يسار الكعبة، وقول ابن المقفّع إنما سمي الشام بسام، فاتفق الرواة على أنه ما نزل قط.

وقد أورد الحافظ ابن عساكر في «تاريخه» أخباراً في فضائله فيها مقال:

منها ما رواه عن ابن حوالة عن النبي ﷺ أنه قال: «عليكم بالشّام فإنّها صفوة الله من بلاده يسكنها خير عباده، فمن أبى، فليلق بالّشام، فإنّ الله قد تكفّل لي بالشّام وأهله»^(٢). وذكر الحديث من حرف كثير، وروي فيه زيادات ونقص.

وقد ذكره جدي رحمه الله في كتاب «الأحاديث الواهية» وقال: هذا حديث لا

(١) «الصّحاح»: (شام).

(٢) «تاريخ دمشق» ٢٤/١، وأخرجه - أيضاً - أحمد في «مسنده» (٢٠٣٥٦) وهو حديث صحيح. وفيه: «فليلق»

بيمنه».

يصبح، في إسناده محمد بن كثير خرّقنا حديثه ولم نرضه، كذا قال أحمد بن حنبل^(١). وفي «الصحيحين» حديث أخرجاه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم بارِكْ لنا في شامِنَا، اللهم بارِكْ لنا في يَمِينِنَا»، قالوا: يارسولَ الله، وفي نجدنا؟ قال في الثالثة: «هَذَاكَ الزَّلَازِلُ وَالْفِتَنُ». وهو حديث طويل أخرجه الحميدي في الفتن^(٢).

الإقليم الرابع: وهو إقليم العراق، ويقال له: إقليم بابل، يبتدئ من المشرق فيمرُّ على بلاد التُّبَّت، ثم على خُرَّاسَانَ وفَرَّغَانَةَ وَسَمَرْقَنْدَ وَبَلْخَ وبخارى وهَرَاةَ وَمَرُوَ وَشَرْخَسَ وَطَبْرِسْتَانَ وَطُوسَ وَجُرْجَانَ وَقُومِسَ وَقَزْوِينَ وَالرَّيَّ وَأَصْبَهَانَ وَقُمَّ وَقَاشَانَ وَهَمْدَانَ وَنَهَاوَنْدَ وَالدِّينَوْرَ وَحُلَوَانَ وَشَهْرزُورَ وَسُرَّ مِنْ رَأْيَ وَالْمُوصِلَ وَحَرَّانَ وَالرَّقَّةَ وَقَرْقِيسِيَا، ثم يمرُّ على حلب وقَتْسَرِينَ وَأَنْطَاكِيَّةَ وَالْمَصْصِيصَةَ وَأَذَنَةَ وَعَمُورِيَّةَ وَطَرُسُوسَ، ثم يمرُّ في البحر على جزيرة قُبْرَسَ، ثم يمر ببلاد المغرب على طَنْجَةَ وما والاها، ثم ينتهي إلى البحر الكبير.

قالوا: وله من البروج القوس، ومن النجوم المشتري.

وقال الخليل بن أحمد: إنما سميت بابل؛ لأن الألسن تبلبلت بها، ومدينتها بناها يَزْدُ بن مَهْلَاثِيلَ، واختلفوا في حدِّ أرض بابل على أقوال: أحدها: أنها الكوفة وسوادها، قاله ابن مسعود، والثاني: من نصيبين إلى رأس العين، قاله قتادة، والثالث: أنها أرض الحلة، والأول أصح.

الإقليم الخامس: وهو إقليم الروم، ويبتدئ من المشرق من بلاد يأجوج ومأجوج ثم يمر على شمال حَرَّانَ، وفيه من المدن: خوارزم^(٣) والشاش وأذَرَبِيْجَانَ وإِرمِينِيَّةَ، ثم يمر على بلاد الروم بأسرها، ويقطع البحر إلى رومية الكبرى وجزيرة الأندلس، ثم

(١) «العلل المتناهية» ٣١١/١.

(٢) البخاري (١٠٣٧)، ولم نقف عليه عند مسلم بهذا اللفظ، وأخرجه مسلم (٢٩٠٥) من حديث ابن عمر: أنه سمع رسول الله ﷺ وهو مستقبل المشرق يقول: «أَلَا إِنَّ الْفِتْنَةَ هَاهُنَا، أَلَا إِنَّ الْفِتْنَةَ هَاهُنَا، مِنْ حَيْثُ يُطْلَعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ». وقد جعل الحميدي هذا الحديث من المتفق عليه عن ابن عمر كما في «الجمع بين الصحيحين» (١٢٧٠).

(٣) أوله بين الضمة والفتحة، والألف مسترقة مختلصة ليست بألف صحيحة، هكذا يتلفظون بها. «معجم البلدان» ٣٩٥/٢.

ينتهي إلى بحر المغرب.

قالوا: وله من البروج الدلو، ومن النجوم القمر، وقيل زحل؛ والله سبحانه وتعالى أعلم.

الإقليم السادس: وهو إقليم الترك، يبتدئ من المشرق ويمرُّ على بلاد يأجوج ومأجوج، ثم على بلاد الحَزْر، ثم على القُسطنطينية، ثم ينتهي إلى بلاد المغرب.

وله من البروج السرطان، ومن النجوم المريخ، وقيل: القمر، والله أعلم.

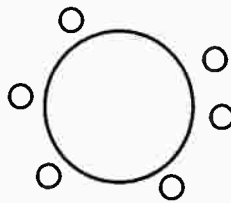
الإقليم السابع: إقليم الصين، يبتدئ من المشرق على شمال بلاد يأجوج ومأجوج، ثم على بلاد الترك، ثم على سواحل بحر جرجان، ثم يقطع بحر الروم ويمرُّ على بلاد الصقالبة والقفجاق، ثم بلاد البلغار وباشقِرْد وما والاها.

وله من البروج الأسد، ومن النجوم الشمس.

وقال^(١) أبو معشر: أعمر هذه الأقاليم وأكثرها خيراً وأحسنها استقامة وسياسة أربع:

إقليم بابل^(٢)، ويقال له: مملكة إيران شهْر، وكانت الفرس تقدمه على الأقاليم، ويسمى ملكه: شاهنشاه وإيران شاه، ومنزله من العالم منزلة القلب من الجسد، والواسطة من العقد، والقمر من الكواكب.

وقال بطليموس: إن الهند رسمت الأقاليم كأنها حلقة مستديرة تكتنفها ستُّ دوائر، فالدائرة الوسطى إقليم بابل والأقاليم حوله، وصورته:



(١) هنا تعود نسخة (ل) بعد فقدان أوراق منها.

(٢) في «كنز الدرر» ١/ ١٠١: «أربعة أقاليم وهم: بابل، والهند، والحجاز، ومصر، قال: فأما بابل».

قلت: وهذه الدائرة أخذها الخطيبُ من «جغرافيا» وزاد عليها، فقال: ذكر علماء الأوائل أن أقاليم الأرض سبعة، وأن الهند رسمتها فجعلت إقليمَ بابل وسطها على الصفة المحدقة بالدوائر قال: فالإقليم الأول: إقليم الهند، والثاني: إقليم الحجاز، والثالث: إقليم مصر، ولم يذكر الشام، والرابع: إقليم بابل، وقال: وهو أعمرها وأوسطها، وفيه جزيرة العرب، وفيه العراق الذي هو سرّة الدنيا، قال: وحدُّ هذا الإقليم مما يلي أرضَ الحجاز وأرضَ نجد الثعلبية من طريق مكة، وحدّه مما يلي الشام وراء مدينة نصيبين من ديار ربيعة بثلاثة عشر فرسخاً، وحدّه مما يلي أرضَ خراسان وراء نهر بلخ، وحدّه مما يلي الهند خلف الدَّيْل بستة فراسخ. قال: وبغداد وسط هذا الإقليم؛ قال: والإقليم الخامس: بلاد الروم والشَّام، فجعل الشَّام من بلاد الروم. قال: والإقليم السادس: بلاد الترك، والسابع: بلاد الصين. وقال الخطيب أيضاً: وبغداد وسط هذا الإقليم وموضعها صفوة الأرض، ولذلك اعتدلت ألوانُ أهله وامتدت أجسامهم، فسلموا من شقرة الروم والصقالبة، ومن سواد الحبش، وغلظ الترك، وجفاء أهل الجبال، ودمامة أهل الصين، وكلّما^(١) اعتدلوا في الخلقة لطفوا في الفطنة.

ثم إقليم الروم ثم إقليم الهند و إقليم الصين، ومنهم من يفضّل إقليم الصين على الكلّ ويقول: هو أعدل الأقاليم وأصحها^(٢).

قال أبو معشر: ويأجوج ومأجوج في ناحية الشمال، لهم جبال منيعة يصعد الصاعدُ إلى رأس الجبل في عشرة أيام، وتُحمل غلالهم على المعز.



(١) في «تاريخ بغداد» ٢٣/١: «كما».

(٢) «تاريخ بغداد» ٢٢-٢٣/١.

فصل

في ذكر البلدان وما فيها من السكان

ذكر علماء الهيئة أن المسكون من الأرض، على تفاوت أخطاره وبعد أقطاره، مقسوم بين سبع أمم، وهم: أهل الصين، والهند، والسند، والروم، والفرس، والترك، والعرب.

وروي أن بطليموس أحصى مدن الدنيا في زمانه، فكانت أربعة آلاف مدينة ومئتي مدينة^(١).

وذكر خالد بن عبد الله المروزي: أن مدن الدنيا ثمانية آلاف مدينة، ففي الصين ألف مدينة، وفي الهند ألف مدينة، وفي السند ألف مدينة، وفي الزنج والنوبة ألف مدينة، وباقي المدن مفرقة في الأقاليم.

وقال الحسن البصري: الأمصار المعتبرة في الإسلام سبعة: مكة، والمدينة، والبصرة، والكوفة، والجزيرة، والشام، ومصر، وسواد البصرة، والأهواز، وفارس^(٢). ونحن نذكر المشهور من المدن:

فصل في الفنصورة، بالفاء

وهي من مدائن الصين، وإلى كافورها^(٣) المنتهى، ويمتد رُسداقها إلى البحر شهرين.

وقال الأصمعي: إنما سميت الصين بصين بن نعيم، نزلها وكثر نسله بها، فسميت به. قال: وحدُّها من البحر إلى التُّبَّت، وجزائر الواق واق^(٤) فيها.

وقال بطليموس: من دخل بلاد الصين لم يهنَّ عليه الخروج منها، لا اعتدال هوائها ورقة مائها وكثرة خيرها والذهب والفضة، ولا يزال الإنسان فيها مسروراً طرباً.

(١) انظر «المسالك والممالك» ص ٥.

(٢) جاء بعدها في «كنز الدرر» ١/ ١٠٣: «داخل في الجملة».

(٣) الكافور: نوع من الطيب. انظر «المعتمد في الأدوية المفردة» ص ٤٠٤.

(٤) كذا هي في (ل)، وفي «معجم البلدان» ٥/ ٣٨١: الوقواق.

وقال في «جغرافيا»: وفي بلاد الصين أنهار كبار مثل دجلة والفرات، تجري من بلاد التُّرك والتُّبَّت والصُّغْد، وفيها جبال النشاذر، يرتفع منها في الصيف نيران تُرى من مئة فرسخ في الليل، وفي النهار دخان لغلبة شعاع الشمس^(١)، وأكثر سلوك الناس إلى الفنصورة والصين من ناحية خراسان في الشتاء لغلبة حرّ النشاذر في الصيف، قال: ومن خراسان إلى أول أعمال الصين نحو أربعين يوماً، وقيل: أربعة أشهر، وهناك جبال الصُّغْد.

فصل

ومنها مدينة تُبَّت. قال الأصمعي: أصلها بُتت بالثاء المنقوطة بثلاث، وكانت التبابعة، وهم ملوك حمير واليمن، لما طافوا الدنيا وصلوا التُّبَّت ورتبوا على تلك الحدود رجالاً مخافة العدو، فثبتوا هناك، فقال الناس: بُتت، ثم طال العهد، فجعلوا موضع الثاء تاء، والذي فعل ذلك بُتبع الأول، وسنذكره في التبابعة.

وكان ملوك التُّبَّت في قديم الزمان يسمّون التبابعة، لأنَّ بُتبعاً وصل إلى هناك، فلما طال الزمان وحال العهد وانقضوا سَمَوْا ملكهم: خاقان^(٢).

والمسك التُّبَّتِي يُنسب إلى هذه البلاد، وسنذكره في الطيب.

وقال بَطْلَيْمُوس: من خاصية بلاد التُّبَّت والصين: أن الإنسان لا يعرف فيها الهمَّ والغم، ولو مات جميع مَنْ للإنسان لم يحزن عليه، ولا يكاد يُرى فيها شيخ ولا عجوز، إلا الشباب والكهول.

فصل في مدائن الهند والشرق

قال في «جغرافيا»: ومن مدائن الهند: شامل، ومورين^(٣)، وقالون، وقهنديار^(٤) وقشْمير، وأقربها إلى بلاد الإسلام غَزَنَة، وكان تحت يد ملكها ألف فيل، والهند مللٌ

(١) انظر «عجائب المخلوقات» ص ٢٠٢.

(٢) انظر «مروج الذهب» ١/ ٣٥١-٣٥٣.

(٣) في «المسالك والممالك»: هورين.

(٤) في «معجم البلدان» ٤/ ٤٠٢: قُنْدَهَار.

كثيرة، وسنذكرهم في بابهم.

وبلاد الهند من جنس بلاد الصين في صحة الهواء ورقة الماء وعدم الهم والغم .
وقال الأصمعي: ألدُّ مدائن الشرق خُراسان نيسابور، وهَرَاة، وبلُخ، وهي من بناء الإسكندر، وقال: ومعنى خُراسان: مطلع الشمس بالفارسية. وقيل: إن هَرَاة بناها الضَّحَّاك، ومدينة خُراسان مَرُو بناها لُهرَاسب.

حدثنا زيد بن الحسن بإسناده عن عبد المحسن بن محمد بن علي، قال: أنشدنا منصور بن النعمان الصَّيْمَرِي، أنشدنا محمد بن أحمد الكاتب، قال: أنشدنا ابن دريد لنفسه، وكان قد اشتاق إلى خراسان فلما دخلها لم تعجبه فقال: [من الوافر]

تمنيننا خراساناً زماناً فلم نعظ المنى والصبر عنها
فلما أن حللناها سراعاً وجدناها بحذف النصف منها
وقال النضر بن شميل: أول مدن خُراسان: الرِّيُّ، وهي آخر الجبال منها، وإليها ينسب الرازي. قال: ومدينة مَرُو دارُ خلافة المأمون، ومنها خرج أبو مسلم صاحب الدعوة، والنسبة إليها مَرَوَزِي. ومن وراء النهر كابل: مدينة عظيمة، وفيها الإهليلج الكابلي، وفرغانة مدينة الصُّغْد، وهم رماة الحدق، وإذا مات لهم كبير قطعوا آذانهم احتراماً له^(١).

وقال أبو منصور ابن الجواليقي في «المعرب»: ومن مدائن العجم دَرَابْجَرْد.
قال الأصمعي: إن الدَّرَاوَزْدِي الفقيه منسوبٌ إليها، والباء فيها مكسورة^(٢). ومن مدائن المشرق أذَرْبَيْجان وأَرْمِينِيَّة.

وقال ابن الجواليقي في «المعرب»: ومن مدائن خُراسان سِجِسْتَان^(٣). وقال أيضاً: وهَرَاة كُورَة من كُور العجم وقد تكلمت بها العرب^(٤).

(١) في (ل): لهم، والمثبت من المطبوع.

(٢) «المعرب» ص ٢٠١، والدراوردي هو: عبدالعزيز بن محمد، أبو محمد (ت ١٨٧هـ). وذكر السمعاني أن الباء فيه مفتوحة أو ساكنة. «الأنساب» ٢٩٢/٥.

(٣) «المعرب» ص ٢٤٦.

(٤) «المعرب» ص ٣٩٥.

ومن مدائن الشرق عُمان، وقد ذكرها النبي ﷺ، قال أحمد بإسناده عن الحسن بن هادية، قال: لقيت ابن عمر فقال لي: ممن أنت؟ فقلت: من أهل عُمان، فقال: من أهل عمان؟ قلت: نعم، قال: أفلا أحدثك ما سمعتُ من رسول الله ﷺ؟ قلت: نعم، قال: سمعته يقول: «إني لأعلم أرضاً يقال لها: عُمان يُنْضَحُ بجانبها البحرُ، الحَجَّةُ منها أفضلُ من حَجَّتَيْنِ من غيرها». أخرجه أحمد في «المسند»^(١).

وذكرها الجوهري فقال: وعُمانُ - بالتخفيف - بلد، وأما الذي بالشَّام فهو عَمَانُ - بالفتح والتشديد - بلد^(٢).

وسنذكر المدائن التي بناها الإسكندر والفرس بخراسان وغيرها.

فصل في مدائن العراق

قال الجوهري: العراق بلاد، يُدْكَرُ ويؤنَّثُ، قال: ويقال هو فارسي مُعَرَّب. والعراقان البصرة والكوفة^(٣).

وقال الأصمعي: إنما سُمِّيَ عِرَاقاً لأنه سَفُلٌ عن أرض العرب. قال: وقال أبو عمرو بن العلاء: سُمِّيَ عِرَاقاً لتواشُج عروق الشجر والنخل فيه^(٤).

وقال الخطيب بإسناده عن ابن عائشة قال: كتب عمر بن الخطاب إلى كعب الأحبار، يقول: اختر لي المنازل، فكتب إليه: يا أمير المؤمنين: بلغنا أن الأشياء اجتمعت، فقال السخاء: أريد اليمن، فقال حسن الخلق: وأنا معك، وقال الجفاء: أريد الحجاز، فقال الفقر: وأنا معك، وقال البأس: أريد الشام، فقال السيف: وأنا معك، وقال العلم: أريد العراق، فقال العقل: وأنا معك^(٥)، وقال الغنى: أريد مصر، فقال الذلّ: وأنا معك. فاختر لنفسك. فلما ورد الكتاب على عمر قال: فالعراق إذا^(٦).

(١) أحمد في «مسنده» (٤٨٥٣).

(٢) «الصحاح»: (عمن).

(٣) «الصحاح»: (عرق).

(٤) انظر «المعرب» ص ٢٧٩.

(٥) من قوله: وقال العلم . . . إلى هنا ليست في (ل)، والمثبت من المطبوع وتاريخ بغداد ٢٥ / ١.

(٦) «تاريخ بغداد» ٢٥ / ١.

ومنها: حُلوان، قال ابن الجواليقي: حلوان مدينة من مدن العجم. وقال ابن الكلبي: إنما سميت بذلك؛ لأنَّ بعض ملوك الأعاجم أقطعها حلوان بن الحاف بن قضاة^(١).

وروي عن معاذ بن جبل قال، قال رسول الله ﷺ «اللهم بارك لنا في صاعنا ومدنا، وفي شامنا ويمتنا، وفي حجازنا» فقام إليه رجل فقال: يا رسول الله، وفي عراقنا، فأمسك رسول الله ﷺ، فلما كان في اليوم الثاني، قال مثل ذلك، فقام إليه الرجل وقال: يا رسول الله، وفي عراقنا، فأمسك رسول الله ﷺ، فقام الرجل إليه في اليوم الثالث فقال مثل ذلك، فأمسك عنه، فولَّى وهو يبكي، فدعاه النبي ﷺ، فقال: «أمن أهل العراق أنت؟» قال: نعم، قال: «إن أبي إبراهيم هم أن يدعو عليهم فأوحى الله تعالى إليه: لا تفعل، فإني جعلتُ خزائن علمي فيهم، وأسكنتُ الرحمة قلوبهم»^(٢).

فصل ومن مدن العراق مدينة بابل

بناها نُمرود بن كنعان، ومكانها معروف، وقد ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ﴾ الآية [البقرة: ١٠٢]. وقال الجوهرى: بابلُ اسم موضع بالعراق ينسب إليه السحر والخمر، ولا ينصرف لتأنيته^(٣).

وقد أكثرت فيها الشعراء. وحكى لي جماعة من مشايخنا: عن البلخي الواعظ أنه كان يعظُ بالنظامية، وبدت منه حركات أوجبت إخراجَهُ من بغداد، فجاءَ إليه بعضُ غلمان الديوان، وهو على المنبر فقال له: قد رُسِمَ بأن تخرجَ من البلد، فأنشد^(٤): [من الطويل]
أبابلُ لا واديكِ بالجودِ مُفْعَمٌ لديّ ولا ناديكِ بالرفدِ آهْلُ
لئن ضِقتِ عني فالبلادُ فسيحةٌ وحسبك عاراً أنني عنكِ راحلُ

(١) «المعرب» ص ١٦٩-١٧٠. وفيه: «حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاة». وانظر «جهرة أنساب العرب» ص ٤٥٠.

(٢) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» ١/ ٢٤-٢٥، وابن عساكر في «تاريخه» ١/ ٦٢.

(٣) «الصباح»: (بيل).

(٤) الأبيات لمحمد بن أحمد الأبيوردي في «ديوانه» ١/ ٣٧٧، وفيه:

أبابل لا واديك بالرفد منعم لدينا ولناديك بالوفد آهل

وإن كنتِ بالسَّحَرِ الحرامِ مُدَلَّةً فعندي مِنَ السَّحَرِ الحلالِ دلائلُ
قَوافٍ تُعِيرُ الأَعْيْنَ النُّجْلَ حُسْنَهَا فأَيُّ مكانٍ خَيَّمَتْ فهو بابلُ
وكان بيا بلَ عَجائبَ نذكرها في عجائب الدنيا.

فصل

ومنها الأنبار، وهي مدينة قديمة ذكرها الجوهري، وقال: وأنبار اسم بلد^(١).
وسنذكرها فيما بعد.

فصل

ومن مدائن اليمن صنعاء، قال الجوهري: وصنعاء - ممدود - قَصَبَةُ اليمن، والنسبة
إليها صَنَعَانِيٌّ على غير قياس، كما قالوا في النسبة إلى حَرَّان: حَرَّنَانِيٌّ^(٢).
قال: وَحَضْرَمَوْتُ: اسم بلد وقبيلة أيضاً، وهما اسمان جُعِلَا اسماً واحداً،
والنسبة إليه: حَضْرَمِيٌّ، وتصغيره حُضَيْرُمَوْتُ، والجمع الحَضَارِمَةُ^(٣).
قال: وَظَفَارٍ مثل قَطَامٍ مدينةٌ باليمن، وَجَزْعُ ظَفَارِيٍّ منسوب إليها، وكذا عودُ
ظَفَارِيٍّ، للذي يُتَبَخَّرُ به، وفي المثل: من دخلَ ظَفَارِ حَمَرٍ^(٤). أي: تكلم ببلغة حمير.
وسنذكره في الأمثال إن شاء الله تعالى، ونذكر أيضاً عَدَنَ، ونذكر أيضاً مكة في قصة
الخليل عليه السلام.

فصل

فأما مدينة النبي ﷺ، فقال الجوهري: وَيَثْرِبُ مدينة النبي ﷺ^(٥).
وقال عكرمة: وقد سماها النبي ﷺ يَثْرِبَ، ففي حديث الهجرة عن رسول الله ﷺ
أنه قال: «رَأَيْتُ فِي مَنَامِي أَنِّي أَهَاجِرُ إِلَى أَرْضٍ بِهَا نَخْلٌ فَذَهَبَ وَهَلِيَ إِلَى أَنَّهَا الْيَمَامَةُ

(١) «الصحيح»: (نبر).

(٢) في (ل): حرائي، والمثبت من «الصحيح»: (صنع).

(٣) «الصحيح»: (حضر).

(٤) «الصحيح»: (ظفر)، وانظر «مجمع الأمثال» ٣٠٦/٢.

(٥) «الصحيح»: (ثرب).

أو هَجَرَ، فإذا هي المدينةُ يثربُ». متفق عليه^(١). وسنذكره في الهجرة.
وسماها: طابَةَ وَطِيَّةً، من الطَّيْب، فأخرج مسلم عن جابر بن سَمُرَةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَمَّى الْمَدِينَةَ طَابَةَ»^(٢).
وسنذكر قَصَّتْهَا، ومن بناها في باب التَّبَايَعَةِ من ملوك اليمن، وفضلها في سيرة النبي ﷺ.

وقال هشام بن الكلبي: لما أهلك الله قومَ عاد تفرقت القبائل، فنزل قوم بمكة، وقوم بالطائف، وسار يثربُ بن مَهْدِيل بن إرم بن عَيْل وقومُه فنزلوا موضع المدينة^(٣)، فاستخرجوا العيون، وغرسوا النخيل، وأقاموا زماناً، فأفسدوا، فأهلكهم الله ويبست النخيل، وغارت العيون، حتى مرَّ بها بُعٌّ، فبناها لِمَا نذكر.

فصل في مدائن الجزيرة

قال الجوهري: وَالْمَوْصِلُ بلدٌ^(٤). واختلفوا في تسميتها بذلك على قولين، أحدهما: لأنها وصلت ما بين دجلة والفرات، والثاني: لأنه كان في موضعها راهبٌ طليعةٌ للفرس، يوصل إليهم أخبار الروم.
ومن شرقيه المدينة العظمى، ويقال لها: نَيْنَوَى، نذكرها في قصة يونس عليه السلام.
ومنها: نَصِيبين وهي قديمة، وذكرها الجوهري فقال: وَنَصِيبِينَ بلدٌ^(٥).
ومِيَّافَارِقِينَ أعجمي مُعَرَّبٌ، وقد نطقت به العرب^(٦).

(١) البخاري (٣٦٢٢)، ومسلم (٢٢٧٢) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، و«وهلي» الرواية بفتح الهاء، وكذلك ضبطها الإمام النووي وهو بمعنى الوهم، وأهل اللغة يسكنون الهاء، وبذلك جزم ابن الأثير في «النهاية» انظر «فتح الباري» ٤٢٢/١٢.

(٢) مسلم (١٣٨٥).

(٣) جاء في «معجم البلدان» ٤٣٠/٥: يثرب بن قانية بن مهلائيل بن إرم بن عييل بن عوض بن إرم بن سام بن نوح. وانظر «نهاية الأرب» ص ٣١٦-٣١٧.

(٤) «الصحاح»: (وصل).

(٥) «الصحاح»: (نصب).

(٦) انظر «المعرب» ص ٣٧٠.

وَأَمِدُّ مِنْ قَدِيمِ الْمَدَن، وَلَمْ تَتَكَلَّمْ بِهَا الْعَرَبُ، وَقِيلَ: تَكَلَّمْتُ بِهَا.
وَمِنْهَا حَرَآنُ، قَالَ الْجَوْهَرِيُّ: وَحَرَآنُ اسْمُ بَلَدٍ^(١). وَذَكَرَهَا ابْنُ الْجَوَالِيقِيِّ فَقَالَ:
وَحَرَآنُ اسْمُ الْبَلَدَةِ مُعَرَّبَةٌ، وَهِيَ مَسْمَاةٌ بِ: هَارَانَ بْنِ آزَرَ أَخِي إِبْرَاهِيمَ^(٢).
وَقَالَ ابْنُ الْكَلْبِيِّ: لَمَّا خَرَجَ نُوحٌ مِنَ السَّفِينَةِ بَنَاهَا، وَقِيلَ: إِنَّمَا بَنَاهَا هَارَانَ خَالَ
يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَأَبْدَلْتُ الْعَرَبُ الْهَاءَ حَاءً، وَكَانَ بِهَا مَعْبَدٌ لِلْيُونَانِ.

فصل في مدائن الشَّام والسواحل

فَمِنْهَا: حَلَبُ، وَقَدْ ذَكَرَهَا الْجَوْهَرِيُّ فَقَالَ: وَحَلَبُ مَدِينَةٌ بِالشَّامِ^(٣).
وَقَالَ أَبُو الْحُسَيْنِ ابْنُ الْمُنَادِي: الشَّامَاتُ خَمْسُ كُورَ:
الْأُولَى: قَنْسَرِينَ، وَمَدِينَتُهَا الْعِظْمَى حَلَبُ، وَقَنْسَرِينَ أَقْدَمُ مِنْهَا، وَبَيْنَهُمَا أَرْبَعَةُ
فَرَسَاخَ، وَفِيهَا آثَارُ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَقَامُهُ، وَقَدْ نَزَلَهَا أَكَابِرُ الْمُلُوكِ، كَبْنِي حَمْدَانَ
وغيرهم، قَالَ: وَمِنْ رُسْدَاقِهَا مَنَبْجٌ وَهِيَ مَدِينَةٌ قَدِيمَةٌ^(٤). وَذَكَرَهَا الْجَوْهَرِيُّ فَقَالَ:
وَمَنَبْجُ اسْمُ مَوْضِعٍ^(٥).

وَفِي سَاحِلِ حَلَبِ مَدَنٍ مِنْهَا: أَنْطَاكِيَّةٌ، ذَكَرَهَا ابْنُ الْجَوَالِيقِيِّ فِي «الْمَعْرَبِ»، وَقَدْ
تَكَلَّمْتُ بِهَا الْعَرَبُ قَدِيمًا، وَكَانُوا إِذَا أَعْجَبَهُمْ شَيْءٌ نَسَبُوهُ إِلَيْهَا^(٦). وَاخْتَلَفُوا فِي بَانِيهَا
فَقَالَ قَوْمٌ: بَنَاهَا أَنْطَاخُسُ أَوَّلُ مَلُوكِ الْيُونَانِ، وَصَيَّرَهَا دَارَ مَلِكِهِ، وَحَشَدَ إِلَيْهَا الْحُكَمَاءَ
وَأَصْحَابَ الرِّصْدِ وَأَخَذَ الطَّوَالِعَ بِهَا، وَمَسَافَةُ سُورِهَا اثْنَا عَشَرَ مِيلًا، وَعَدَدُ أَبْرَاجِهَا مِائَةٌ
وَسِتَّةَ وَثَلَاثُونَ بَرْجًا، وَعَدَدُ شُرُفَاتِهِ أَرْبَعٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا، وَهَذَا السُّورُ فِي السَّهْلِ
وَالْجَبَلِ، وَقَالَ أَبُو مَعْشَرٍ: بَنِيَتْ بَعْدَ الْإِسْكَانْدَرِ الثَّانِي بِمِائَةِ سَنَةٍ، وَالنَّصَارَى تَسْمِيهَا دَارَ
اللَّهِ؛ لِأَنَّ النَّصْرَانِيَّةَ ظَهَرَتْ مِنْهَا بَعْدَمَا دَثَرَتْ.

(١) «الصَّحَاحُ»: (حَرَن).

(٢) فِي (ل): «هَارَانَ ابْنَ أَخِي أَزَرَ»، وَالمُتَّبِعُ مِنْ «الْمَعْرَبِ» ص ١٧١.

(٣) «الصَّحَاحُ»: (حَلَب).

(٤) انْظُرْ «بَغِيَّةُ الطَّلَبِ» ١/ ٧٢.

(٥) «الصَّحَاحُ»: (نَبْج).

(٦) «الْمَعْرَبُ» ص ٧٣.

وقال ابن المنادي: والشَّامُ الثانية: حِمَصُ وأعمالها، وكانت مركز ملوك الروم، وكان زيتونها وقنواتها متصلة بتدمر وبعلبك، ومن سواحلها طرابلس وما والاها، وقد نزلها خَلْقٌ من الصحابة.

قال: والشَّامُ الثالثة: وهي الغوطة، ومدينتها: دمشق، واختلفوا في الذي بناها على أقوال:

القول الأول: نوح عليه السلام، لما خرج من السفينة، أقام بثمانين^(١) مدة، ثم جاء إلى الشام، فأشرف من جبال الغوطة على الغوطة فأعجبه، فشرع في بنائها واتخذها داراً، وهي أولُ مدينةٍ حُطَّت بعد الطوفان. قاله النضر بن شميل.

والقول الثاني: بيوراسب، وبنى بعدها صُورَ بالساحل. قاله مجاهد.

والقول الثالث: عاد بن عوص، وأنها المشار إليها بقوله تعالى: ﴿إِرم ذاتِ الْعِمَادِ﴾ [الفجر: ٧]. قاله كعب الأحبار.

والرابع: ذو القرنين الإسكندر الأول، لما عاد من المشرق صعد على عقبة دُمر، ومعه غلام اسمه: دمشق، فرأى المياه ضائعةً، فقال له: يا دمشق، ابن هاهنا مدينة، ورسمها له فبناها. حكاه أبو القاسم ابن عساكر في «تاريخ دمشق» وقال: كان الغلام يقال له: دمشقش بزيادة شين، قال: وكان وادي دمشق كله شجر الأرز، قال أبو القاسم: والأرزة التي وقعت في سنة ثلاث مئة وثلاث عشرة من ذلك الأرز، وبنى مكان الجامع معبدًا يعبد الله فيه^(٢).

والقول الخامس: غلام للخليل عليه السلام، يقال له: العازر، وهبه له نمرود لما خرج من النار سالماً. حكاه وهب بن منبه^(٣).

والقول السادس: سليمان عليه السلام.

وبريد وجيرون اللذان ينسب إليهما باب البريد وباب جيرون، هما شيطانان في قول

(١) ثمانين: بليدة عند جبل الجودي، فوق الموصل. «معجم البلدان» ٨٤/٢.

(٢) «تاريخ ابن عساكر» ٦/١-٧.

(٣) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» ٥/١.

أبي الحسن المدائني، كانا على عهد سليمان، وفي قول كعب الأحبار: هما أخوان، وأبوهما سعد بن لقمان بن عاد لما نذكر بعد هذا. وقيل: كان موضع جَيرون وباب البريد مدينة صغيرة، وهما من بعض أبوابها.

وإنما سُمي: الباب الصَّغير، لأنَّه كان أصغرَ أبوابها لما بنيت.

وباب كَيْسان: منسوب إلى كَيْسان مولى معاوية.

وباب ثوما: ينسب إلى عظيم من الروم يقال له: ثوما.

وباب الفَراديس: منسوب إلى محلة كانت في ظاهره يقال لها: الفَراديس.

وباب الفَرَج: فتحه نور الدين محمود ابن زُنكي رحمه الله؛ تفاؤلاً باسمه وما فتح عليه من الفتوح ببلاد الفرنج.

وباب الجايية: منسوب إلى قرية الجايية، وكانت مدينة عظيمة في الجاهلية^(١).

وفي السور أبوابٌ صغار تفتح عند الحاجة إليها^(٢).

وذكر أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خُرْداذْبه: أنَّ أصحاب الرِّس كانوا باليمن، فأرسل الله تعالى إليهم حنظلة بن صفوان نبياً فقتلوه، فسار عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح بولده من الرِّس، فنزل الأحقاف، وأهلك الله أصحاب الرِّس، وانتشر ولد عاد في بلاد اليمن، ثم خرجوا إلى الشام، فنزل جَيرون بن سعد بن عاد بن عوص بن إرم بن سام ابن نوح دمشق، وبنى مدينتها وسماها: جَيرون، وهي إرم ذات العماد، فبعث الله هود بن عبد الله بن رياح بن خالد بن الجلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح نبياً إلى قوم عاد بالأحقاف، فكذبوه فأهلكهم الله. وسنذكر قصتهم في موضعها إن شاء الله تعالى.

وقال بعض الأوائل: إنها بنيت على الكواكب السبعة، وكان لها سبعة أبواب، على كُلِّ باب صورة^(٣)، فالباب الشرقي للشمس، وباب ثوما للزُّهرة، وباب السَّلامة

(١) جاء بعدها في «كنز الدرر» ١/ ١١٢: وباب السلامة: سمته العرب، لأنه لم يكن من جهته قتال في وقت فتوحها في خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

(٢) انظر «تاريخ ابن عساكر» ١/ ٣٦٥-٣٦٦.

(٣) جاء بعدها في «كنز الدرر» ١/ ١١٣: «الكوكب المختص به».

للقمر، وباب الفراديس لعطارد، وباب الجابية للمريخ، والباب الصغير للمشتري، وباب كيسان لزحل.

وقال الجوهري: ويقال: إن صورة زحل باقية عليه إلى الآن^(١).

ودمشق قَصَبَةُ الشَّام، قال: ودمشق من صفات النُّوق^(٢).

واختلفوا في لفظة جَلَّقَ، فقال الجوهري: جَلَّقَ موضع بقرب دمشق^(٣). وقد جاء في الشعر الفصيح، قال حسان^(٤) [من الكامل]:

لِلَّهِ دُرٌّ عَصَابَةٌ نَادِمَتْهَا يوماً بِجَلَّقَ فِي الزَّمانِ الأولِ
قال: وقيل إنه صورة امرأة، كان الماء يجري من فيها في قرية من قرى دمشق^(٥).

وقال الهيثم: بنيت دمشق في خمس مئة سنة، وأصل مياهها من عين في مرج الزبداني عند قرية يقال لها: بَرْدَى، ثم يجتمع من عين الفيحة وينقسم سبعة أنهار، وفي بَرْدَى يقول بعض القدماء^(٦) [من البسيط]:

وما ذكركم إلا وَضَعْتُ يَدِي على حَرَارَةِ قَلْبٍ قَلَّ ما بَرَدَا
وما تَذَكَّرْتُكم والدمعُ يَشْرِقُ بي إلا تَحَدَّرَ من عَيْنِي ما بَرَدَى

فصل في فضل دمشق

روى وهب بن منبه أنه قال: بلغني عن ابن عباس أنه قال: أقدم حائط على وجه الأرض حائط قبله دمشق، وفيه قبر هود عليه السلام. وفي رواية عن كعب أنه قال: أول حائط وضع على وجه الأرض بعد الطوفان حائط حَرَّان ودمشق وبابل^(٧).

(١) لم نقف على كلام الجوهري في «الصحاح».

(٢) «الصحاح»: (دمشق).

(٣) «الصحاح»: (جلق).

(٤) في «ديوانه» ص ٣٦٤.

(٥) انظر «معجم البلدان» ٢/ ١٥٤.

(٦) وهو إبراهيم بن أبي بكر بن عبدالعزيز، أبو إسحاق الجزري الكتي المعروف بـ «فاشوشة» وكان من العمرين (٦٠٢-٧٠٠هـ) والبيتان له. انظر «عقد الجمان» ٤/ ١٥٠، و«شذرات الذهب» ٥/ ٤٥٦.

(٧) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» ٤/ ١.

وذكر مجاهد عن ابن عباس في تأويل قوله تعالى: ﴿وَأَوَّيَّهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠] قال: هي دمشق^(١)، وكذا في قوله تعالى: ﴿إِلَيْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ [الفجر: ٧] إنها دمشق.

وروي عن ابن عباس موقوفاً عليه ومرفوعاً أنه قال: قد وكل الله بكل بلد ملكاً يحرسه، إلا دمشق فإنه يتولاها بنفسه. والموقوف أصح^(٢).

وقال أحمد بن حنبل بإسناده عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه، قال: حدثنا أصحابُ محمد ﷺ أنه قال: «سَتُفْتَحَ عَلَيْكُمُ الشَّامُ، فَإِذَا تَخَيَّرْتُمُ الْمَنَازِلَ فِيهَا، فَعَلَيْكُمْ بِمَدِينَةٍ يُقَالُ لَهَا: دِمَشْقُ، فَإِنَّهَا مَعْقِلُ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْمَلَاحِمِ، وَفُسْطَاطُهُمْ بِأَرْضٍ يُقَالُ لَهَا: الْغَوْطَةُ»^(٣)، إِلَّا أَنَّ جَدِّي رَحِمَهُ اللَّهُ ضَعَّفَ هَذَا الْحَدِيثَ وَذَكَرَهُ فِي «الْأَحَادِيثِ الْوَاهِيَةِ» وَقَالَ: قَالَ يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ: فِي إِسْنَادِهِ أَبُو بَكْرٍ بْنُ أَبِي مَرْيَمَ لَيْسَ بِشَيْءٍ^(٤).

قلت: وقد أخرج مسلم عن النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُنْزَلُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ، شَرْقِيَّ دِمَشْقَ بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ، وَاضْعَاً كَفِّيهِ عَلَى أَجْنَحَةِ مَلَكََيْنِ»^(٥). وهو حديث طويل. والمَهْرُودَةُ: المصبوغة.

وروي وَهْبُ بْنُ مَنْبُهٍ قَالَ: كَانَ الْخَضِرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَطْرُقُهَا، فَأَتَاهَا مَرَّةً فَوَجَدَهَا بِحِيرَةً، فغاب عنها خمس مئة سنة، ثم أتاهَا فإذا هي عامرة، فغاب عنها خمس مئة سنة أخرى وأتاهَا، فإذا هي مقصبة، ثم عاد إليها فوجدَهَا عامرة، فعل ذلك مراراً، وهذا يدل على أنها قديمة.

وحكى الحافظُ أَبُو الْقَاسِمِ فِي «تَارِيخِهِ»: أَنَّهُ كَانَ بِدِمَشْقَ رَجُلٌ صَالِحٌ، وَكَانَ يَقْصِدُهُ الْخَضِرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَذَلِكَ فِي زَمَانِ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سَفْيَانَ، فَلَبِغَ مُعَاوِيَةُ، فَجَاءَ إِلَى الرَّجُلِ وَقَالَ لَهُ: اجْمَعْ بَيْنِي وَبَيْنَ الْخَضِرِ عِنْدَكَ، قَالَ: نَعَمْ، فَجَاءَ الْخَضِرُ عَلَى

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» ٩١/١، من حديث عكرمة عن ابن عباس.

(٢) لم نقف عليه.

(٣) أحمد في «مسنده» (١٧٤٧٠).

(٤) «العلل المتناهية» ٣٠٧/١.

(٥) صحيح مسلم (٢٩٣٧). والمهرودتان: ثوبان مصبوغان بورس ثم بزعفران. انظر: شرح النووي ٦٧/١٨.

عادته، فأخبره بما قال معاوية، فقال: ليس لي إلى ذلك سبيل، فقال: فأخبر معاوية بما قال، فقال له معاوية: قل له: قد قعدنا مع من هو خير منك، وحدثناه وخاطبناه، وهو محمد ﷺ، ولكن أسأله عن ابتداء بناء دمشق، كيف كان، فقال: نعم، وذكر بمعناه^(١).

وذكر الحافظ أيضاً عن أبي الحسين الرازي والد تَمَّام، ذكر في «تاريخه»: أن عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس لما حاصر دمشق وهدم سورها، وقع منه حجر عليه منقوش باليوناني، فترجم بالعربية وكان: ويك إرم^(٢) الجابرة، من رامك بسوء قصمه الله، ويملك من خمسة أعين، ينقض سورك على يديه بعد أربعة آلاف سنة، فنظر فإذا هو عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، ففعل بها ما فعل^(٣).

وقد ورد في فضائل دمشق أخبار، للمحدثين فيها نظر، فلذلك عَدَّينا عنها. وقد ذكرها أبو القاسم ابن عساكر في «تاريخه» وليس فيها ما يثبت إلا النادر.

وذكر الحافظ أبو القاسم أيضاً في أخبار دمشق: أن أبا الفتح المسلم بن هبة الله، ألَّفَ^(٤) رسالةً في تفضيل دمشق على الدنيا، وكان فاضلاً، وهو القائل: [من الطويل]
وما ذقت طعم الماء إلا وجدته كأن ليس بالماء الذي كنت أعرف
وما سرَّ صَدْرِي مَذْنَاءَتْ بِي النوى أنيس ولا مال ولا مُتَصَرَّف
وما أحضر اللذات إلا تكلفاً وأيُّ سُرورٍ يَقتضيه التَّكَلُّفُ
وروي عن كعب الأحبار: أنه رأى رجلاً من أهل الشام، فقال: من أين أنت؟
فقال: من دمشق، فقال: أنت من الذين يُعرفون في الجنة بالثياب الخضراء^(٥).

وحكى جماعة عن مشايخ دمشق: أن بالغوطة مئة ألف ونيفاً وثلاثين ألف بستان،

(١) «تاريخ دمشق» ١/ ٥-٦.

(٢) في (ل): «أم» والمثبت من «تاريخ دمشق».

(٣) «تاريخ دمشق» ١/ ٧، والخمسة أعين، هي أول حرف من اسم هذا الرجل واسم آبائه، و«بن عبد المطلب» مستدرَك من «تاريخ دمشق».

(٤) في النسخ: «صنف ألف»، والمثبت من تاريخ دمشق ٦٧/ ٢٠٥.

(٥) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» ١/ ١٢٣-١٢٤.

وسنذكر أنهارها فيما بعد.

وقد أكثر الشعراء في وصف دمشق، فمنهم أحمد بن منير الطرابلسي.

أنبأنا أبو البركات الدمشقي عن جماعة من أشياخه، قالوا: أنبأنا ابن منير، قال:

[من البسيط]

حَيِّ الدِّيَارِ عَلَى عَلِيَاءِ جَيُّونَ
مُرَادَ لَهْوِي إِذْ كَفِّي مُصْرَفَةٌ
فَالنَّيْرَبَيْنِ فَمَقْرَى فَالرِّيَاضِ فَجَمُ
فَالْقَصْرِ فَالْمَرْجِ فَالْمَيْدَانِ فَالشَّرَفِ
تِلْكَ الْمَنَازِلِ لَا وَادِي الْأَرَاكِ وَلَا
وَاهَا لَطِيبُ غُدِيَّاتِ الرَّبِيعِ بِهَا
وَطَابَ تَغْرِيدُ قَيْنَاتِ الْغُصُونِ وَأَغُ

مَهْوَى الْهَوَى وَمَغَانِي الْخُرْدِ الْعَيْنِ
أَعِنَّةَ الْعَيْسِ فِي فَيْحِ الْمِيَادِينِ
رَايَا فَجَوَّ حَوَاشِي جَسَرِ جَسْرَيْنِ
أَعْلَى فَسَطْرَا فَجَرْمَانَا فَقُلْبَيْنِ
رَمْلُ الْمَصْلَى وَلَا أَثْلَاثُ يَبْرَيْنِ
وَبَرْدُ أَنْفَاسِ آصَالِ التَّشَارِينِ
نَتَّهَا الْحَنَاجِرِ عَنْ شَدِّ الدَّسَاتِينِ^(١)

وقد وازنها أبو عبدالله محمد بن محمد، الملقب بالعماد الكاتب الأصبهاني، ولي

منه إجازة، قال^(٢): [من البسيط]

أَهْدَى النَّسِيمُ لَنَا رِيًّا الرِّيَاحِينَ
هَبَّتْ لَنَا نَفْحَةً فِي جِلْقٍ سَحَرًا
وَمِنْهَا: [من البسيط]

أَم طَيْبَ أَخْلَاقِ جِيرَانِي بِجَيُّونِ
بَاحَثٍ بِسَرٍّ مِنَ الْفَرْدَوْسِ مَكْنُونِ

دَمَشْقُ عِنْدِي لَا تُحْصَى فُضَائِلُهَا
وَمَا أَرَى بِلَدَةً أُخْرَى تُمَاتِلُهَا
وَأَنَّ مِنْ بَاعِ كُلِّ الْعُمَرِ مُقْتَنَعًا
لَمَّا عَلَتْ هِمَّتِي صَيَّرْتُهَا وَطْنِي
تَرَى جَوَاسِقَهَا^(٣) فِي الْجَوِّ شَاهِقَةً

عَدَا وَحْضَرًا وَيُحْصَى رَمْلُ يَبْرَيْنِ
فِي الْحُسْنِ مِنْ مِصْرَ حَتَّى مُنْتَهَى الصَّيْنِ
بَسَاعَةٍ فِي دُرَاهَا غَيْرُ مَعْبُونِ
وَلَيْسَ يَقْنَعُ غَيْرُ الدُّونِ بِالدُّونِ
كَأَنَّهُنَّ قُصُورٌ لِلْسَّلَاطِينِ

(١) هذا البيت زيادة من (ل)، والدساتين: هي الرباطات التي توضع الأصابع عليها في آلة العود. مفاتيح

العلوم ٤٥/١.

(٢) الأبيات في «الخريدة» «قسم شعراء دمشق» ص ٣٠-٣٤.

(٣) الجواسق: القصور.

دارُ النَّعِيمِ وَمِنْ أَدْنَى مُحَاسِنِهَا
نَعِيمُهَا غَيْرُ مَمْنُوعٍ لَسَاكِنِهَا
أَزْهَارُهَا أَبَدًا فِي الرُّوضِ مَوْزِنَةٌ
وَلِلْحَمَائِمِ فِي الْأَسْحَارِ أَدْعِيَةٌ
خَافَتْ عَلَى الرُّوضِ مِنْ عَيْنِ مُطَوِّقَةٍ
مِنْ كُلِّ مُطَرِّبِ صَوْتٍ غَيْرِ مُضْطَرِّبِ
وَلِلْبَسَاتِينِ أَنْهَارُ جَدَاوِلِهَا
وَقَدْ تَرَاءَتْ بِهَا الْأَشْجَارُ تَحْسِبُهَا
يَا صَاحِبِي أَفِيْقًا فَالزَّمَانُ صَحَا
دَارُ الْمَقَامَةِ قَدْ أَضْحَتْ مَحَلَّكُمَا
وَقَالَ ابْنُ مَنِيرٍ أَيْضًا^(٢): [مَنْ الْبَسِيطُ]

ثَمَارُ تَمْوَرٍ فِي أَيَّامِ كَانُونِ
كَالْخُلْدِ وَالْمَنْ فِيهَا غَيْرُ مَمْنُونِ
فَحُسْنُ نَيْسَانَ مَوْصُولٌ بِتَشْرِينِ
مَرْفُوعَةٌ شُفَعَتْ مِنْهَا بِتَأْمِينِ
أَضْحَتْ تَعَوُّذُهُ مِنْهَا بِيَاسِينِ
وَكُلُّ مُعْرَبٍ لَفِظٍ غَيْرِ مَلْحُونِ
تَسْتَنْ فِي الْجَزْيِ أَمْثَالَ الثَّعَابِينِ
صَفُوفَ خَيْلٍ صَفُونِ^(١) فِي الْمِيَادِينِ
وَلَا نَ مِنْ بَعْدِ تَشْدِيدٍ وَتَخْشِينِ
وَنِلْتُمَا الْعَزَّ فِي أَمْنٍ مِنَ الْهُونِ

سَقَى دَمَشَقٌ وَمَغْنَى لِلْهَوَى فِيهَا
لَا زَالَ لِلدَّوْحِ عِظَارًا يُرَاوِحُهَا
دَارُ هِيَ الْجَنَّةُ الْمَحْبُورُ سَاكِنُهَا
تَبَارَكَ اللَّهُ كَمْ مِنْ مَنْظَرٍ بَهَجٍ
مِنْ أَيْبَاتِ.

حَيًّا تَهْزُلُهُ أَعْطَافُهَا تِيهَا
وَلِلْسَحَائِبِ خَمَارًا يُغَادِيهَا
فَإِنْ تَكُنْهَا وَلَا فَهِيَ تَحْكِيهَا
يَسْتَوْقِفُ الطَّرْفُ فِي بَطْحَاءِ وَاْدِيهَا

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْقَيْسَرَانِي: [مَنْ الْبَسِيطُ]:

أَرْضُ تَحُلُّ الْأَمَانِي مِنْ مُحَاسِنِهَا
إِذَا شَدَا الطَّيْرُ فِي أَغْصَانِهَا وَقَفَتْ
وَقَالَ فِيهَا أَيْضًا أَشْعَارًا كَثِيرَةً.

بَحِثْ تَجْتَمِعُ الدُّنْيَا وَتَفْتَرِقُ
عَلَى حَدَائِقِهَا الْأَسْمَاعُ وَالْحَدَقُ

وَقَالَ الْقَاضِي أَحْمَدُ بْنُ كَامِلٍ: لَمَّا قَدِمَهَا الْبُحْتَرِيُّ مَعَ الْمَتَوَكَّلِ، وَشَاهَدَ أَنْهَارَهَا
وَأَشْجَارَهَا وَأَطْيَارَهَا وَقُصُورَهَا وَوُلْدَانَهَا وَحُورَهَا، قَالَ: ارْتَفَعَتْ دَمَشَقُ عَنِ الْوَصْفِ
فَهِيَ كَمَا قِيلَ:

(١) فِي (ل): «صَفُوفٌ» وَالْمُثَبَّتُ مِنْ «الْخُرَيْدَةِ»، وَصَفَنَ الْفَرَسُ: قَامَ عَلَى ثَلَاثِ قَوَائِمٍ وَطَرَفَ حَافِرُ الرَّابِعَةِ.

(٢) الْأَيْبَاتُ فِي «دِيَوَانِهِ» ص ٢٠٦.

في كلِّ ناحية من وجهها قمر^(١)

ثم قال^(٢): [من البسيط]

العيشُ في ليلٍ دارياً إذا برّدا والراحُ نمرُجُها بالماء من برّدى
أما دمشق فقد أبدت محاسنها وقد وفّى لك مطريها بما وعدا
من أبيات.

وللعماد الكاتب في مدحها قصائد عديدة ذكرها في «الخريدة»^(٣).

وقال ابن الكلبي: دمشق كورة من كُور الشام، ومن أعمالها:

البلقاء، منسوبة إلى بالق.

وعَمَّان - بالتشديد - سميت بذلك لأن عَمَّان بن لوط عمرها وأقام بها.

وزُغَر ومآب باسم ابنتي لوط عليه السلام، وقيل: مآب بن لوط والرية بنت لوط عليه السلام.

وقيل: وسميت صَيِّدا بصيِّدون بن كنعان بن نوح عليه السلام.

وأريحا: بأريحا بن مالك بن أرفخشذ بن سام بن نوح.

وسميت: الكُسوة، لأن رسل ملك الروم باتوا بها، فسرقت ثيابهم، فأصبحوا عُرّة، وقيل: لأن غسان قتلهم واقتسمت ثيابهم وكسوتهم.

والجايّة: الحوض.

قال: وُصُور وعَكَّة من أعمال دمشق، وقال الجوهري: عَكَّة - بالهاء - قال: وهي اسم بلد بالثُّغُور^(٤). ويقال: عَكَّا بالمدّ، بدليل أنك إذا نسبت إليها قلت: رجل عَكّاوي، وُصُور من صار إذا مال، وهي مائلة في البحر.

(١) هذا عجز بيت لبشار بن برد صدره: «كأنما أفرغت في جوف لؤلؤة» وعزاه إليه أسامة بن منقذ في «البديع في البديع»، ولم نقف عليه في ديوانه.

(٢) البيتان في ديوانه ٧٠٩/٢-٧١٠.

(٣) «الخريدة» «شعراء دمشق» ص ١٩-٣٤.

(٤) «الصحاح»: (عكك).

ومنها: الرَّبُّوَّة، كان عيسى عليه السلام وأمه يأويان إليها، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَوَيْنَهُمَا إِلَىٰ رُبُوعٍ ذَاتِ قُرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠].

ومنها: قاسيُون، وسنذكره في الجبال.

وبظاهر دمشق أماكن مباركة، منها: مقبرة باب الفَراديس، كان كعب الأحبار يقول: يبعث الله منها سبعين ألف شهيد، يشفعون في سبعين ألف إنسان^(١).

وقال كعب: بِطَرَسُوس عشرة من قبور الأنبياء، وبالمَصَّيصة خمسة، وبأنطاكية قبر حبيب النجار، وبِحَمَص ثلاثون نبياً، وبدمشق خمس مئة، وبالسواحل ألف نبي، وبيت المقدس ألف نبي، وبالعريش عشرة.

وروى مكحول عن ابن عباس قال: من أراد أن ينظر إلى قبور الأنبياء فعليه بالشام^(٢).

قلت: وقد ذكر أبو القاسم ابن عساكر أثاراً في أماكن بظاهر دمشق، منها:

قرية بَرَزَة، فروى بإسناده إلى ابن عباس: قال: ولد إبراهيم في غوطة دمشق، بقرية يقال لها: بَرَزَة، في جبل يقال له: قاسيُون^(٣). ثم ذكر بعده: أن إبراهيم قدم إلى الشام، وجاهدَ ملكَ التَّبَط، وجاءَ فصلً في المقام^(٤).

قلت: لا خلاف بين علماء السير أن إبراهيم ولد بالعراق، ما اختلف فيه اثنان^(٥). ثم روى بعد هذا: أن جبل بَرَزَة هو الذي رأى منه إبراهيم الكواكب، وقال: هذا ربي وهذا تناقض، ثم قال: والشَّقُّ الذي في المسجد هو الذي اختبأ فيه إبراهيم من نُمرود^(٦)، ثم روى بعد هذا حديثاً عن النبي ﷺ، أنه قال: «وبالغوطة جبلٌ يقال له:

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» ٣٦٦/١.

(٢) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» ٣٦٦/١.

(٣) «تاريخ دمشق» ٣٣١/١.

(٤) «تاريخ دمشق» ٣٣٢/١.

(٥) وسنذكر المصنف الاختلاف فيه عند مولده ﷺ، وقد نص ابن عساكر في «تاريخه» ٣١٣/٢ على ما اعتمده المصنف أنه ولد بالعراق.

(٦) «تاريخ دمشق» ٣٣٢/١.

قاسيون، فيه قتل ابن آدم أخاه»^(١). وهذا الحديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، ولا قتل قابيل أخاه بالشام، بل في الهند، وسنذكره فيما بعد. وذكر أيضاً أن الدم الذي على قاسيون دم هابيل، وأن الملائكة نزلت عزّت آدم في الكهف الذي بقاسيون، وحكاه عن كعب الأخبار وغيره^(٢).

قلت: ما ورد عن كعب الأخبار في هذا الباب، فقد توقّف الناس في رواية كعب، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يضربه بالدرة ويقول: دعنا من يهوديتك، ومع هذا أجاز روايته بعضهم إذا لم يرو عن النبي ﷺ؛ لأنه أسلم على يد عمر، فالرواية عن رسول الله ﷺ في هذا الباب فيها وهن عظيم إذا لم توافق السنن والأصول.

فروى أبو القاسم في فضل دمشق والغوطة حديثاً عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «خلق الله عز وجل جمجمة جبريل على قدر الغوطة»^(٣). وهذا مما لا توافقه عليه قضايا العقول، لأنه قد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «خلق الله تعالى الملائكة من نور»^(٤). والنور روحاني فكيف يكون جسماً، وفي رواية: «من نور العرش»^(٥) ولما سأله رسول الله ﷺ أن يظهر له في صورته، ظهر فسدّ أحد جناحيه ما بين المشرق والمغرب^(٦)، وسنذكره في ليلة المعراج.

عدنا إلى قول ابن المنادي:

والشام الرابعة: الأردن ومدينة طبرية على ساحل البحيرة، ويقال: إنها من بناء سليمان عليه السلام، وإن قبره على شاطئ البحيرة.

(١) «تاريخ دمشق» ١/ ٣٣٣.

(٢) «تاريخ دمشق» ١/ ٣٣٤، دون قصة تعزية الملائكة لآدم.

(٣) «تاريخ دمشق» ١/ ٣٣٩.

(٤) أخرجه مسلم (٢٩٩٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٥) أورده ابن كثير في «تفسيره» ٣/ ٣٩٢، وعزاه إلى ابن مردويه.

(٦) أخرجه ابن عدي في «الكامل» ١/ ٣٥٨، والخطيب في «موضح أوهام الجمع» ١/ ٤٧١ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وفيه إدريس بن سنان قال ابن عدي: أرجو أنه من الضعفاء الذين يكتب حديثهم. وأخرجه ابن المبارك في «الزهد» ص ٧٤ من حديث ابن شهاب عن النبي ﷺ مرسلًا، ورؤيته لجبريل في الصحيحين البخاري (٤٨٥٥)، ومسلم (١٧٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

قال: والشام الخامسة: الرملة، ومدينتها فلسطين والبيت المقدس وعسقلان وغزة والبلاد الساحلية.

قلت: وقد أشار الجوهري إلى ما ذكر ابن المنادي، فإنه قال: الشام خمسة أجناد: دمشق، وحمص، وقنسرين، والأردن، وفلسطين، يقال: لكل مدينة جند^(١).

وقال ابن الجواليقي: وشيّر اسم موضع لا أحسبه عربياً صحيحاً^(٢). وقال في «الصحاح»: وشيّر بلد^(٣).

وقد ذكر امرؤ القيس حماة في شعره، فدلّ على أنها قديمة، والشعر الذي ذكر حماة فيه^(٤): [من البسيط]

تَقَطَّعُ أَسْبَابُ اللَّبَانَةِ وَالْهَوَى عَشِيَّةَ جَاوَزْنَا حِمَاةَ وَشَيْرَا
وقال أبو عبيد: ومن الناس من يبتدئ بالرملة فيجعلها للشام الأعلى وبعدها فلسطين، ثم دمشق، ثم حمص، ثم حلب.

فصل في مدائن الروم

منها قيسارية: وهي من المدن القديمة، وقد مرّ بها امرؤ القيس لما دخل الروم. ويقال: إن قبره على جبل قريب منها يقال له: عسيب. وسنذكره في ترجمته^(٥).

عمورية: وكان ملكها يركب في مئة ألف فارس، وكان حولها ألف عمود ومئتا عمود، على كل عمود راهب لا ينزل منه إلا بالموت، وكانت مركز قيصر، ومنها كان يستعدّ للغارات على بلاد المسلمين: الشام والجزيرة وغيرهما، ففتحها المعتصم، لما نذكر.

ومنها القسطنطينية: وهي المدينة العظمى، بناها قسطنطين الملك، وهو أول من

(١) «الصحاح»: (جند).

(٢) «المعرب» ص ٢٥٤.

(٣) «الصحاح»: (شزر).

(٤) البيت في «ديوانه» ص ٦٢.

(٥) سيذكره المصنف في الجبال والهضاب، عند وصفه لجبل عسيب، ولم يذكره في ترجمة امرئ القيس.

أظهر دين النصرانية، لما نذكر، قالوا: ولها سبعة أسوار، وسُمك سورها الكبير أحد وعشرون ذراعاً، وفيه مئة باب، وسمك فصيلها^(١) الصغير عشرة أذرع، وهي على خليج يصب في البحر الرومي، وهي متصلة ببلاد رومية والأندلس، لما نذكر في باب البحار.

وقد جاء في ذكرها^(٢)، قال مسلم بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «سمعتُ بمدينة جانب منها في البرّ، وجانب منها في البحر؟» قالوا: نعم، فقال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يغزوها سبعون ألفاً من ولد إسحاق، فإذا جاؤوها نزلوا، لم يقاتلوا بسلاح، ولم يرموا بسهم، قالوا: لا إله إلا الله والله أكبر، فيسقط أحد جانبيها، ثم يقولون: لا إله إلا الله والله أكبر، فيسقط الجانب الآخر، فيقولون الثالثة كذلك، فيفرج لهم، فيدخلونها فيغنون ما فيها، فينما هم يقتسمون الغنائم إذ جاءهم الصريح: أن الدجال قد خرج، فيتركون كل شيء ويرجعون». وهذا حديث طويل وفيه أمارات الساعة، وانفرد بإخراجه مسلم^(٣). وقال ثور بن يزيد: هي القسطنطينية.

قال أحمد بإسناده إلى أبي قبيل قال: كنا عند عمرو بن العاص وسئل: أي المدينتين تُفتح أولاً: قسطنطينية أو رومية؟ فقال: قال رسول الله ﷺ: «مدينة هرقل» يعني القسطنطينية^(٤).

قال: ومنها مدينة رومية: ذكر ابن خردادبه في كتاب «المسالك والممالك»: أن طولها من الباب الغربي إلى الباب الشرقي ثمانية وعشرون ميلاً، ولها سوران من حجارة بينهما مقدار ستين ذراعاً فضاء، سمك السور الأول اثنان وسبعون ذراعاً، وسمك الثاني اثنان وأربعون ذراعاً، وبين السورين نهرٌ مُعْطَى ببلاطٍ من نحاس، طول كل بلاطة سبعة وأربعون ذراعاً.

(١) الفصيل: حائط قصير دون سور المدينة والحصن «الصحاح»: (فصل).

(٢) بعدها في «كنز الدرر» ١/١٢١: «حديث».

(٣) مسلم (٢٩٢٠).

(٤) أحمد في «مسنده» (٦٦٤٥).

قال: والنهر الذي يدخل فيها من البحر، تدخل فيه المراكب بقلوعها^(١)، فتقف على حوانيت التجار تباع وتشتري.

وفي داخلها كنيسة بُنيت على اسم بطرس وبولص الحواريين، وهما فيها في جرنٍ من الرخام مدفونين، وطولُ هذه الكنيسة ثلاثة آلاف ذراع، وعرضها ثلاث مئة ذراع، وقيل: ألف ذراع، وهي مبنية على قناطرٍ من صُفْرٍ ونحاس، وكذا أركانها وسقوفها وحيطانها، وهي من العجائب.

قالوا: وفيها كنيسة مثل البيت المقدس على عرضه وطوله، مُرَصَّعة باليواقيت والجواهر والزُّمُرْد، وطول مَذْبَحِها عشرون ذراعاً من الزمرد الأخضر، وعرضه ستة أذرع، يحملها اثنا عشر تمثالاً من الذهب الإبريز، طول كلِّ تمثالٍ ذراعان ونصف، ولكل تمثالٍ عينان من الياقوت الأحمر تضيء الكنيسة منهما، ولها ثمانية وعشرون باباً، وطولُ الكنيسة ميلٌ، وأبوابها من الذهب.

قالوا: ولرومية ألف بابٍ من النحاس الأصفر، سوى العود والصنوبر والخشب والآبنوس المنقوش، الذي لا يُدرى ما قيمته، قالوا: وبها ألف ومئتا كنيسة، وأربعون ألف حمام^(٢).

وفيها طَلَّسَمَاتٌ للحيات، والعقارب لا تدخل إليها، وطلَّسَمٌ يمنع الغريب من الدخول إليها، وملكها يقال له: «الباب»، وهو الحاكم على دين النصرانية^(٣)، بمنزلة الخليفة في المسلمين، وفي وسطها سوق يباع فيه الطير مقدار فرسخ، وقد ذكرنا أن مملكتها مسيرة ثلاثة آلاف فرسخ، وبها عجائب نذكرها في فصل العجائب.

فصل في مدائن مصر وما والاها

أما الفُسطاط فسندكره عند فتوح مصر وكذا القاهرة عند بنائها. وذكر ابن حوقل في «كتاب الأقاليم» فقال: وأما مصر فلها حدٌّ يأخذ من بحر الروم

(١) القلْع: الشراع.

(٢) «المسالك والممالك» ص ١١٣-١١٥.

(٣) بعدها في «كنز الدرر» ١/ ١٢٣: «كلها برها وبحرها، ومنزلته».

من الإسكندرية، إلى بَرْقَة في البرية، ثم إلى ظهر الواحات، ويمتد إلى بلاد الثُّوبَة، ثم يعطف على حدّ أسوان إلى أرض البجاة ويتتهي إلى بحر القُلْزُم إلى طور سَيْناء، ثم يعطف على تيه بني إسرائيل ماراً في الجِفَار إلى بحر الروم خلف العَرِيش إلى رَفَح، ثم يعود على ساحل البحر الروميّ إلى الإسكندرية^(١).

ومن مدائنها القديمة: مدينة فرعون، واسمها مَنُفُ، وقيل: عين شمس، وكان قد بالغ في بنائها وجعل لها سبعين باباً، وبنى حيطانها بالصُّفَر والنحاس، وزخرفها بالذهب والفضة، وأجرى الأنهار تحت قصورها، وأجرى الماء تحت سريره ونصبه على الماء، وافتخر وقال: ﴿وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ [الزخرف: ٥١] وبالغ فيما فعل^(٢). وسنذكره في قصته مع موسى عليه السلام.

ومنها: الإسكندرية، واختلفوا في بانيها على أقوال:

أحدها: شَدَّاد بن عاد. قاله وهب.

والثاني: الإسكندر الأول ذو القرنين، وهو المَقْدُونِي. قال الهيثم بن عدي: ومَقْدُونِيَة هي أرض مصر، وإنما سميت مصر بمصر بن حام بن نوح عليه السلام، وكان مصر بن حام لما انفصل عن بابل نزلها، فنسبت إليه، وقسمها بين أولاده الأربعة، وهم قفط وأشمون وأقرن وصا، وكان قفط هو الأكبر، وسمى كل مكان باسم ولد.

وقال الهيثم: مرَّ بها ذو القرنين فأعجبه مكانها وصحَّة هوائها، فأمر بعمارتها، فلما شرع وجد أثر البنيان، ومرمرأ ورخاماً وعموداً عليه بالقلم المسند من أقلام جَمِير، فحلَّه فإذا هو: أنا الملك شَدَّادُ بن عاد، شددت بساعدي البلاد، وقطعت الأطواد، وبنيت إرم ذات العماد، التي لم يكن مثلها في البلاد، وأردت أن أبني هنا مثل إرم، وأنقل إليها كل ذي قدم، من جميع الأمم، لا خوف ولا هرم، ولا غم ولا سقم، فرماني الدهر بسهمه، فأصاب مقتلي، وأخرجني من داري ووطني، فمن رأيي فلا يغترَّ بالدينا بعدي.

(١) «صورة الأرض» ص ١٢٦.

(٢) انظر «المسالك والممالك» ص ١٦١.

فلما قرأ الإسكندر ما على اللوح، قوي عزمه على بنائها، فجمع الحكماء والمهندسين وأرباب الرصد، وهياً الأخشاب والحجارة، وقال للمنجمين: خذوا طالع الوقت، وهياً على الأخشاب أجراساً عند الأساس، وقال للمنجمين: إذا أخذتم الطالع، فحرّكوا الأجراس لتضعوا الأساس، وذلك برأي مني، واتفق أن الإسكندر نام في تلك الساعة والمنجمون يرصدون، فغفلوا فجاء غراب فقعد على الجرس الأكبر وحركه، فتحرّكت الأجراس دفعةً واحدةً، فوضع الصناع الأساس، وصاحوا صيحةً انتبه لها الإسكندر، فلما رأى الغراب قاعداً على الجرس فهم القصة، فقال: أردنا أمراً وأراد الله غيره، وأمر بإتمام البناء، فلما تمّ السور خرجت في الليل من البحر دوابٌ على صورة الشياطين فأخبرته فأعاد البناء مراراً وهي تهدم السور، فجمع الحكماء والمهندسين حتى تُحَقَّقَ صورهم وإذا بهم شياطين، فعملوا طَلَّسَمَاتٍ من نحاس على صورهم، وجعلوها على أعمدة من نحاس، فلما خرجت الجن ورأت صورها على الأعمدة ولّت منهزمة ولم تعد. وبنى عليها سبعة أسوار بين كل سورين خندق، فتم بناؤها في مئة سنة.

والثالث: أن الذي بناها الملكة دلوكة لتجعلها مرقباً من ناحية الروم، لأن الروم إنما ملكت مصرَ منها. قاله التَّوْبَخْتِي.

والرابع: أن الذي بنى الأهرام بناها، وإنما أُضيفت إلى الإسكندر لأنه سكنها. قال التَّوْبَخْتِي: مكث أهلها سبعين سنة لا يمشون بالنهار إلا وعلى وجوههم خرقٌ سودٌ على عيونهم لشدة بياض حيطانها وصقالها.

ذكر منارتها: ذكر صاحب «المسالك والممالك»: أن المنارة على سرطان من زجاج في البحر صنعها الإسكندر^(١). قلت: وليس كما ذكر، وإنما هي على جبل في البحر قد أكل الماء معظمه وقد شاهده في سنة أربعين وست مئة وصعدت على رأسها، والمنارة على خطر.

وقيل: إن الإسكندر لما مات كسروا آنية طعامه وشرابه وجمعوا جواهره وذخائره

(١) «المسالك والممالك» ص ١٦٠.

وجعلوا الجميع في سرطان من زجاج ودفنوه في أساس المنارة، وهذا أصح. وذكر جدي رحمه الله في «المنتظم»: أنه كان على رأس المنارة مرآة إذا نظر الناظر فيها قبل طلوع الشمس رأى مَنْ يَكُونُ بالقسطنطينية وبينهما عرض البحر^(١). قلت: وهذا إنما نقله من كتاب «المسالك والممالك»^(٢) وليس كما ذكر صاحب المسالك، فإن مسافة ما بين القسطنطينية والإسكندرية نيفاً وأربعين يوماً إذا طابت الرياح، على ما حكاه لي مشايخ الإسكندرية، وإن ما بين الإسكندرية وقبرس إذا طاب الهواء مسيرة ثلاثة أيام، فكأن الناظر قبل طلوع الشمس ينظر فيها إلى المراكب وقد أقلعت من قبرس فيخبر أهل البلد فيستعدون للحرب، فتَحِيلَ ملوك الفرنج حتى قلعوا المرأة من المنارة.

واختلفوا في أي زمانٍ قُلِعَتِ المرأة على قولين: أحدهما في زمان الوليد بن عبد الملك بن مروان، وكان الإسكندر صنع هذه المرأة حفظاً للبلد من العدو، فكان في عزم ملوك الروم، قصد مصر فلم يتأت لهم ذلك، وكان لهم ملكٌ داهية فأظهر الغضب على خادم له وكان خصيصاً به وكان الخادم باقعة^(٣) ذا مكرٍ وخديعة، فأعطاه أموالاً عظيمة وجواهر، وأسرَّ إليه ما يصنع، فخرج إلى بلاد الإسلام ودفن تلك الأموال والجواهر في أماكن متفرقة، وجاء إلى الوليد فأسلم على يده، وقال: أنا خادم الملك الفلاني، وقد رغبت في الإسلام، وقد وقع لي كتابٌ فيه أسماء المطالب التي بالشام ومصر فساعدني بالمال والرجال لترى ما أصنع، وكان الوليد شريهاً فأمدّه بما طلب، فصار يحفر تلك الأماكن التي أودع فيها الأموال والجواهر ويحملها إلى الوليد، فسرَّ به واستولى عليه وملك قلبه وأخذ منه من الأموال أضعاف ما كان يحمل إليه، وكان يبعث بها إلى ملك الروم أولاً فأولاً سرّاً، فقال الخادم للوليد: إن تحت منارة الإسكندرية دفائن الإسكندر وذخائره وذخائر شداد بن عاد وملوك مصر لا يعلمها إلا الله، فابعث معي رجالاً لنهدم المنارة، وكان طولها ألف ذراع، والمرأة على رأسها،

(١) «المنتظم» ١/ ١٦٤.

(٢) «المسالك والممالك» ص ١١٥.

(٣) الباقعة: الرجل الداهية، والذكي العارف لا يفوته شيء ولا يدهى.

فبعث معه الرجال فهدم جانباً منها فثار المسلمون وأرادوا قتلَ الخادم وقالوا: تهدم هذه المنارة بقول علعج؟! فأمهل الخادم إلى الليل وقد أعدَّ مركباً للهرب، وصعد إلى المرأة نصف الليل وحده فقلعها ورمى بها في البحر، وركب المركب الذي أعدّه وتمَّت الحيلة، ذكره المسعودي^(١).

والثاني: أن الواقعة كانت في زمان الحاكم، بعث بعض ملوك الروم راهباً فأظهر الإسلام وأقام يتعبد في المنارة حتى وجد فرصة فقلعها في الليل ورمى بها في البحر وهرب، ذكره أبو سعيد ابن يونس^(٢) في «تاريخ مصر».

وذكر جدي رحمه الله في «المنتظم» وقال: كان بالإسكندرية ست مئة ألف يهودي ونصراني حَوَلاً لأهلها^(٣). قلت: وهذا يحتمل أنه كان في قديم الزمان، أما اليوم فلا يبلغ أهلها هذا العدد المذكور.

وحكى ابن عساكر في «تاريخه» في حرف الهمزة في من اسمه أسامة بن زيد بن عدي أبو عيسى الكاتب التنوخي قال: كان بالإسكندرية صنم يقال له: شراحيل، على حَشَفَةٍ من حَشَفِ البحر وهي في الجزيرة، وكان مستقبلاً بإصبعه القسطنطينية، لا يُدرى أكان مما عمله سليمان أو الإسكندر، فكانت الحيتان تجتمع عنده وتدور حوله فتصاد، فكتب أسامة إلى الوليد بن عبد الملك بن مروان يخبره بخبر الصنم ويقول: الفلوس عندنا قليلة، فإن رأى أمير المؤمنين أن يقلع الصنم ويضربه فلوساً، فأرسل إليه الوليد رجالاً أمناء، فأنزلوا الصنم من الحشفة، فوجدوا عينيه ياقوتتين حمراوين ليس لهما قيمة، فذهبت الحيتان فلم تعد إلى ذلك المكان، وضربه فلوساً^(٤).

فصل في بلاد المغرب

وأشهرها: طُلَيْطَلَة مدينة الأندلس العظمى، وهي قصبة الأندلس، ودار مملكة

(١) «مروج الذهب» ٤٣٤/٢.

(٢) هو عبدالرحمن بن أحمد بن يونس، الصدفي (ت ٣٤٧هـ).

(٣) «المنتظم» ١٣٥/١.

(٤) «تاريخ ابن عساكر» ٦٩٩-٧٠٠، والحشفة: صخرة تكون في البحر.

الفَرَنْج، وملكها يقال له: الفنش، كما يقال: كسرى وقيصر، ويشقها نهر عظيم يسمى باجه يخرج من بلاد الجلالقة، وهم أُمَّةٌ عظيمة يحاربون أهل الأندلس، وفي أرض طُليطلة قنطرة عظيمة على البحر يقال لها: قنطرة السيف^(١)، من البنيان الموصوف، يقال: إن الإسكندر بناها، وقيل: سليمان عليه السلام.

وكانت طُليطلة قد افتتحت في أيام الوليد بن عبد الملك، ثم عصى أهلها، فلما دخل عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ويسمى: الداخل، افتتحها في سنة ست وثلاثين ومائة، فهدم بعضها، وجعل دار ملكه قُرطبة، وبنى بها جامعاً ضاهى به جامع دمشق. وكانت قرطبة في العلم واجتماع العلماء بها مثل دمشق وبغداد، وبين قرطبة وطُليطلة عشر مراحل، وبين قرطبة والبحر ثلاثة أيام.

وقال هشام بن الكلبي: في جزيرة الأندلس نحو من أربعين مدينة، منها: إفراغة وطرطوشة ولشبونة ولاردة وغيرها^(٢).



(١) في (ل): «السَّيف»، والمثبت من «معجم البلدان» ٤/٤٠٦.

(٢) في النسخ: الإفرنجة وطرسوسة ولذبونية وغيرها، والمثبت من (ط).

فصل

في ذكر الجبال والهضاب والقلاع والرمال^(١)

ذكر أبو الحسين ابن المنادي، وقدامة الكاتب، وأبو معشر: أن عدد الجبال المشهورة مئة وثمانية وأربعون جبلاً.

قال قدامة: ففي الإقليم الأول: تسعة عشر جبلاً، وفي الإقليم الثاني: سبعة وعشرون جبلاً، وفي الثالث: أحد وثلاثون جبلاً، وفي الرابع: أربعة وعشرون جبلاً، وفي الخامس: تسعة وعشرون جبلاً، وفي السادس: ستة وثلاثون جبلاً، وفي السابع: اثنان وثلاثون جبلاً. ولم يذكر قدامة أسامي جبال كل إقليم، وقد ذكرت المشاهير التي في الأقاليم، وبيتها على الحروف، ميلاً إلى الاصطلاح المعروف.

أجأ: جبل طييء، ذكره الجوهري في أول «الصحاح» فقال: أجأ - على وزن فَعَلَ بالتحريك - أحد جبلي طييء والآخر سَلَمَى، وينسب إليها الأجيون، مثال: الأجيون^(٢). ووقع في عامة النسخ: أجأ، مصروف، ووقع في نسخة بخط الجوهري غير مصروف.

أُحد: وهو الذي كانت الوقعة عنده، من جبال المدينة، قال أحمد بن حنبل بإسناده عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أُحد جبل يُحَبُّنا ونُحِبُّه». انفرد بإخراجه البخاري^(٣)، وقد رواه أبو هريرة أيضاً^(٤)، وقال الزُّهري: وإنما أراد أهل المدينة، وهم الأنصار، أي: أهل أُحد.

إِضْم: جبل بالحجاز. ذكره الجوهري^(٥). وقد ذكرته الشعراء في أشعارها.

تِعار - بكسر التاء - من جبال الحجاز مشهور، والعرب تقول: ما أفعلُ كذا ما قام تِعار. تِعار.

(١) انظر «كنز الدرر» ١/ ١٢٩.

(٢) «الصحاح»: (أجأ).

(٣) أحمد (١٢٤٢١)، والبخاري (٤٠٨٣)، وأخرجه أيضاً مسلم (١٣٩٣).

(٤) أخرجه أحمد (٨٤٥٠).

(٥) «الصحاح»: (إضم).

ثَبِير: وهو بِمْنَى، ويقال له: جبل الكَبْش، قال ابن عباس: فُديَ إسماعيل عنده، وفيه المَنْحَر، وكانت العرب تعظمه في الجاهلية، قال الجوهري: كانوا إذا انقضى الموسم، وقفوا عنده وقالوا: أَشْرِقْ ثَبِيرَ كَيْمًا نُغَيِّرُ^(١).

الثَّين: من جبال أنطاكية، ويقال له الأقرع، لأنه لا ينبت إلا في أماكن، وعليه حيَّات كبار.

جبل الثَّلَج: شامخ يُرى من مسيرة ثلاثة أيام في السَّهل، وهو من جبال الشام في أرض بانياس غربي دمشق، وعليه الثلج لا يذهب دائماً، وكان مسكوناً وعليه آثار عمارة، وكان في المدينة رجل كبير قد قرأ الكتب، فقال لأهله: متى أصبح هذا المكان وعليه نداوةٌ فارحلوا، ومات، فأصبحوا ذات يوم وعلى ظهور دوابهم الندى، فارتحلوا، فنزل عليه الثلج في اليوم الثاني، فطمَّه واستمر.

جبل ثُور: من جبال مكة، وفيه الغار الذي اختفى فيه رسول الله ﷺ، وقد ذكره الجوهري فقال: وثور جبل بمكة، وفيه الغار المذكور في القرآن، ويقال له: ثور أَطْحَل، قال: وقال بعضهم: اسم الجبل أَطْحَل، نسب إليه ثور بن عبدمناة لأنه نزل^(٢). وسنذكره في سيرة النبي ﷺ.

ثَهْلان: من جبال الحجاز، وهو مشتق من الثَّهْل، وهو الانبساط على وجه الأرض، لأنه يمتد.

جُمْدان: - بجيم - بين قُدَيْد والجُحْفَة.

الجُوديُّ: وهو الذي رَسَتْ عليه سفينة نوح عليه السلام، وذكره الجوهري فقال: والجودي جبل بأرض الجزيرة، استوت عليه السفينة^(٣).

وقال: وموضعه ببلاد ماسورين، وتحتة ضيعة يقال لها: ثمانين، نزل بها نوح ومن كان معه في السفينة، وهي أول ضيعة بنيت على وجه الأرض بعد الطوفان، وسنذكرها

(١) «الصحاح»: (ثبر).

(٢) «الصحاح»: (ثور).

(٣) إلى هنا انتهى كلام الجوهري في «الصحاح»: (جود).

في قصة نوح عليه السلام، وهي من أعمال الموصل، وبين هذا الجبل ودجلة ثمانين فراسخ، وآثار السفينة عليه باقية، إلى هَلُمَّ جَرًّا على ما قيل.

حُبْشِي: قال الجوهري: وحُبْشِي - بالضم - جبل بمكة أسفل منها، يقال: منه سَمِّيَ أحابيش قريش، لأنهم اجتمعوا عنده، وتحالفوا في حِلْفِ الْفُضُول^(١). لما نذكر.

الْحَجُون: وهو الجبل المشرف على مسجد البيعة عند العقبة، قال الجوهري: وهو مقبرة أهل مكة^(٢).

حِراء - بالمد - قال الجوهري: يذكَر ويؤنَّث^(٣). وكان ﷺ يتعبد في غار حراء ويخلو فيه^(٤).

وقال مسلم: وهو الجبل الذي تحرَّك لما صعد رسول الله ﷺ وأصحابه عليه^(٥).

وقال البخاري: إنما كان ذلك على جبل أحد^(٦)، لما نذكر.

خَزَازِي: من جبال الحجاز، وكانت عنده وقعة مشهورة بين نزار واليمن.

حَضَن: هو بأعلى نجد قال الجوهري: وفي المثل: «أَنجَدَ من رأى حَضَنًا»، قال ومعناه: من عاين هذا الجبل فقد دخل في ناحية نجد^(٧). أي: ارتفع، ومن عظم هذا الجبل ضرب به المثل، فقالوا: «لو ركن حَضَن لا يحتضن».

خَيْم: من جبال الحجاز، قال: جرير: [من الرجز]

أَقْبَلْنَ من نَجْرَانٍ أَوْ جَنْبَيْ خَيْم^(٨)

(١) «الصحيح»: (حبش).

(٢) «الصحيح»: (حجن).

(٣) «الصحيح»: (حري).

(٤) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٥) مسلم (٢٤١٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان على حراء، هو وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير، فتحركت الصخرة، فقال رسول الله ﷺ: «أهدأ، فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد».

(٦) البخاري (٣٦٧٥) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ صعد أحداً وأبو بكر وعمر وعثمان، فرجف بهم، فقال: «أثبت أحد، فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان».

(٧) «الصحيح»: (حَضَن).

(٨) أورد هذا البيت المبرد في «الكامل» ٦٤٧/٢ وروايته: «أَقْبَلْنَ من تَهْلَانٍ أَوْ وادي خَيْم» ورواية الديوان =

جبل دُنبَاوُند: وهو بالشرق ببلاد طبرستان، يُرى من مئة فرسخ، لارتفاعه وذهابه في الجوّ، ويرتفع من أعاليه دخان، والثلوجُ تترادف عليه، ويخرج من أسفله نهر عظيم أصفر كبريتي ذهبي اللون، ومسافة صعود هذا الجبل ثلاثة أيام ولياليها، ورأسه مُدَوَّر مقدار ألف ذراع، يُرى من أسفله مثل القبة المخروطة، وفي أعلاه رمل أحمر تغوص فيه الأقدام، ولا يصل إليه شيء من الوحوش والطيور، لشدة الرياح به والبرد، وفي أعاليه ثلاثون نَقْباً يخرج منها الدخان العظيم، يُسمع لخروجه دويٌّ شديد مثل الرعد، وذلك صوت تلهُب النار في باطنه، وفي رأسه الكبريت الأحمر الذي يُعمل منه الكيمياء على ما قالوا، وبين هذا الجبل وطبرستان عشرون فرسخاً، ويقال: إن الضحّاك محبوسٌ فيه لما نذكر في سيرة الضحّاك^(١).

دِمان وورقان^(٢): جبلان مشهوران بالحجاز، وهما شامخان أسودان، وفيهما أنواع الثمر والسَّمّاق والرُّمّان والقرظ، وهما لمُزينة، وهم قوم صدق. رأس الجُمُجُمة: وهو جبل عظيم، أوله باليمن من ناحية الشَّحْرِ والأحقاف، ويمتد في البحر إلى الهند، ومنه تطلق المراكب من بحر فارس، ويمتد إلى المشرق، ولا يُدرى أين غايته في البحر.

رَحْرَحان: قال الجوهري: هو قريب من عكاظ^(٣).

رَضَوَى: من جبال تِهَامَة، بينه وبين المدينة سبع مراحل، وهو من اليَنُّع على يوم، قال الجوهري: وهو من جبال المدينة، والنسبة إليه رَضَوِي^(٤).

وهذا الجبل تزعم الكَيْسَانِيَّة أن فيه محمد بن الحنفية، وأنه دخل في شعب من شعبه ومعه أصحابه، وهم فيه أحياء يُرزقون. وسنذكره في ترجمة محمد بن الحنفية.

وقال قدامة بن جعفر الكاتب: وبحداء رَضَوَى جبل يقال له: عَزُور، يضاها

= ٥١٢/١: «أَقْبَلَنَ من جَنِّي فِتَاخ وإِصْمَ».

(١) ستأتي قصته في الصفحة ٣٣٧.

(٢) في (ل): ودورقان، والمثبت من (ط) ومعجم البلدان.

(٣) في (ل): وحرجان، والمثبت من (ط) و«الصحاح»: (رحج). وجاء بعد هذا الكلام في «كنز الدرر» ١/

١٣٣: «ومنه يوم حرب كان لبني عامر على بني تميم، وهو من أيام العرب المشهورة».

(٤) «الصحاح»: (رضي).

رَضَوَى في ارتفاعه ومياهه وشجره ومراعيه، ويسكن في الجبلين نَهْدٌ وَجُهَيْنَةٌ، في الوَبَرِ دون المَدَرِ.

ساتي دَمَا: واختلفوا فيه: فقال قُدَّامة: هو من جبال تَهَامَة، وقيل: من اليمن، وقيل: من الشام. وقال الجوهري: وساتي دَمَا اسم جبل سُمي بذلك، لأنه ليس من يوم إلا ويُسفك عليه دم، كأنهما اسمان جُعلا واحداً^(١).

جبل السَّتَار - بالسین المهملة المكسورة -: في الحجاز، وقد ذكره الجوهري في شعر امرئ القيس وقال: هما جبلان، قال امرؤ القيس^(٢): [من الطويل]
عَلَا قَطْنًا بِالشَّيْمِ أَيْمَنُ صَوْبِهِ وَأَيْسَرُهُ عَلَى السَّتَارِ وَيَذْبُلُ
قَلْتُ: فصاروا ثلاثة، قَطْنًا وَالسَّتَارَ وَيَذْبُلُ.
سَلْع: جبل بالمدينة.

شَابَة - بالشين المعجمة -: جبل بنجد، ذكره الجوهري.

شعبان: جبل من جبال اليمن، ويقال له: شَعْب، وقال الجوهري: ويقال له: ذو شَعْبَيْن؛ نزله حسان بن عمرو الحِمْيَرِي وولده فنسبوا إليه، فمن كان منهم بالكوفة يقال لهم: شَعْبِيُّونَ، منهم عامر بن شراحيل الشعبي، وعداده في همدان، ومن كان منهم بالشام يقال لهم: الشعبانيون، ومن كان منهم باليمن يقال: هم آل ذي شَعْبَيْن، ومن كان منهم بمصر والمغرب يقال لهم: الأَشْعُوب^(٣) وهم جميعاً بنو حسان بن عمرو، وهذا لفظ الجوهري. والشين مفتوحة في الجميع، وكذا ذكر محمد بن سعد وابن الكلبي وقدامة وغيرهم.

قال ابن سعد بإسناده إلى أشياخ من شعبان منهم محمد بن أبي أمية: إن مَطَرًا أَصَابَ الْيَمْنَ فَاسْتَرْقَ مَوْضِعًا فَأَبْدَى عَنْ أَرْجٍ عَلَيْهِ بَابٌ مِنَ الْحَجَارَةِ، فَكَسَرَ الْعَلْقَ، وَدُخِلَ فَإِذَا بِهِ عَظِيمٌ فِيهِ سَرِيرٌ مِنْ ذَهَبٍ عَلَيْهِ رَجُلٌ مَسْجِيٌّ، فَشَبْرَنَاهُ فَإِذَا طَوْلُهُ اثْنَا عَشَرَ

(١) «الصحيح»: (دمي).

(٢) البيت من معلقته الشهيرة، وهو في ديوانه ص ٢٦.

(٣) «الصحيح»: (شعب).

شبراً، وعليه جباب من وشي منسوجة بالذهب، وإلى جنبه مَحَجْنٌ من ذهب، وعلى رأسه تاج من ذهب فيه ياقوتة حمراء وهو أبيض الرأس واللحية له ضفيران. وإلى جانبه لوح من ذهب مكتوب فيه بالحميرية «باسمك اللهم، ربِّ حمير، أنا حسان بن عمرو القَيْل، إذ لا قَيْلَ إلا الله، عشت بأملٍ ومت بأجل هلك فيه اثنا عشر ألف قَيْل فكنت آخرهم، فأتيت جبل ذي شعبين ليجيرني من الموت فأخفرتني». قال: وإلى جانبه سيف عليه مكتوب بالحميرية: «أنا قُبار بي يُدْرِك الثار»^(١).

شامة: جبل قريب من مكة وكذا طَفِيل، وقد أشار إليهما بلال، قال:

وهل يبدون لي شامةً وطَفِيل^(٢)

شَمَام: من جبال الحجاز.

شُعْران: - بفتح الشين - ذكره الجوهري، وقال: سمي بذلك لكثرة شجره^(٣). وهو من جبال الموصل.

صَجَنان: قال الجوهري: هو جبل بناحية مكة^(٤). وهو الذي كان يرعى عنده عمر بن الخطاب غنم أبيه.

الظهران^(٥): وهو أقرب إلى مكة، وقد نزله رسول الله ﷺ عام الحديبية والفتح. عاقِل: من جبال الحجاز بين بني جشم وجديلة، وقيل: بين جشم وبني حنظلة. ولهم عنده وقائع، وذكروه في أشعارهم.

جبل العُرج - بإسكان الراء -: من جبال الحجاز بين مكة والمدينة، قال الجوهري: هو منزل، وإليه ينسب العرجي الشاعر، واسمه عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان رضي الله عنه^(٦).

(١) «طبقات ابن سعد» ٢٤٦/٦.

(٢) صدره: وهل أَرَدَنْ يوماً مياه بَحْجَة، وهو ضمن حديث عائشة رضي الله عنها في حى المدينة، أخرجه البخاري (١٨٨٩).

(٣) «الصحاح»: (شعر).

(٤) «الصحاح»: (ضجن).

(٥) جاء في «كنز الدرر» ١/١٣٦: «بفتح الظاء: جبل بين مكة والمدينة، وهو إلى مكة أقرب» والذي يقرب مكة، ونزله النبي ﷺ هو واد يقال له: مر الظهران. انظر «معجم البلدان» ٦٣/٤، ١٠٤/٥.

(٦) «الصحاح»: (عرج).

وقال قدامة الكاتب: وهذا الجبل يتصل بالشام، فبعضه يتصل بلبنان وبعضه بجبل الثلج من أرض دمشق ويمتدُّ إلى الروم.

وقال النَّضْرُ بن شُمَيْل: يأتي إلى الشام من ناحية أَيْلَة ثم إلى الطُّور ثم إلى بيت المقدس ثم إلى طبرية، ويمر بالبقاع وبَعْلَبَك، ويمتد غربيَّ حمص وحلب حتى يتصل باللَّكَّام، ثم يمتد إلى مَلْطِيَّة وإلى بحر الخَزَر وفيه القلاع والحصون الكثيرة والمدن.

عُصَيْب: من جبال الحجاز، قال الجوهري: هو جبل بني هذيل^(١). قلت: وقد رأيت ببلد الروم عند قيسارية جبلاً يقال له: عسيب، وعليه قبر يقال: إنه قبر امرئ القيس، وهو أقرب إلى الصحة لأنَّ امرأ القيس مات بالروم، لما نذكر في سيرته.

فأما عُصَيْب - بضم العين والشين معجمة - فجبل بالحجاز لقريش.

عَيْر: جبل بالحجاز، والعين مفتوحة. وفي «الصحيحين» من حديث علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال: حرَّم رسول الله ﷺ ما بين عَيْرٍ إلى ثور^(٢). وهذا يدلُّ على أن بالمدينة جبلاً اسمه ثور، وأرباب السير لا يعرفون ذلك، وإنما ثور جبل بمكة وفيه الغار، ولعله اشتبه على الكاتب أو على الراوي فجعل مكان أحد جبل ثور، وقد أشار بعضهم إلى هذا فقال: قال أبو عبيد: يرى أصل الحديث أنه حرم ما بين عَيْرٍ إلى أُحُد^(٣). قال: وقال غيره: كأنه جعل المدينة مضافةً إلى مكة في التحريم. قلت: هذا القول ضعيفٌ لأنَّ حدود مكة لا تدخل في حدود المدينة، لما نذكر، فكأنَّ القول الأول أصحُّ^(٤).

عَيْنَيْن^(٥): من جبال المدينة، بات به رسول الله ﷺ ليلة وقعة أُحُد لما نذكر، وسنذكر جبل عرفات.

عُرْب - بغين معجمة - بين المدينة والشام في بلاد كلب، قال الجوهري: وعنده عينٌ

(١) «الصحيح»: (عسب)، ولم يذكر فيه: «بني هذيل».

(٢) البخاري (٦٧٥٥)، ومسلم (١٣٧٠).

(٣) «غريب الحديث» ١/٣١٥.

(٤) قلت: وقد تكلم الأستاذ فؤاد عبد الباقي في تعليقه على صحيح مسلم على هذا الحديث؛ فانظر كلامه.

(٥) ويقال له: «عينان» انظر «معجم البلدان» ٤/١٧٣، ١٨٠.

تسمى غُرْبَة^(١).

غَرْوَان: جبل بالطائف وعليه ديار بني سعد، وليس بالحجاز مكان يبرد فيه الماء ويجمد سواه.

جبل الفتح: وهو من أعظم جبال الدنيا، وفيه أمم كثيرة وممالك، وفيه اثنتان وسبعون أمة، كل أمة لها لسان وملك، وفيه شعاب وأودية، ومدينة باب الأبواب على أحد شعابه، بناها كسرى أنو شروان وجعلها حدًا فاصلاً بينه وبين الخزر، وجعل حدَّ السور ومبدأه من البحر إلى أعالي الجبل وذلك نحواً من أربعين فرسخاً حتى ينتهي إلى طبرستان، وجعل على كل ثلاثة أميال من هذا الجبل باباً من الحديد وعنده حَفْظَة، وأسكن هناك أمماً مختلفة ليحفظوا الحدَّ من العدو، مثل: الخزر والترك واللَّان وغيرهم، ومسافة هذا الجبل على البحر مدة شهرين، وفيه قلعة باب الأبواب، وبينها وبين بغداد أربع مئة فرسخ، وهذه القلعة على وادٍ عظيم من هذا الجبل لا سبيل لأحد على العبور إلا من تحتها، وهي على جبل مدوّر يخرج من وسطها عين ماء، وفي جبلها قروذ يقفُ القرد على رأس الملك فإن كان الطعامُ مسموماً غمز القردُ الملك فامتنع منه، والذي بناها أنوشروان، وقيل: إسفنديار من ولد لهراسف من الفرس الأول، ورُتّب فيها رجالاً.

ويقال: إنّ هذه القلعة فتحت في أيام عبد الملك بن مروان، ورُتّب فيها رجالاً مسلمين من العرب، وهم إلى هلم جرا يتوارثونها، وينقل إليهم الموادُ من تَفْلِس ونواحيها، وبينها وبين تَفْلِس عشرة أيام، وأهل تَفْلِس يساعدونهم خوفاً من العدو على بلادهم. ووراء هذا السور قومٌ من العرب يتكلمون بالقحطانية، وبينهم وبين هذه القلعة ثلاثة أيام، ثم يلي هذا السور من ناحية المشرق أممٌ كثيرة خزر وترك ولان، ولهم ملوك، منهم ملك السريز ويدعى «قيلان شاه» نصراني، وإنما سمي ملك السريز لأنَّ يَزْدَجَرْد لما أحسَّ بزوال دولتهم في آخر أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعث سريراً من الذهب وأموالاً عظيمة إلى تلك الناحية، وهلك يَزْدَجَرْد في أيام عثمان رضي الله عنه قبل أن

(١) «الصحاح»: (غرب).

يصل إلى تلك الناحية، فأخذ السرير رجل من نسل بهرام جور وملك تلك الناحية، وفيها اثنا عشر ألف قرية؛ ثم يلي هذه المملكة ממكلة اللان، ويقال لملكهم: «كرجناح» وله مدينة يقال لها: «ماعص» وعسكره ثلاثون ألفاً، ومما يلي هذه الممالك جبالٌ فيها قرود على صور بني آدم.

قاف: ذكر أبو إسحاق الثعلبي في تفسير قوله تعالى: ﴿قَفَّ، وَالْقَرْنَ الْمَجِيدِ﴾ [ق: ١] عن ابن عباس: أنه جبل من زمردة خضراء محيطٌ بالدنيا، وخضرة السماء منه، وعليه كتف الدنيا، وما وجد الناس من الزمرد فهو مما يتساقط منه.

وقال وهب بن منبه: لما مرَّ عليه ذو القرنين رأى حوله جبلاً صغاراً فناداه يا قاف ما هذه الجبال التي حولك؟ فقال: عروقي، ليس في الدنيا مدينة إلا وفيها عرق منها، فإذا أراد الله تعالى أن يزلزل أرضاً أمرني فحركت ذلك العرق فتزلزل تلك الأرض، فقال له الإسكندر: فهل وراءك شيء؟ قال: نعم أرض طولها خمس مئة عام في خمس مئة عام، فيها جبال من ثلج تحطم بعضها بعضاً، ولولا ذلك الثلج لاحتترقت من حرِّ جهنم^(١).

وقد ذكره الجوهري فقال: قاف جبل محيط بالدنيا^(٢).

قُدُس - بإسكان الدال - : جبل عظيم بأرض نجد، وقد ذكرته العرب.

قاسيون: جبل شمالي دمشق فيه أثار كثيرة: مغارة الدم، ومغارة الجوع، ومسجد الكهف، وقبور الزهاد والعلماء، والنفس ترتاح إلى المقام به، ومن سكنته لا يطيبُ له سكنى غيره غالباً.

وجاءت فيه آثار: منها ما حدثني به الشيخ الصالح أبو عمر المقدسي رحمه الله قال: بلغني عن كعب الأخبار أنه قال: أوحى الله إلى قاسيون هَبْ ظِلَّكَ وبركتك لجبال بيت المقدس، ففعل، فأوحى الله إليه لن تذهب الأيام والليالي حتى أردَّ عليك خيرك

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٦. قال ابن كثير في تفسيره ردأ على هذه الأخبار وأمثالها: وكان هذا والله أعلم من خرافات بني إسرائيل التي أخذها عنهم بعض الناس وعندي أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم يلبسون به على الناس أمر دينهم

(٢) «الصحاح»: (قوف)، وفيه: «بالأرض».

وظللك وبركتك، ويُنَبِّئ لي في كنفك بيتٌ أُعْبِدُ فيه بعد خراب الدنيا أربعين سنة قال: فقاسيون من الله بمنزلة العبد الخاضع المتواضع المستكين.

وذكر أبو القاسم ابن عساكر في «تاريخه» هذا الأثر عن القاسم بن عبد الرحمن ولم ينسبه، وذكر البيت وقال: هو جامع دمشق^(١) وأن رجلاً سأل النبي ﷺ عن دمشق فقال: «بها جبل يقال له: قَاسِيُون فيه قَتَلَ ابنُ آدَمَ أخاه، وفي أسفلهُ غَارٌ من الغربِ فيه وُلِدَ إبراهيم عليه السلام». وذكر حديثاً فيه أماكن^(٢).

قلت: العجب من رواية مثل هذا الحديث الذي ألفاظه تنطق بوضعه على رسول الله ﷺ، فإن أحداً من العلماء لم يذهب إلى أن قاييل قتل هاييل بالشام، ولا أن الخليل عليه السلام ولد بالشام، وإنما ولد ببايل، لما نذكر في بابه.

وإنما المتقول في هذا عن كعب الأحبار، فإن نوماً البكالي روى أن كعباً قدم الشام ومعاوية بن أبي سفيان أمير بها من قبل عثمان رضي الله عنه، وكان معاوية لما بلغه قدوم كعب إلى القدس في سنة ثلاثين قال: يا ليت لنا من يخبرنا بفضائل دمشق، وبلغ كعباً، فلما نزل من عقبة شحورا نظر إلى قاسيون فقال: لا إله إلا الله، هذا مكان قتل فيه ابنُ آدَمَ أخاه، كذا وجدته في التوراة، وهذا الكهف الذي عَزَّتْ فيه الملائكة آدم، وهذا الغار الذي ولد فيه إبراهيم، وأشار إلى برزة، وهذا مكان كذا وكذا، وبلغ معاوية فبعث إليه بمالٍ كثير.

ومعلوم أن عمر بن الخطاب كان يعلو كعباً بالدرة دائماً ويقول: دعنا من يهوديتك. وإنما تزار هذه الأماكن بحسن الظن، فإن الأعمال بالنيات، وقد طرقها خلقٌ كثير من السادات.

قَطَن: كانت عنده وقعة لعبس وذييان بالحجاز، وقد ذكروه في أشعارهم.

جبل القَمَر: الذي يخرج منه نيل مصر، يبتدئ من الظلمات ويقطع البحر الحبشي ولا يعلم أين منتهاه، وليس في الدنيا بعد قاف جبل أكبر منه، وسنذكر النيل فيما بعد إن شاء الله.

(١) «تاريخ ابن عساكر» ٣٠٠/١.

(٢) «تاريخ ابن عساكر» ٣٣٣/١.

جبل لُبْنان: وهو بالشام، من أعظم الجبال وأبركها، وأصله من الحجاز يأتي من العَرَج ويتصل بالجبال التي على ساحل البحر الشرقي على الطُّور وأَيْلَة، ويتصل بجبال بيت المقدس، ثم يمتدُّ على البقاع وبلد حمص وحلب والثغور، ويمتدُّ إلى الروم واللُّكَّام، وفيه العيون الباردة، والأشجار المثمرة، والمباحات الكثيرة، والحشائش التي تدخل في الدُّرياق.

ويقال: إن فيه حشيشة الكيمياء، وفيه الصالحون والأبدال، وفيه جبل يقال له: جبل الدير مطلقاً على ساحل بيروت، يقال: إنَّه الجبل الذي قال فيه كنعان بن نوح: ﴿قَالَ سَآوِيَ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِيُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ [هود: ٤٣] وبسفحه قرية يقال لها: الكَرْك، فيها قبر يقال: إنه قبر نوح عليه السلام، وفي سفحه أيضاً قبر شيبان الراعي، وقصته مع ذي النون المصري معروفة، وسنذكرها.

وحكى ابن الكلبي عن كعب الأحبار قال: قدم الخليل عليه السلام الشام فاشتاق إلى بيت المقدس فقال: يا رب أرني الأرض المقدسة، ف قيل له: اصعدْ على لبنان وانظرْ إلى أيِّ مكان انتهى بصرك فهو مقدس.

وروي عن شقيق البلخي أنه قال: ما اتخذ الله ولياً حتى يسحب ذيله على لبنان. وروي عكرمة عن ابن عباس قال: بنى إبراهيم الكعبة من خمسة أجبل: أبي قيس، وطور سينا، وطور زَيْتَا - وهو جبل بيت المقدس - والجُودي، ولُبْنان^(١).

وقد روي عن جماعة من المشايخ أنهم شاهدوا الأبدال فيه، وسنذكر حكاية ذي النون المصري مع شيبان الراعي في ترجمة ذي النون المصري. وذكر الحافظ أبو القاسم ابن عساكر حكاية جرت فيه لبعض السياحين نذكرها في السنة الثامنة عشرة وثلاث مئة.

لَعَلَّعَ: من جبال الحجاز، ذكره الجوهري وقال: كانت عنده وقعة مشهورة، وأنشد: [من الطويل]

لَقَدْ ذَاقَ مَنَا عَامِرٌ يَوْمَ لَعَلَّعٍ حَسَاماً إِذَا مَا هُزَّ بِالْكَفِّ صَمَّماً^(٢)

(١) أخرجه الطبري ١/ ١٢٤ من حديث عطاء.

(٢) «الصحاح»: (لعلع)، والبيت لحميد بن ثور في ديوانه ص ٣١.

اللُّكَّامُ: وقد ذكره ابن حوقل في كتاب «الأقاليم» فقال: جبل اللُّكَّام هو الفاصل بين الثغرين، يعني: الشام والجزيرة، لأنَّ كلَّ ما كان وراء الفرات من الشام، ومن مَلَطِيَّة إلى مرعش جزيرة؛ قال: واللُّكَّام داخل في بلاد الروم، ويقال: إنه ينتهي إلى نحو من مئتي فرسخ ويمر على مَرْعَش وعين زَرْبَة والهارُوثِيَّة وإلى ها هنا يسمى اللُّكَّام، إلى أن يجاوز اللاذقية، فيسمى جبل بهراء وتنوخ إلى حمص، ويتصل بلبنان ويمر على فلسطين حتى ينتهي إلى بحر القلزم ويتصل بالمقَطَّم جبل مصر، قال: وأوله بالمشرق في بلد الصين خارجاً من البحر المحيط، فيقطع بلاد التَّبَّت وقرغانة، ثم يمرُّ بسمرقند على شمال الصُّغْد ويقطع نهر جِيحُون إلى الخَزَر، ويكون عن يمين القاصد من خراسان إلى العراق، ومنه تشعب جبال جُرجان وطَبْرِستان والدَّيْلَم، ويتصل بجبال أَذْرِيْجَان والرِّي ثم يعود إلى هَمْدَان وحُلوان وشَهْرزُور، ويقطع دجلة بنواحي تكريت إلى حَدِيثَة الموصل، ثم إلى الجُودِي، ثم إلى آمد، ومنه تشعب جبال أَرْمِينِيَّة، ثم يمرُّ إلى جبل الفتح^(١) وباب الأبواب إلى بحر الخَزَر إلى بلاد يَأْجُوج ومَأْجُوج، ثم يتشعب منه جبل يأخذ إلى الفرات ويتصل بِسُمَيْسَاط إلى مَرْعَش الذي ابتدأنا ذكره منها. قال: وإذا وصل إلى المقَطَّم قطع النيل ثم مضى إلى بَرْقَة وأقصى المغرب ثم البحر المحيط^(٢).

فالحاصل: أن ابن حوقل قال: إنه يخرج من البحر المحيط بالصين وينتهي إلى البحر المحيط بالغرب، وهذا تخليط ظاهر لأنه جعله أولاً الفاصل بين الشام والجزيرة فينبغي أن ينقطع عند الفرات بأرض مَلَطِيَّة، ثم خلطه بجبال طَبْرِستان والشرق ولبنان ومصر، وأين جبال مصر من جبال الشام وما وجه الاتصال بها وإنما كلُّ جبل على حدة له حدٌّ.

وذكره غير ابن حوقل وقال: اللُّكَّام جبلٌ مبارك، فيه الأبدال والمباحات والعيون، وحدُّه: من مَرْعَش إلى مَلَطِيَّة عرضاً، ويمتدُّ في بلاد الروم طويلاً إلى حيث يعلم الله عز وجل، وأما الجبل الذي يقطع دجلة بنواحي تكريت فهو جبل حُمْرَيْن^(٣) مشهور بالعراق.

(١) في «صورة الأرض» ص ١٥٦: «قبى».

(٢) «صورة الأرض» ص ١٥٤-١٥٧.

(٣) وهو الجبل الذي يقال له: «بارمًا» بين تكريت والموصل. انظر «معجم البلدان» ١/ ٣٢٠.

المُحَصَّب: هو من جبال مكة يشرف على ذي طُوًى؛ قال الجوهري: هو موضع الجمار بمنى^(١). ويقال له: قوس قزح، لأنه أول ما رُوي عليه قوس قزح، والعامّة تقول: قوس قَدَح - بالدال - وهو خطأ، وذكره الجوهري فقال: قوس قُزَح التي في السماء غير مصروفة، قال: وقُزَح أيضاً جبل بالمزدلفة^(٢).

مُخَاشِن: جبل بالحجاز.

المُقَطَّم - بالميم -: جبل بأرض مصر، والقرافة تحته، وهو مطَّلٌ عليها ويمتدُّ إلى التَّوبة. جبلا نَعْمَان: ونَعْمَان وادٍ في طريق الطائف يخرج إلى عرفات، ذكره الجوهري قال: يقال له: نَعْمَان الأراك^(٣). وقال ابن قتيبة: ونَعْمَان جبل بالقرب من عرفة ويتصل بوادي القرى ونواحيه، قال: وفي الحديث: «خُلِقَ آدَمُ مِنْ دَحْنَا، وَمَسَحَ ظَهْرُهُ بَنَعْمَانِ السَّحَابِ»^(٤) ونسبه إلى السحاب لأنه يشرف على جبلي نعمان ويعلوهما^(٥).

وَأَسِم: وهو جبل سَرْنَدِيب الذي أهبط عليه آدم عليه السلام، ويقال له: برد، وعليه أثر قدم آدم، وشبيه البرق لا يذهبُ شتاءً ولا صيفاً^(٦)، ويرى في البحر من مسيرة ثلاثة أيام؛ ومسح موضع قدم آدم فكان سبعة أذرع، وقيل: سبعون ذراعاً، وحوله الياقوت المختلف الألوان، وفي واديه جميع الطيب من الورقة التي نزلت مع آدم، وفيه الطواويس ودابة الزباد، وسنذكره في سيرة آدم.

يَذْبُل: جبل بين اليمامة والبصرة، كذا ذكره الجوهري^(٧).

(١) «الصحيح»: (حصب).

(٢) «الصحيح»: (قزح).

(٣) «الصحيح»: (نعم).

(٤) هما حديثان أما الأول: - وهو قوله: «خلق آدم من دحنا» - فأخرجه ابن سعد في «الطبقات» ١/ ٢٥-٢٦، وابن عساکر في «تاريخه» ٢/ ٦١٧ من حديث سعيد بن جبیر، ودحنا: بالقصر والمد. أما الثاني: فأخرجه الفاكهي في: «أخبار مكة» (٢٩١١) من حديث سعيد بن جبیر أيضاً.

(٥) «غريب الحديث» ٢/ ٢٨٥.

(٦) في «معجم البلدان» ٣/ ٢١٦ في مادة: (سرنديب): «ويقال له: الرّهون، ويرى على هذا الجبل في كل ليلة كهية البرق من غير سحاب ولا غيم».

(٧) «الصحيح»: (ذبل).

يَلْمَلَمَ: هو ميقات أهل اليمن في الإحرام.

أبو قُبَيْس: جبل مشهور بمكة، ذكره في «الصحاح»^(١)، وروى عكرمة عن ابن عباس أنه قال: هو أول جبل وضع في الأرض^(٢). وكان يقال له في الجاهلية: الأمين، لأن ركن البيت كان مستودعاً فيه أيام الطوفان^(٣).

وهو أحد الأخشبين المطلّين على مكة، هذا مشرفٌ على الصفا والآخر يقال له: الأحمر والأعراف^(٤). وفي الحديث: «لا تزول مكة حتى يزول أخشابها»^(٥)، والأخشب الجبل العظيم.

قلت^(٦): وفي الأقاليم جبال شوامخ وعرة في ناحية الشمال، النهار عند أهلها ساعة ونصف، لأن الشمس منحرفة عندهم. وفي المغرب جبال وعرة يسكنها البربر ويعصون فلا يقدر أحد عليهم. وفي الأندلس جبال فيها حجارة تتقد في الليل ويظهر منها الدخان في النهار. وذكر جدي رحمه الله في «المنتظم» وقال: وفي اليمن جبلان عظيمان بينهما في السهل مسيرة ثلاثة أيام، ورأساهما متقاربان بحيث يناول الرجلُ الرجلَ من رأس الجبل ما يريد لضيق ما بينهما^(٧).



(١) «الصحاح»: (قبس).

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرک» ٥١٢/٢.

(٣) انظر «أخبار مكة» ٤٧/٤.

(٤) كان يعرف بهذا الاسم بالجاهلية. انظر «معجم البلدان» ١١٧/١.

(٥) أخرجه الأزرقي في «أخبار مكة» من حديث ابن عباس موقوفاً بلفظ: «وجد في حجر في الحجر كتاب من خلقة الحجر: أنا الله ذو بكة الحرام، وضعتها يوم صنعت الشمس والقمر وحففتها بسبعة أملاك حنفاء لا تزول حتى تزول أخشابها، مبارك لأهلها في اللحم والماء».

(٦) انظر «كنز الدرر» ١٥٣/١.

(٧) «المنتظم» ١٣٩/١-١٤٠.

فصل

في الهضاب والقلاع والرمال^(١)

حكى سيويه عن الخليل بن أحمد أنه قال: الهَضْبَةُ اسم لما دون الجبل، وقال في «الصحاح»: هي الجبل المنبسط على وجه الأرض^(٢). وكذا التَّلْعَةُ، وذلك لا يحصى.

وأما العِقَاب^(٣) فكثيرة، منها: عَقَبَةُ سرنديب، والهند، والصين، وعقبة ساوة وهمذان وحُلوان، وفي خراسان عقاب كثيرة، وفي الرِّي والجبال، وفي الحجاز عقبة هَرَشَى، ذكرها الجوهري فقال: وهَرَشَى ثنية في طريق مكة قريبة من الجحفة يرى منها البحر، ولها طريقان، فكلُّ من سلكها كان مصيباً^(٤).

وفي الشام عقبة فَيْق وابريق^(٥). وفي الحجاز أيضاً من ناحية مصر عقبة أَيْلَة. وفي اليمن عقاب كثيرة، وفي لبنان أيضاً.

وأما الرمال فكثيرة، ومنها الأحقاف، وهي ديار عاد وبها الرمل الكثير، قال الجوهري: الحِقْفُ: المعوْجُّ من الرمل^(٦).

ومنها رمل عَالِج، موضع بالبادية، وقد ذكره ابن عباس في مسألة العول فقال: والذي أحصى عدد رملِ عَالِج^(٧).

ومنها رمل زَرُود بين مكة والعراق.

ومنها الرمال التي بين مصر والشام وتنتهي إلى تيه بني إسرائيل، وتتصل بالطُّور

(١) انظر «كنز الدرر» ١/١٥٣.

(٢) «الصحاح»: (هضب).

(٣) العقبة: مرقى صعب من الجبال، أو الجبل الطويل يعرض للطريق، فيأخذ فيه، وهو طويل صعب شديد «تاج العروس»: (عقب).

(٤) «الصحاح»: (هرش).

(٥) لم نقف على موضعها، وفي «معجم ما استعجم» ١/٩٦: إبريق على وزن افعيل، موضع ذكره المطرُز. ورسمت في (ل): «إيزيق».

(٦) «الصحاح»: (حقف).

(٧) أخرجه سعيد بن منصور في «سننه» (٣٦)، والبيهقي ٦/٢٥٣.

والبحر والحجاز، وقد ذكرها ابن حوقل فقال: والرمل المعروف بالهَبِير هو الذي طوله من وراء جبلي طَيِّء إلى أن يتصل بالجفار من أرض مصر، وعرضه من الشقوق إلى الأَجْفُر، ويقطع النيل إلى المغرب، ويمتد في أرض سِجْلَمَاسَة إلى البحر المحيط، وله عرق يضرب إلى البحرين وعمان، ويقطع البحر الشرقي إلى جَنْحُون وخُوارِزم وسَمَرْقند، ويتصل بالعين فيه ألوان من الرمل مختلفة: أصفر وأحمر وأبيض وأسود. وقال قدامة: وفي وسط البحر الشرقي يعني الحبشي كثيب رملٍ أحمر بعيد المسافة وفيه أُمَّة سود الألوان عظام الأجسام.

وأما القلاع فأبلغ من أن تحصي، فمن قلاع^(١) المشرق قلعة سليمان عليه السلام باصطخر، وقلعة بفارس بناها زياد بن أبيه، وقُفْتُ، وانطُرور وديول^(٢) وكردكوه.

وفي خراسان حصون كثيرة، وكذا في ما وراء النهر، ومن أحصن قلاع خُراسان قلعة نيزك، وهي قلعة عظيمة فتحها يزيد بن المهلب بن أبي صُفْرة في سنة أربع وثمانين، وقد مدحها الشعراء. وليس في الشرق أحصن من قلعة باب الأبواب، وقد ذكرناها في جبل الفتح، وفي بلاد أرمينية قلاع كثيرة.

ومن قلاع الجزيرة قلعة ماردين، ذكر جدي في «المنتظم» عن أبي الحسين المنادي أنه قال: أسست قلعةً ماردين على مصابرة العدو أربعين سنة، فلو نزل عليها ملك بجيشه لما افتتحها عَنوة، قال: وفيها من العيون العذبة عشرة أعين^(٣).

قلت: وقد وهم ابن المنادي، فإن المعتضد افتتحها عَنوة في مدة يسيرة لما نذكر في أيامه^(٤)، والعاذل أبو بكر بن أيوب^(٥) أقام عليها تسعة أشهر ولم يبقَ إلا أن يفتحها، فجاءه خبر وفاة ابن أخيه العزيز عثمان فرحل عنها^(٦).

(١) «صورة الأرض» ص ٤٢.

(٢) رسمت في (ل): «وانظر وزدوبوك»، ولم نقف عليهما، والمثبت من «كز الدرر» ١/١٥٦.

(٣) «المنتظم» ١/١٥١، وفيه: «عشرات كثيرة» بدل: «عشرة أعين».

(٤) في سنة (٢٨١هـ).

(٥) هو محمد بن أيوب، اشتهر بكنيته، وستأتي ترجمته في سنة وفاته (٦١٥هـ).

(٦) سيأتي الخبر في سنة (٥٩٤هـ).

وأما قوله: إن فيها عشرة أعين، فإن في القلعة عيناً واحدة وهي يسيرة فإنني شاهدها.

وقد ذكرها ابن حوقل فقال: وجبل ماردين من قرار الأرض إلى ذروته مسيرة فرسخين أو نحو فرسخين، وعليه قلعة لحمدان بن الحسن بن عبد الله بن حمدان تعرف بالبازي الأشهب لا يستطيع فتحها عنوة، وفي الجبل جوهر الزجاج وحيات عظام^(١). وفي الجملة فهي أحصن قلاع الجزيرة وأمنعها وأعلاها وأرفعها.

وبالشام قلاع كثيرة: منها قلعة حلب، وتسمى: الشهباء، فإن ملك الروم نزل عليها، وفتح البلد، ولم يقدر على فتحها وقتل عليها ابن أخته لما نذكر في زمان سيف الدولة^(٢)، وكان سيف الدولة يفتخر بها ويقول: معقلي حلب وشاعري المتنبي. وبقلعة حلب آثار الخليل عليه السلام، ويقال: إنه أوى إليها عند دخوله إلى الشام.

ومن قلاع الشام قلعة حمص وحماة وتدمر وبعلبك وصرخد وعجلون والكرك والشوبك، وكان بالساحل قلاع أُخربت كالقدس وكوكب والطور وتبين وهونين وبانياس وغير ذلك، لما نذكر إن شاء الله تعالى.



(١) «صورة الأرض» ص ١٩٤.

(٢) سيأتي الخبر في سنة (٣٥١هـ).

فصل

في ذكر المعادن التي هي كالخزائن

قال الجوهري: سمي المعدن مَعْدِنًا - بكسر الدال - لأنَّ الناس يقيمون فيه الصيف والشتاء، ومركز كلِّ شيء معدنه^(١). وقال الخليل بن أحمد: ومنه قوله تعالى: ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ أي: مواضع إقامة^(٢). وقال الهيثم بن عدي: المعادن كثيرة غير أن المشهور منها سبع مئة منها: معادن الذهب والفضة، والنحاس والصُّفْر، والرُّبْق والرَّصاص، والنَّفْط والقارُّ والرَّفْت، والمُرْدَاسَنج^(٣) والرُّزْنِيخ، والجصُّ والنُّورة والملح ونحوه، قال: ولا ينعقد الملح إلا في السَّبَخ، ولا الجصُّ إلا في الرمل، يعني في الغالب.

وهذه المعادن مفرقة في الأقاليم، والغالب على معادن الذهب والفضة أن يكونا بالمغرب وبجزائر الفرنج، والغالب على الياقوت والجوهر واللالئ بالمشرق، والنحاس والصُّفْر والرَّفْت والقارُّ بالجزيرة.

فصل في حكم المعدن

قال محمد رحمه الله: معدن ذهب أو فضة أو حديد أو رصاص أو صفر وُجد في أرض خَرَجٍ أو عُشْرٍ، ففيه الخُمُس^(٤). ولا بد من تفسير هذا فنقول: المال الموجود في الأرض له ثلاثة أسامي: الكنز والمعدن والركاز، فالكنز: اسم لما دفنه بنو آدم، والمعدن اسم لما خلقه الله تعالى في الأرض يوم خلقها، والركاز اسم لهما جميعاً.

فإن وجد معدنًا فلا يخلو إما أن يجده في دار الإسلام أو في دار الحرب، فإن وجد في دار الإسلام في أرض غير مملوكة فهو للواجد كائنًا من كان، غير الحربي فإنه يُسْتَرَدُّ منه إلا إذا كان الإمام قد قاطعه عليه، فإن كان الموجود مما يذاب بالإذابة وينطبع

(١) «الصحاح»: (عدن).

(٢) «كتاب العين» ٤٢/٢.

(٣) مرداسنج أو مرداسنج: فارسي معرب معناه: الحجر الميت. «تاج العروس»: (مردرسنج).

(٤) «الجامع الصغير» ص ١٠٦، ومحمد هو ابن الحسن الشيباني تلميذ الإمام أبي حنيفة رحمة الله عليه.

بالحيلة كالذهب والفضة والنحاس ونحوه ففيه الخمس، قليلاً كان أو كثيراً، لقوله عليه السلام: «وفي الرِّكَّازِ الخمسُ» متفقٌ عليه^(١). وأراد به المعدن.

وإن كان مما لا يذوب بالإذابة كالقصوص والجواهر والياقوت، فلا خمس فيه عندنا لأنه حجر، ولا خمس في حجر، بالحديث^(٢).

وإن وجد المعدن في أرض مملوكة فهو لمالك الأرض لأنه جزء من أجزائها وقد ملكها بأجزائها. واختلفت الروايات في وجوب الخمس فيه: فروي عن أبي حنيفة أنه لا يُخَمَّس، سواء وجدته في أرضٍ أو دار، وهي رواية كتاب الزكاة من «الأصل». وذكر في «الجامع الصغير» عنه: أنه إن وجدته في الدار لا يُخَمَّس وإن وجدته في الأرض يخمَّس، وعند أبي يوسف ومحمد يخمَّس في الأحوال كلها^(٣). وهو قول باقي الفقهاء لقوله عليه السلام: «وفي الرِّكَّازِ الخمسُ» من غير فصل.

وجه رواية كتاب الزكاة: أن المعدن من تراب الأرض وجزء من أجزائها فلا يخمَّس، والحديث محمولٌ على ما إذا وجدته في أرض غير مملوكة. ووجه الفرق بين الدار والأرض على رواية «الجامع»: أن الدار ملكها بشرط قطع الحقوق عنها، ولهذا لا يجب فيها عشر ولا خراج، والأرض لم تملك بشرط قطع الحقوق عنها، ولهذا يجب فيها العشر، فجاز أن يجب فيها الخمس، وعلى رواية كتاب الزكاة: لا فرق بين الأرض والدار عنده.



(١) البخاري (١٤٩٩)، ومسلم (١٧١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن عدي في «الكامل» ٥/١٦٨١، والبيهقي ٤/١٤٦ من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «لا زكاة في حجر».

(٣) «الجامع الصغير» ص ١٠٦-١٠٧.

فصل

في ذكر البحار وما فيها من عجائب الآثار

قال أحمد بن حنبل : حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا العوام بن حوشب، حدثنا شيخ كان مرابطاً بساحل البحر قال : لقيت أبا صالح مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : حدثني عمر عن النبي ﷺ أنه قال : «ليس من ليلة إلا والبحر يُشرفُ على الأرض، يستأذنُ ربَّه ثلاثاً هل يُنْفِضُ على الأرض فيكفُّه الله تعالى»^(١). قلت : وقد ذكر جدي رحمه الله هذا الحديث في «الواهيّة»، وقال : العوام بن حوشب ضعيف، والشيخ الذي في الحديث مجهول^(٢).

قلت : أما العوام بن حوشب فهو شيخ شيخ أحمد بن حنبل وقد أخرج عنه في «المسند» أحاديث، وأما الشيخ المجهول فلا يقدح في الحديث، فقد أخرج الحميدي في آخر «الجمع بين الصحيحين» عن رجل مجهول وغيره، وإنما الحديث الذي ضعفه رواه أبو هريرة وغيره : «إن الله تعالى كلم البحر الشامي فقال : يا بحر، ألم أخلقك، وأكثرُ ماءك» وهو حديث طويل، قال جدي في «الواهيّة» : في طريقه عبد الرحمن العمري اتفقوا على تركه. وذكر غيره وقال : إنما هو من كلام كعب الأخبار^(٣).

فإن قيل : فلم سمي بحراً؟ قلنا : لعمقه وسعته، وقال الجوهري : البحر خلاف البر، قال : وكلُّ نهرٍ عظيم بحرٌ، ويسمى الفرسُ الواسعُ الجري بحراً بالحديث^(٤).

واختلفوا في عدد البحار على أقوال :

أحدها : أنها سبعة أبحر، منها ستة ظاهرة وواحد محيط بالدنيا مظلم ومنه تستمد، قاله ابن عباس.

(١) أحمد في «مسنده» (٣٠٣)، وينفضخ : يفتح ويسيل.

(٢) «العلل المتناهية» (٣٧).

(٣) «العلل المتناهية» (٣٣).

(٤) وهو ما أخرجه البخاري (٢٦٢٧)، ومسلم (٢٣٠٧) من حديث أنس رضي الله عنه قال : كان فزع بالمدينة، فاستعار النبي ﷺ فرساً من أبي طلحة - يقال له : المندوب، فركب فلما رجع قال : «ما رأينا من شيء»، وإن وجدناه لبحراً». وانظر «الصحيح» : (بحر).

والثاني: أنها خمسة أبحر، قاله مقاتل.

والثالث: أربعة، قاله مجاهد.

والأول أصح لقوله تعالى: ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ [لقمان: ٢٧] لأن السموات سبع، والأرضين سبع، والنجوم السيارة سبع، والأيام سبع، وخلق الإنسان من سبع لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ الآية [المؤمنون: ١٢] ورزق من سبع لقوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ الآية [عبس: ٢٤]، ومن قال بالأربع والخمس فهي داخلة في السبع.

وذكر في «جغرافيا»: أنها مختلفة المقادير، فمنها ما هو على صورة الطيلسان، ومنها ما هو على هيئة الشابورة^(١)، ومنها ما هو على صورة التدوير، والغالب عليها الاستدارة.

وقال ابن حوقل في «كتاب الأقاليم»: وأشهرها بحر فارس والروم، وهما خليجان متقابلان يأخذان من البحر المحيط، وأفسحهما طولاً وعرضاً بحر فارس، يعني الشرقي. قال: والمحيط يقال له: «قنطش» والبحار تستمد منه، وهي بالنسبة إليه كالخلجان، ولا يتأتى فيه الركوب، ولا يعيش فيه حيوان إما لشدة برده أو لحرارته، ولا تجري فيه المراكب لما فيه من حجارة المغناطيس، ومن القلزم إلى الصين على خط مستقيم، يعني على وجه الأرض، نحو من مئتي مرحلة، وأما من أراد قطع هذه المسافة من القلزم إلى الصين في البحر طالت عليه المسافة لكثرة المعاطف في البحار والتواء الطرق^(٢).

فصل في البحر الشرقي

قال علماء الهندسة: إنه يأخذ من البحر المحيط الكبير المظلم بالمغرب وينتهي إلى أقصى الهند والصين، وذلك ثمانية آلاف ميل، وعرضه ألفان وسبعمائة ميل، وقد يختلف عرضه باختلاف الأماكن في الضيق والسعة.

(١) في تكملة المعاجم العربية لدوزي ٢٣٤/٦ أنها فيما يظهر مرادف الخليج الذي ينتهي بزاوية منحرفة، أو أراد تشبيهها بالسلك الجريدي، فإن شكل الفم يشبه فم السمكة.

(٢) «صورة الأرض» ص ٢٠-٢١.

وقال أبو الحسين ابن المنادي: طول هذا البحر من القُلْزُم إلى الواق واق أربعة آلاف وخمسة مئة فرسخ، وفيه خلجان عظيمة، منها خليجٌ يتصل بأرض الحبشة ويمتد إلى بلاد الزنج إلى مكان يقال له: بربرا، طوله خمس مئة ميل وعرضه مئة ميل، وليس هذا «بربرا» الموضع المعروف بالمغرب من أرض إفريقية، وإنما هو مكان آخر في أقصى الحبشة يسمى بهذا الاسم.

وقال أبو معشر: وليس في البحار أعظم من موجه، يرتفع مثل الجبال ثم ينخفض حتى يصير أودية عميقة.

وذكر أحمد بن محمد بن إسحاق في كتاب «البلدان» وقال: ليس في العالم أكبر من هذا البحر، يعني غير البحر المحيط، قال: فإنه يأخذ من المغرب وينتهي إلى الصين، فيمرُّ على النوبة والحبشة ثم على القُلْزُم ثم إلى وادي القرى وجدة وزبيد وعدن والشحر وحضرموت وعمان والذيل وفارس إلى المشرق^(١). وجميع بلاد السند والهند عليه، صيفهم شتاؤنا وشتاؤنا صيفهم، فكانون وكانون وشباط مثل حيران وتموز وآب عندنا، وعللوا ذلك بقرب الشمس من الأقاليم وبُعدها. قال: وذكر مَنْ له خبرة به أنَّ عمق الماء فيه في مواضع مئة باع وأكثر.

وقال أبو معشر: قد قسم أرباب الهيئة هذا البحر الشرقي في سبعة أقسام:

فالأول: بحر القلزم، ويمرُّ على النوبة والحبشة واليمن إلى عُمان، وطول هذا الخليج ألف وأربع مئة ميل، وعليه القصير وعيذاب، وبين مدينة القُلْزُم والفُسطاط ثلاثة أيام.

والقسم الثاني: بحر فارس، وأوله من الأُبلة والبصرة والبحرين عند الخشبات، وهي علامات منصوبة من خشب في البحر يستدل بها أهل المراكب، وطول هذا الخليج أربع مئة فرسخ حتى يتصل ببحر الهند عند جبل يقال له: رأس الجُمُجْمة، وأول هذا الجبل من اليمن من ناحية الشحر الأحقاف وآخره في الهند، وقد ذكرناه في الجبال، ولا يدرى أين غايته في البحر، وعلى هذا الخليج الذي يسمى بحر فارس من

(١) «مختصر كتاب البلدان» ص ١١.

البلاد: البحرين وعُمان وسيراف وكرمان، ومن عُمان إلى سيراف ستون ومئة فرسخ، ومن سيراف إلى البصرة أربعون ومائة فرسخ، وفيه من الأمم والجزائر ما لا يحصى، وفيه مغاص اللؤلؤ في جزيرة كَيْش، ولا يكون ذلك في جميع السنة بل في أول يوم من نيسان إلى آخر أيلول لا غير.

وقد اختلفوا في اللؤلؤ على قولين^(١):

أحدهما: أنه من حيوان يقال له: البلبل وفيه لحم، ويخاف على ما فيه من الدّر من الغاصة كما تخاف المرأة على جنينها.

القول الثاني: أنه يتولّد من الأمطار إذا وقع المطر في نيسان ارتفع الصدف إلى وجه الماء فتفتح أفواهاها فيقع فيها القطر، فمن الصدف ما يضمّ على ما وقع فيه فيغوص ويقيم طول السنة يحفظ نفسه من استنشاق الهواء حتى يأتي نيسان وقد انعقد اللؤلؤ في باطنه، ومن الصدف ما يشتاقي إلى النسيم فيصعد على وجه الماء فيفتح فاه ويستنشق الهواء فيفسد ما فيه.

والأول أصحّ، لأن الغواصين يستخرجون هذا الحيوان من البحر ويأكلون لحمه ويأخذون اللؤلؤ من جوفه، ويحتمل أن اللؤلؤ يتولّد من هذا الحيوان والمطر جميعاً. والقسم الثالث من هذا البحر يقال له: بلاذري، وليس في البحر الحبشي أعظم مجرّى للماء منه.

والرابع: كندرلاوي، وفيه العنبر، والخامس: كلاه بار. والسادس: كرديج، وهو بحر الصين، والسابع: مملكة المهرج.

وقال في «المسالك»: ووراء بحر الصين مفاوز ورمال تجري فيها السفن.

وقال التّوبختي: إن بين الهند والصين على هذا البحر ثلاثين ملكاً، أصغر ملك منهم يملك مثل ملك العرب.

وفي هذا البحر الشرقي عجائب، منها: أن فيه سمكاً طول كل سمكة خمس مئة ذراع وأقل وأكثر، بذراع أهل البحر، ويقال له: العُمري، وهو ذراع طويل، ترفع

(١) انظر «نخب الذخائر في أحوال الجواهر» ص ٢٧-٢٨.

السمة جناحها فيكون كالقلع العظيم، وتخرج رأسها من الماء ثم تنفخ فيذهب الماء في الهواء أكثر من السهم، وأهل المراكب يخافونها فيضربون الدبادب لتنفّر، وتبلغ السمك الصغار فيسمع لها دويٌّ، ولهذه السمكة آفة وهي سمكة صغيرة مقدار الذراع يقال لها: الكشنك، فإذا أراد الله هلاك الكبيرة جاءت الصغيرة فالتصقت بأصل أذنّها وعصّتها، فتغوص الكبيرة في الماء من شدة العضة إلى قرار البحر، وتضرب نفسها بالأرض حتى تموت، وتطفو على رأس الماء كالجبل العظيم^(١).

ونظير هذه السمكة الصغيرة الدويبة التي تقتل التمساح، لما ذكره^(٢).

ومنها: أن في هذا البحر سمكاً يبلغ المراكب، وفيه سمك طيار وسمك على صور الجمال وجوهم كأنها البوم، وسمك على صور البقر يعمل من جلودها الدرق، وفيه سمك في بطن كلّ سمكة مثلها وفي بطن الأخرى مثلها إلى عدة طبقات. وفيه سلاحف، استدارة ظهر السلحفاة عشرون ذراعاً وأكثر، وفي بطنها ألف بيضة، وفيه المعادن بأسرها.

قال ابن المنادي: وعليه مدينة في الهند يقال لها: مل، تنبت الفلفل، وعلى كل عنقود من عناقيد الفلفل ورقة تكته من المطر، فإذا مضى زمان المطر ارتفعت الورقة وإذا عاد عادت.

فصل في البحر الرومي^(٣)

ذكر ابن حوقل في كتاب «الأقاليم» قال: وأما بحر الروم فإنه يأخذ من البحر المحيط من المغرب في الخليج الذي بين المغرب والأندلس حتى ينتهي إلى الثغور الشامية، ومقداره في المسافة نحو من أربعة أشهر، وهو أحسن استقامة واستواء من بحر فارس، وذلك لأنك إذا أخذت من فم هذا الخليج أدتك ريح واحدة إلى أكثر هذا البحر. قال: وبين القلزم الذي هو لسان بحر فارس وبين بحر الروم على سمت القرم أربع مراحل^(٤). قال: ويزعم بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿يَنْهَمَا بَرِّحٌ لَا يَنْغِيَانِ﴾

(١) انظر الخبر في «نزهة المشتاق» ١/ ٦٥، وفيه: «الشنك»، ومروج الذهب ١/ ٢٣١-٢٤٣.

(٢) سيذكره المصنف قريباً في عجائب نهر النيل.

(٣) انظر «كنز الدرر» ١/ ١٦٧.

(٤) في «صورة الأرض»: «ثلاث مراحل».

[الرحمن: ٢٠] أنه هذا الموضع. والله أعلم^(١).

وقال أبو معشر: بحر الرومي يأخذ من خليج يخرج من البحر المحيط، ويسمى ذلك البحر: قنطش، وأضيق مكان في الخليج من ساحل طَنْجَة ويعرف بالزُّقاق عند سَبْتَة. قال: وبداية البحر الرومي من مكان يقال له: أصنام النحاس، ليس وراءه شيء، وعرض الزُّقاق ستة أميال، وقيل: إنَّ هذا البحر مثل البركة، ولهذا إن ما بين الأندلس وبين القُسطنطينية مئة ميل، وهذا البحر يمتدُّ إلى أقصى المغرب وبلاد الفِرَنْج وعليه طَرابُلُس الغرب، ثم يمتدُّ إلى الإسكندرية، ودمياط، والفرما، وغزّة، وعسقلان، ويافا، وقيسارية، وحيفا، وعكّة، وصُور، وصيدا، ويبروت، وجبيل، وأطرابُلُس الشام، وأنطَرطوس، وأدنة، والمصيصة، وجبلة، واللاذقية، وبلد أنطاكية، ثم يمرُّ على بلد الأرمن والروم إلى خليج القُسطنطينية. وقيل: طوله ستة آلاف ميل وعرضه من الست مئة إلى مئة بحسب اختلاف الأماكن في الضيق والسعة، وفيه جزائر نذكرها.

وقيل: إنَّ ذا القرنين هو الذي فتح هذا الزُّقاق عند سَبْتَة لأنَّ مكان البحر كان وادياً عظيماً فيه أمم كثيرة، ومدن وحصون، ومزارع وقرى، وآثارها باقية فيه، وكان أهلها عصاةً على الإسكندر، فأقام ينذرهم أربعين سنة فلم يطيعوه فأرسل عليهم الماء من الزُّقاق فغرقوا.

ويتشعب منه خليج طوله خمس مئة ميل، ويتصل بمدينة رومية، ويسمى: أروس. وقد زعم قوم أن البحر الرومي متصل بالبحر الشرقي، واحتجوا بأنه وصل في الزمان القديم قوم إلى جزيرة الأندلس في مراكب، فأغاروا عليها ووجدوا في مراكبهم النَّارَجِيل^(٢)، وهو شجر لا يكون إلا في البحر الشرقي يشبه شجر المُقْل، وليفهُ يعمل به مراكب البحر الشرقي، لأنَّ مراكب البحر الرومي مسمرة بالمسامير، والبحر الشرقي كثير جبال المغناطيس فيشدون المراكب بليف النَّارَجِيل.

قلت: وهذا القول بعيد لما بين البحر الشرقي والغربي من المسافات والبحار والجبال وغير ذلك.

(١) «صورة الأرض» ص ٢١.

(٢) النَّارَجِيل: هو جوز الهند.

فصل في خليج القُسطنطينية

قد توهم قوم أنَّ خليج القُسطنطينية إنما يأخذ من البحر الرومي ويصبُّ في بحر باب الأبواب، والأمر بالعكس، لأنَّ علماء الهيئة ذكروا أنَّ في ناحية الشمال بحراً يقال له: نيطس^(١)، طوله ألف ميل وعرضه ثلاث مئة ميل، وهو أحد البحور السبعة، ومصبه من ناحية الشمال من بحر آخر أكبر منه، وعلى سواحل خلق عظيم من ولد يافث بن نوح، يمتدُّ إلى خليج القُسطنطينية، وطول خليج القُسطنطينية ثلاث مئة ميل وعرضه عشرة أميال، والقُسطنطينية على جانبه من ناحية الشمال، وهو خليج عسر كثير الأمواج سريع العطب.

وقال أبو الحسين ابن المنادي: البحر المعروف بنيطس من وراء القُسطنطينية يجيء من بحر الخَزَر، وعرض قُوَّته ستة أميال، يمرُّ على القُسطنطينية ثم يصبُّ في بحر الروم، ويمرُّ ببلاد الأندلس فإذا انتهى إليها صار بين جبلين، ويضيقُ حتى يصير عرضه مقدار السهم.

فصل في بحر باب الأبواب

قال علماء الهيئة: هذا البحر مستدير الشكل، إلا أنَّه إلى الطول أقرب. وطوله ثمان مئة ميل وعرضه ست مئة ميل، وعليه الخَزَر والدَّيْلَم وجُرْجان وطَبْرِسْتان والتُّرك وأمم كثيرة، وفيه التَّين، واختلفوا فيه على قولين: أحدهما أنه دابة تكون في البحر فتعظم فتؤذي دوابَّ البحر، فيبعث الله عليها ريحاً فتخرجها إلى وجه الماء، فتتعلق بها السحب فتلقبها إلى الأرض. والثاني: أنها ريح سوداء تكون في قعر البحر فتظهر إلى ظاهر البحر ثم ترتفع إلى الجو وتلحق بالسحاب كالزوبعة إذا ثارت من الأرض واستدارت وثار معها الغبار، فيتوهم الناس أنها حيات سود خرجت من البحر، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(١) جاء في «معجم البلدان» ٥٠٠/١: «بَنْطُس» بضم الطاء والسين المهملة. وضبطه الفلقلشندي في «صبح الأعشى» ٣٥/٣: بنون مكسورة وياء مثناة تحت ساكنة وطاء مهملة مكسورة وشين معجمة في الآخر، وهو المعروف ببحر القرم.

فصل في مبادي البحار^(١)

واختلفوا فيه على أقوال:

أحدها: أنها من الاستقصاصات^(٢) الأربع، خلقها الله تعالى يوم خلق السموات والأرض كما في جميع المياه.

والثاني: أنها بقية طوفان قوم نوح عليه السلام. قاله ابن عباس والمفسرون.

والثالث: أنها من عرق الأرض لما ينالها من حرارة الشمس.

والرابع: أنها من مياه الأرض، فالمالح ينحدر إلى الأماكن المنخفضة فينعد غليظاً كدراً وتختلط به الأجزاء النارية. فأما المياه العذبة فترتفع في أيام الشتاء إلى الجو فيحدث منها المطر بإذن الله تعالى، فلا تزال العين قائمة أبداً، وهذا قول علماء الهيئة.

وأما ابن عباس فقد روى عنه عكرمة أنه قال: البحر المظلم من ورائه بحر آخر يقال له: الباكي، وماؤه عذب، وإنما سمي الباكي، لأنه يبكي من خشية الله تعالى، وليس بعده شيء.

وقال علماء الهيئة: هذه البحار بأسرها داخلية في الفلك، لأنه محيط بالأرض كلها.

فصل

ثم هذه البحار ينتقل بعضها على ممر السنين والدهور، فيصير موضع البحر برّاً وعلى العكس، وعلّة ذلك جريان الماء، فإنّ لموضع جريانه شباباً وهرماً، وحياة وموتاً، ونشأة، كما يكون في الحيوان والنبات، وقد رأينا ذلك عياناً في الأنهار العظام كالنيل والفُرات ودجلة والنّجف بالكوفة، فإنّه كان بحرّاً تأتي فيه السفن من الهند، فاستحال الماء عنه إلى موضع آخر، وكذا ببغداد في دجلة العُوراء فإنّها استحالَت فراسخٌ فأخربت قرى كثيرة، وهي اليوم قد استحالَت أيضاً، والله أعلم.

(١) انظر «كنز الدرر» ١/ ١٧٠.

(٢) لعلها الاسطقيسات: وهو لفظ يوناني يعني: «الأصل» والاستقصاصات: الماء والأرض والهواء والنار وهي أصول المركبات. «التعريفات» ص ٣٩.

فصل

في ذكر الجزائر وما فيها من الغرائب والجواهر^(١)

فصل في جزائر البحر الشرقي: وهي أبلغ من أن تحصى، فنذكر الجزائر المشهورة فنقول:

ذكر العلماء بأخبار الأوائل أن جزائر الوقواق ستة آلاف، فيها جزيرة يستوي فيها الليل والنهار.

وجزيرة يقال لها: جزيرة الراهب يخصى بها الخدم، وملكتها امرأة تجلس على سرير من الذهب، وعلى رأسها تاج من ذهب مرصع بالجواهر، وهي عريانة، وعلى رأسها أربعة آلاف وصيفة كلهن عراة، وقد شاهدن التجار الذين يسلكون تلك البلاد.

ومنها: جزيرة قنبلو^(٢)، يركب الناس منها إلى صُحار، وصُحار قصبة عمان، قال الجوهري: وصُحار - بالضم - قصبة عمان مما يلي الجبل، وتؤام قصبتها مما يلي الساحل^(٣).

ومنها: جزيرة سَرَنْدِيب، وهي ثمانون فرسخاً في ثمانين، إذا مات لهم أحد أحرقوه بالنار، وإن كان ملكاً تهافت خواصه وأهله حتى يحرقوا نفوسهم معه، وفيها الياقوت والبللور وسائر أنواع الطيب.

ومنها: جزيرة أهلها سود عراة حفاة، مأواهم رؤوس الشجر، لا يفهم كلامهم، يهربون من الناس.

ومنها: جزيرة فيها أشجار يسيل منها الكافور مثل الصمغ، تُظل الشجرة منها مئة فارس.

ومنها: جزيرة لهم أليات كليّات^(٤) الغنم، وهم سود يأكلون الرجال دون النساء،

(١) انظر «كنز الدرر» ١/ ١٧٢.

(٢) ويقال: قنبلة، وهي جزيرة للزنج في البحر الشرقي «صبح الأعشى» ٣/ ٢٤٤.

(٣) «الصحاح»: (صح).

(٤) الألية: جمعها أليات وألايا، ولا تقل إلية ولا لية «القاموس المحيط»: (ألي).

وجزيرة يأكلون النساء دون الرجال.

ومنها: جزيرة الرّامي^(١)، وبها البَقَم^(٢) وعرقه ينفع من سمّ ساعة.

ومنها: جزيرة فيها الرصاص القلعي، وجزيرة فيها قروود مثل الجواميس، وسنانير لها أجنحة، وفي هذه الجزائر الكركدن، وهو دابة دون الفيل وفوق الجاموس، يأكل الحشيش، وله قرن واحد طوله ذراع وغلظه قبضتان، وفيه صورة من أول القرن إلى آخره، فإذا انشقَّ القرنُ ظهرت الصورة بيضاء في سواد كالشبح: صورة إنسان أو دابة أو طاووس أو طائر أو سمكة ونحو ذلك^(٣). يتخذ أهل الصين من ذلك القرن مناطق تبلغ المنطقة أربع مئة دينار، وملوك الجزائر الكركدن مخرمو الآذان.

وقال في «جغرافيا»: وحصى هذه الجزائر الياقوت والمرجان وأصناف الجواهر، وبين الجزيرة والجزيرة ميل وأقل وأكثر، يعني: جزائر الوقواق، وعندهم النارجيل، لا يفقد من النخل غير الثمر، وقيل: هو المقل، قالوا: والنارجيل فيه خاصية، وذلك لأنّ بيوت أموال ملكة جزائر الوقواق الودع، فإذا قلّ قطعوا من سعف النارجيل بخُوصه فيطرحونه على وجه الماء فيخرج منه حيوان فيتراكب فيتولد منه الودع، فيطرحونه على ساحل البحر ويلقون عليه الرمل فتحرق الشمس ما فيه من الحيوان، ويبقى الودع وحده فيملؤون منه بيوت الأموال.

وقال النوبختي: وآخر هذه الجزائر جزيرة سرنديب، وبين هذه الجزائر خليج فيه حيات تبلع المراكب، قال: وبعد سرنديب مما يلي المشرق ألف جزيرة في ألف فرسخ فيها ممالك ومعادن، ثم يليها جزائر فنصورة، وهي مملكة المهرج، ولا تضبط جنوده لسعة مملكته، وفي مملكته خمسون ألف فيل يقاتل عليها، ومعنى المهرج: ملك الملوك، وعنده الكافور الفنصوري، وقيل: هو عيون في الجزيرة.

(١) وهي التي تسمى: «سِيلان». انظر «معجم البلدان» ٢٩٨/٣، و«الروض المعطار» ص ٢٦٤.

(٢) هو خشب شجر عظام. تنبت بأرض الهند والزنج، وورقه مثل ورق اللوز الأخضر، وساقه وأفئانه حمر. «المعتمد في الأدوية المفردة» ص ٣١، وفيه أنه إذا شرب من أصله مسحوقاً قدرّ ما، قتل صاحبه. وما في «الروض المعطار» ص ٢٦٤ موافق لما عند المصنف.

(٣) انظر «الحيوان» للجاحظ ١٢٩/٧.

ومنها: جزيرة يسمع منها صوت الطبول والملاهي والرقص دائماً والتصفيق، واسم هذه الجزيرة: برطاييل، يقال: إِنَّ الدَّجَالَ فيها. وفي مملكة المهرج جزيرة دورها أربع مئة فرسخ، عمائر متصلة، وفيها البُزاة والصقور والشواهين. قال: وفيها جزيرة فيها عين يقال لمائها: ماء العقل، من شرب منه ازداد عقله وفهمه.

وفيها: جزيرة يقال لها: سُطْطَرَى، لا يوجد الصَّبِر الأسقطري إلّا فيها. وذكر في «المسالك»: أنه ليس وراء الصين مسلك إلا رمال تجري فيها السفن، وبعدها مدينة قوم موسى الذين يقضون بالحقّ وبه يعدلون. وقد ذكر أبو إسحاق الثعلبي عن السُّدي قال: هم قوم بينك وبينهم نهر من شهد، وحكى أيضاً عن ابن جريج قال: لما قَتَلَ بنو إسرائيل أنبياءهم وكفروا كانوا اثني عشر سَبْطاً، تبرأ منهم سَبْط مما صنعوا واعتذروا إلى الله تعالى وسأله أن يفرق بينهم، ففتح لهم نفقاً في الأرض فساروا فيه سنة ونصفاً حتى خرجوا من وراء الصين، فهم هنالك حنفاء مسلمون يستقبلون قبلتنا^(١).

وحكى أيضاً عن الربيع والضحاك وعطاء فيما رواه عنهم الكلبي قال: هم قوم خلف الصين على نهر يجري الرمل فيه يسمى نهر: أوداف، وليس لأحدٍ منهم مال دون صاحبه، يُمَطَّرُونَ بالليل ويصحون بالنهار ويزرعون، لا يصل إليهم منا أحد ولا منهم إلينا، وهم على الحق.

قال الكلبي: وذكر أَنَّ جبريل عليه السلام مرَّ بالنبِيِّ ﷺ عليهم ليلة الإسراء فسَلَّمَ عليهم فقال لهم جبريل: هل تعرفون من تكلمون؟ قالوا: لا، قال: هذا محمد ﷺ النبي الأمي، فأمنوا به وقالوا: يا رسول الله إن موسى أوصانا وقال: من أدرك منكم أحمد فليقره مني السلام، ثم أمرهم بالصلاة والزكاة، وكانوا يسبتون فأمرهم بترك السبت وإقامة الجمعة، والله أعلم.

(١) أخرجهما الطبري في تفسيره ١٧٣/١٣ - ١٧٤، وقال ابن كثير: خبر عجيب. ورد الألويسي هذين الخبرين وما بعدهما.

فصل

وفي بحر باب الأبواب جزائر كثيرة فيها بُزاة بيض وهي أفخر البُزاة، وهذه الجزيرة قريبة من جُرجان، والبُزاة الشهب هناك كثيرة لكثرة الثلج بها. وأول من لعب بالبُزاة والشواهين والصقور من العرب، الحارث بن معاوية الكندي، ومن ملوك الروم قُسطنطين الذي بنى القسطنطينية، ومن الفرس يَزْدَجَرْد.

فصل في جزائر البحر الرومي

قال التُّوبختي: فيه جزائر كثيرة أعظمها جزيرة الأندلس، ولا يعلم مساحتها إلا الله تعالى، وهي مجاورة لأمم كثيرة من الفَرَنج والجلالقة وغيرهم. وقد ذكرها الحكيم ابن زهر المغربي وقال: فيها معادن الذهب والفضة والزُّبُق والنحاس والصفرة وجميع ما يوجد في المعادن، وفيها الكافور والمسك والعنبر ومعادن الياقوت والجوهر، وفي أرضها غابة تنبت الذهب، وفيها جميع ما يوجد في بلاد الهند والصين من الطيب ونحوه.

وذكرها ابن حوقل في «كتاب الأقاليم» وقال: وأما الأندلس فجزيرة كبيرة فيها عامر وغامر، وطولها دون الشهر وعرضها نيف وعشرون مرحلة، وفيها المياه الجارية والأشجار المثمرة، وتنتهي إلى الجلالقة، ومدينتهم يقال لها: سَمُورَة، وتنتهي إلى البحر المحيط، وذكر ما فيها وما حولها من الأُمم، قال: ومن أعظم مدائنها قرطبة وكانت مقرّ الخلائف من بني مروان، وبها جامع مثل جامع دمشق، وبمثل بغداد ودمشق ومصر في اجتماع العلماء بها^(١). وقد ذكرناه.

ومنها: جزيرة صِقْلِيَّة وكانت لبني عبّاد، وبها الحصون والقلاع، وآثار الإسلام باقية فيها إلى هَلَمَّ جَرّاء، وهي الآن بيد الأَنْبُرور^(٢)، وحاشيتُه كُلُّهُمْ مسلمون. وبين صِقْلِيَّة والإسكندرية إذا طابت الرياح ثمانية عشر يوماً.

(١) «صورة الأرض» ص ١٠٤ وما بعدها بتصرف.

(٢) هو ملك الفرنج، دخل صقلى سنة ٦٢٠ هـ، انظر «التاريخ المنصوري» ص ٩٩.

وقد ذكرها ابن حوقل فقال: وأما جزيرة صِقْلِيَّة فطولها سبعة أيام وعرضها أربعة أيام، والغالب عليها الجبال والقلاع والحصون، ومدينتها تسمى: بَلْرُم، وكان بها المسجد الأكبر وكان بيعة للروم، وفيها هيكل عظيم يزعم أرباب المنطق أن أرسطاطاليس حكيم اليونان معلق في خشبة في هذا الهيكل الذي اتخذه المسلمون مسجداً، وكانت النصراني تعظمه وتستسقي به لما رأوا عليه اليونان من تعظيمه^(١).

ومنها جزيرة قُبُرس ودورها عشرة أيام في مثلها، وفيها المعادن المنبوعة واللآذَن والزَّاج وغيره، وبينها وبين بلاد الإسلام ثلاثة أيام، وقيل: بينها وبين اللآذنية يوم وليلة، وثلاثة أيام بينها وبين الإسكندرية، وقد ذكرناه.

وفي جزائر البحر الرومي البُزاة والشواهين والصقور والعُقبان.

وحكى التوبختي قال: أهدى ملك الروم إلى كسرى عُقاباً وقال: إنه يصيد أكثر من البازي، فاستشار كسرى وزراءه في قبوله فقالوا: لا حاجة لك به فإنَّ خيرَه لا يقوم بشره، فخالفهم وأرسله على غزالٍ فأخذه فأعجب به وسقَّه آراء وزرائه، ثم جَوَّعه أياماً ليصيده به فوثب على ابن صغير لكسرى فقتله، فقال كسرى: وَتَرْنَا قيصِر، لأنه كان قد غزا بلاده فقتل وسبى، وكنتم كسرى أمر العقاب وأهدى لقيصر نمرأً وقال: إنه يصيد السبع، فأقام عنده فوثب يوماً على ولد لقيصر فقتله، فقال قيصِر: قد صدنا كسرى قبل أن يصيدنا.

وفي البحر الرومي جزائر كثيرة كإفريقيَّة وأقريطش والنوكبردية والجنوية والبيازية وغيرهم، وكلهم أجناسٌ في جزائر.

فصل

في ذكر المسك والعنبر، وهل هو حشيش أو مما يُدَسَّر؟

قال أحمد بن حنبل بإسناده عن أبي سعيد الخدري قال، قال رسول الله ﷺ: «المِسْكُ أَطْيَبُ الطَّيِّبِ». انفرد بإخراجه مسلم^(٢).

(١) «صورة الأرض» ص ١١٣.

(٢) أحمد في «مسنده» (١١٢٦٩)، ومسلم (٢٢٥٢).

وثبت أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كان يُحِبُّ الطَّيْبَ^(١).

وذكر العلماء بأخبار الهند والصين أنَّ المسك من غزلان الصين، وأنَّ التَّبَّيَّ أذكى، لطيب مراعي غزلان التَّبَّيَّ، وعلامة غزلان التَّبَّيَّ الأنْيَاب، فإنَّ لكلِّ واحد نايتين كتابيَّ الفيل خارجة من الفكين نحو شبر، فتَنْصَبُ لها الأَشْرَاك وتُرْمى بالسَّهَام، فإذا صرعوها قطعوا عنها نوافجها والدُم في سررها خام لم ينضج، فيكون له رائحة زَهَكَة^(٢)، فيبقى زماناً حتى تذهب عنه تلك الرائحة بالهواء.

وأما المسك الخالص فيأتي الغزال وقد استحکم في سرَّته المسك ودفعت الطبيعة موادَّ إلى سرَّته وقد قلق من ذلك، فيحتك بالصخر مع شدة حرارة الشمس فتفجر وتسيل على الصخور كما ينفجر الدَّمْل إذا نضج ما فيه، فيفرغ ما في نافجته - والنافجة بالفارسية هي السَّرة^(٣) - فيخرج الصيادون وقد أعدوا له الأوعية، وتسمى: النوافج، فيأخذونه من الصخور، وهو أفضل المسك وأطيبه ولا يكون له زَهَكَة.

وأما العنبر، فقد اختلفوا فيه على أقوال:

أحدها: أنه عين في البحر الشرقي، قاله مجاهد.

والثاني: أنه خثي دابة من دواب البحر، قاله الهيثم بن عدي.

والثالث: أنه حشيش ينبت في جزائر البحر عند الواقواق فتبلعه دواب البحر ثم تلقيه.

والرابع: أن البحر يهيج فيقذف بالعنبر من قعره كأمثال الجبال، فيبلعه الحيوان المعروف بالأوال، فإذا حصل في جوفه قتله، فيموت ويطفو على الماء، فيجذبونه بالكلايب فيأخذونه، فما لقي في ظهر الحوت منه كان جيِّداً، وما لقي في بطنه كان سهكاً فيبقى فيه أثره، قاله مقاتل.

واختلف الفقهاء في وجوب الخمس في العنبر:

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٥٠٠٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) زهك وسهك: الريح الكريهة ممن عرق. «القاموس المحيط»: (زهك وسهك).

(٣) انظر «المعجم الذهبي»: (نافه).

قال علي وابن مسعود وابن عباس: لا خمس فيه. وبه أخذ أبو حنيفة ومحمد.
وقال عمر: فيه الخمس، وبه أخذ أبو يوسف ومالك والشافعي وأحمد، لما روي
أن عمر سئل عنه فقال: فيه الخمس وفي كل ما يستخرج من البحر.
ولنا إجماع من سمينا من الصحابة، فإنهم قالوا: لا خمس فيه لأنه شيء دسره
البحر، وما روي عن عمر فقد خالفه فيه من سمينا من الصحابة، ولو سلم كان محمولاً
على ما وجد في خزائن البحر وبه نقول.

وقيل: إن أجود العنبر ما وقع ببحر فارس قريباً من رأس الجُمجمة عند بلاد الشُّحر
باليمن لخاصية في تلك البقعة، فإن هناك قوماً من قضاة يجعلون الشين المعجمة
كافاً^(١)، ولهم نُجْبٌ معدة على ساحل البحر لهذا، فإذا قذف البحر العنبر أخذوه.
وأما الكافور، فقد ذكرناه.

وأما العود، فقال الجوهري: عود قماري منسوب إلى موضع ببلاد الهند^(٢). قال
جدي رحمه الله في كتاب له يسمى «تقويم اللسان»: قماري منسوب إلى قمار، مدينة
باليمن.

فأما النَّدُّ، فقال الجوهري: والنَّدُّ من الطيب ليس بعربي^(٣). والله أعلم.

فصل في الجزر والمد، وهل لهما أمد أو حد^(٤)

فأما المد فمُضِيّ الماء بجريته، والجزر رجوعه عن ذلك، وقال علماء الهيئة:
البحار ثلاثة أصناف:

منها: ما يكون فيه المد والجزر ويظهر فيه ظهوراً بيناً، كالبحر الحبشي عند
البصرة، وهذا مشاهد محسوس.

والثاني: يظهر فيه في وقت دون وقت كما في البحر الأعظم، فإنه يمد ستة أشهر

(١) النص في مروج الذهب ١/ ٣٣٣، وكنز الدرر ١/ ١٨٣ أوضح مما هنا فانظره.

(٢) «الصحاح»: (قمر).

(٣) «الصحاح»: (ندد).

(٤) انظر مروج الذهب ١/ ٢٤٤، وكنز الدرر ١/ ١٨٠.

فيقلُّ الماء في موضع ويكثر في موضع.

والصنف الثالث: لا يظهر فيه المدُّ أصلاً، كغير الحبشي.

واختلفوا في علّة المدِّ والجزر: أما علماء الهيئة فقد اختلفوا فيه: قال بعضهم: علته القمر، لأنه مجانس لعله الماء وهو يسخنه فينبسط، ومثّلوه بِقَدْرِ فيها ماءً مقدار نصفها، فإذا غلى على النار ارتفع الغليان حتى يفور ويصعد، فإذا برد الماء نقص، لأنَّ من شرط الحرارة أن تبسط الأجسام ومن شرط البرودة أن تضغطها، فإذا امتلأ القمر حميت أرض البحر فانبسط الماء وارتفع، وإذا نقص نقص الماء.

وقال بعضهم: علّته الأبخرة المتولدة في باطن الأرض، فإنها لا تزال تتولد حتى تكثُر وتكتف فيرد^(١) ماء البحر بكثافتها، فإذا انقطعت المواد بقلّة الكثافة عاد ماء البحر إلى قعره.

والمختار عندي: أنَّ المدَّ والجزر من آيات الله تعالى، وأنّه من آثار قدرته في العالم، لأنَّ كلّ ما لا يوجد له قياس في الوجود فهو فعل إلهي يستدلُّ به على عظمة الباري سبحانه وقدرته، وليس للمدِّ والجزر قياس في العالم.

وقال أحمد بن حنبل بإسناده قال: سئل ابن عباس عن المدِّ والجزر فقال: قد وُكِّلَ الله بقاموس البحر ملكاً، فإذا وضع رجله فيه فاض البحر، وإذا رفعها غاض^(٢). وقد ذكره الجوهري فقال: وقاموس البحر وسطه ومعظمه^(٣).

وروي عن مجاهد عن ابن عباس قال: الملك الموكل بالبحار يضع عقبه في بحر الصين فيكون منه المدُّ، ثم يرفع عقبه فيكون منه الجزر.

وقال مجاهد: وهذا ظاهر محسوس، فإن الإنسان لو وضع قدمه في إناء فيه ماء فإن الماء يرتفع إلى رأس الإناء، فإذا رفعها رجع الماء إلى حدّه.

(١) في (ط): فبرد، والمثبت من (ل) وكز الدرر ١/ ١٨٠، وفي مروج الذهب ١/ ٢٤٩ (وعنه ينقل): حتى

تكتف وتكثر فتدفع حينئذ ماء هذا البحر لكثافتها . . .

(٢) أحمد في «مسنده» (٢٣٢٣٨).

(٣) «الصحيح»: (قمس).

فإن قيل: فيلزم على هذا أن يكون الجزر والمدّ في جميع البحار، قلنا: قد ذهب قومٌ إلى هذا، وإنما لم يظهر في غير بحر البصرة لوجهين: أحدهما: لبعدها المسافة واتساع البحار، ومن لججّ من المسافرين في البحار يذكر أنه شاهده، والثاني: فلأنّ مكان المدّ والجزر في البصرة تحت خط الاستواء واعتدال الليل والنهار وعليه الكواكب الثابتة، وهذا المعنى لا يوجد في غيره.

وأما قول من علّل بزيادة القمر ونقصانه، فغير صحيح، لأنه لو كان كذلك لتعلّق بزمان مخصوص، فإن القمر يزيد في أول الشهر وينقص في آخره، والمدّ والجزر يكون في كلّ يوم وليلة فافترقا.

وأما من قال بأنه من الأبخرة في قلّتها وكثرتها فباطلٌ، لأنه يحتاج إلى زمان طويل يجتمع فيه، وهذا يوجد في كل يوم وليلة.



فصل في ذكر العيون والأنهار وما ورد فيها من فنون الأخبار والآثار

ذكر الجوهري أن العين على وجوه: أحدها: عين الماء، وعين الرُّكبة، والعين: حاسة الرؤية، والعين: عين الشمس، والعين: الدينار، والعين: المال النَّاضِ، والعين: الدَّيْبَان^(١) والجاسوس، وعين الشيء: خياره، وعين الشيء: نفسه، والعين: ما عن يمين قبلة العراق، والعين: مطرُ أيامٍ لا يُقلع، وأسود العين: جبل، وأنشد الجوهري^(٢): [من الطويل]

إذا زالَ عنكم أسودُ العينِ كنتمُ كراماً وأنتم ما أقامَ ألأئم
ورأس عين: بلدة، وفي الميزان عين إذا لم يكن مستويًا، والعين: من حروف المعجم^(٣).

ذكر الجوهري هذه الوجوه وهي ستة عشر، وقد خرَّجت وجوهاً آخر حكاها الخليل بن أحمد وغيره تزيد على خمسين وجهاً، وذكرتها في التفسير. وجمع العين أعين وعيون، قال الجوهري: وأعيان.

وأما النهر فيسمَّى نهراً لا تساعه. واختلفوا في بدو الأنهار: فروى عطاء عن ابن عباس: أن جميع المياه من تحت صخرة بيت المقدس ومن هناك تفرق في الدنيا. وقد ذكر جدي رحمه الله حديثاً مرفوعاً في هذا المعنى في «فضائل القدس» فقال: حدثنا أبو المعمر الأنصاري بإسناده عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «الأنهار والسحاب والبحار والرياح من تحت صخرة بيت المقدس»^(٤).

قلت: والموقوف في هذا على ابن عباس أصح. وروى مجاهد عن ابن عباس أن جميع الأنهار من البحر الذي خلف المحيط،

(١) الديببان: هو الربيثة، وهو الطليعة قدام العسكر «تاج العروس» (دب).

(٢) نسه الجوهري إلى الفرزدق، ولم نجده في ديوانه المطبوع.

(٣) «الصحاح»: (عين).

(٤) «فضائل القدس» ص ١٤١، و«الموضوعات» ٣٠٩/٢، وقال: هذا حديث لا أصل له.

وماؤه عذب، ويسمى: الباكي. وقد ذكرناه.

وروى العوفي عن ابن عباس: أن العيون في الأرض كالعروق في البدن. وذكر مقاتل: أن العيون تتولد من الأبخرة وتجمع في الأماكن المنخفضة، فإذا انتشرت في أعماق الأرض طلبت التنفس، فتشق الأرض فتفجر العيون. قال: والأرض على الماء مثل الشباك، فإذا أراد الله أن يفجر بعض العيون في أماكن مخصوصة نظراً لعباده تنفس الأرض فانفجرت.

ومذهب الأوائل أن الماء من الاستقصات الأربع.

فبتدئ بالأنهار الكبار، كالنيل، والفرات ودجلة، وجيحون وسيحون، ونحوها، ومطارحها، ومقدار جريانها على الأرض:

وقد ذكر النيل والفرات في الصحيح، فقال أحمد بن حنبل بإسناده عن أنس بن مالك بن صَعْصَعَة، حدّثه عن رسول الله ﷺ حديث المعراج، وفيه أنه ﷺ قال: «ثم رُفِعْتُ إلى سِدْرَةِ الْمُنتَهَى، وإذا أربعة أنهار: نهران باطنان ونهران ظاهران، فقلتُ يا جبريلُ، ما هذا؟ فقال: أما الباطنان: فنهران في الجنة، وأما الظاهران: فالنيل والفرات». أخرجاه في «الصحيحين»^(١).

وقد ذكر سيحان وجيحان في الصحيح، أيضاً، فقال أحمد بن حنبل بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «سيحان وجيحان والنيل والفرات كلٌّ من أنهار الجنة». انفرد بإخراجه مسلم^(٢).

فصل في ذكر النيل

أصل النيل: الفيض، قال الجوهري: والنيل فيض مصر^(٣).

واتفقوا على أن مبدأه من جبل القمر، فذكره في «جغرافيا» وصوّره أنه ينبع من اثني عشرة عيناً، وأن العيون تصبُّ في بحيرة مثل البطائح^(٤) خلف خط الاستواء يجتمع فيها

(١) أحمد في «مسنده» (١٧٨٣٣)، والبخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤).

(٢) أحمد في «مسنده» (٧٨٨٦)، ومسلم (٢٨٣٩).

(٣) «الصحاح»: (نيل).

(٤) البطائح: جمع أبطح، وهو مسيل واسع فيه دفاق الحصى. «القاموس المحيط»: (بطح).

الماء ويجري على رمال هناك وبين جبال، ثم يخرق أرض السودان ثم يصب في بحر الزنج، وفي هذا البحر قبلو وهي عامرة، وفيها قوم مسلمون لغتهم زنجية غلبوا على أهل الجزيرة عند انقراض مُلك بني أمية وابتداء الدولة العباسية، ومن ذلك البحر الذي فيه قبلو يصب في بحر عُمان. ومن جبل القمر إلى هذه الجزيرة مسيرة خمس مئة فرسخ ويقوى جريانُ مصبه في هذا البحر أيامَ زيادة النيل، فيجري جرياناً عظيماً ويتكدر موضع العيون، حتى قيل: إن الماء يؤثر لونه في لون البحر ويكون ماؤه أحلى من العسل.

وقال كعب الأحبار: وجدت في التوراة أنَّ النيل نهر العسل من الجنة، وأنه يجري على بلاد الحبشة في قفار ومفاوز ومهامه^(١) ليس فيها مسلك.

وذكر أحمد بن بختيار وقال: العين التي هي أصل النيل هي أول العيون من جبل القمر، ثم ينبعث منها عشرة أنهار، نيل مصر أحدها، قال: والنيل يقطع الإقليم الأول ثم يجاوزه إلى الثاني، ومن ابتدائه من جبل القمر إلى انتهائه إلى البحر الرومي ثلاثة آلاف فرسخ يجري في عامر وغامر، فإذا تعدى الفسطاط انقسم قسمين: قسم يمر إلى دمياط وقسم يمر إلى رشيد، فيصبان في بحر الروم، وقيل: إنه لا يعلم مسافة جريانه إلا الله عز وجل.

ويبتدئ بالزيادة في نصف خزيان وينتهي في أيلول، واختلفوا في سبب زيادته ونقصانه: فقال قوم: لا يعلم ذلك إلا الله تعالى، وقال آخرون: سببه زيادة عيونه ونقصانها، وقال آخرون: الظاهر أن سبب زيادته كثرة المطر والسيول، تمطر بلاد الحبشة والنوبة فيزيد، وإنما يتأخر وصوله إلى الصيف لبعده المسافة، وقد رد قوم هذا وقالوا بأن عيونه التي تحت جبل القمر تتكدر في أيام زيادته، فدل على أنه فعل الله تعالى من غير زيادة بالمطر.

وجميع المياه تجري إلى القبلية إلا هو؛ لأنه خارج عن خط الاستواء، فيجري إلى ناحية الشمال، وكذا العاصي بالشام يجري إلى غير القبلية، قالوا: وفي الهند أنهار

(١) المهمة: المفازة البعيدة والبلد المقفر. «القاموس المحيط»: (مهه).

كثيرة تجري إلى غير القبلة، لما نذكر.

ومتى بلغ ستة عشر ذراعاً استحق السلطانُ الخراجَ، وإذا بلغ ثمانية عشر ذراعاً قالوا: يحدث بمصر وباء عظيم، وإذا بلغ عشرين ذراعاً مات ملك مصر، والله أعلم. وبمصر تُرَع كثيرة منها ترعة سُنباط، وترعة ذنب التمساح، وتُرَع في الصعيد، وخليج سردوس، وخليج ابن منجا، وخليج القاهرة، وخليج الفيوم، حفره يوسف عليه السلام زمان القحط، وإنما سمي الفيوم لأنَّ أصله ألف يوم، كانت كل قرية منه تقوم بأهل مصر يوماً، وذكر الجوهري الفيوم فقال: والفيوم من أرض مصر، قُتل بها مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية^(١). قلت: والصحيح أن مروان قتل ببُوصير - لما نذكر^(٢). وفيه خليج الإسكندرية وغيره.

وفي النيل عجائب، منها التمساح، قالوا: ولا يوجد إلا فيه وله أسامي، في مصر التمساح، وفي بلاد الثوبة الورل، ووراء الثوبة الشوشمار. وقال الجوهري: والتمساح دابة من دواب الماء معروف^(٣). وقال الجاحظ في كتاب «عجائب البلدان»: إن مهران السند من نيل مصر، قال: لأن التمساح فيه.

قلت: وقد وهم الجاحظ، لأنَّ مهران السند يخرج من جبال المُؤلتان، وهي في المشرق داخلية تحت خط الاستواء والاعتدال، والنيل يخرج من جبل القمر من ناحية الجنوب وهو خارج عن خط الاستواء، وبين مهران وبين الحبشة والثوبة البحر الشرقي، فكيف يكون منه؟! فإن وجد التمساح في مهران فقد وجد فيه كما يوجد في النيل.

قالوا: والتمساح لا دُبر له وما يأكله يتكوّن في بطنه دوداً، فإذا آذاه ذلك خرج إلى البرية وفتح فاه فينقضُّ عليه طائر الماء كالطَيْطوي ونحوها من أنواع الطيور ممن اعتاد

(١) «الصحاح»: (فوم).

(٢) سيذكر الخبر المصنف في سنة (١٣٢هـ).

(٣) «الصحاح»: (مسح).

ذلك، فيأكل ما بين أسنانه وما يظهر من الدود، فإذا أكل أطبق عليه التمساح في بعض الأوقات فمه فيبلعه، فضربت العرب المثلَ به فقالت: مكافأة التمساح.

وأفة التمساح دُويبة تكون في سواحل النيل وجزائره تكمن له في الرمل، فإذا فتح فاه وثبت فدخلت فمه ونزلت إلى جوفه فيضرب الأرض بنفسه ويغوص في الماء فتخرق الدويبة بطنه فيموت، وربما قتل نفسه قبل أن تخرج منه فتخرج بعد موته، وهذه الدويبة نحو من ذراع على صورة ابن عرس ولها قوائم شتى ومخالب، فهي آفة التمساح، كالمسكة الصغيرة التي تقتل^(١) الكبيرة في البحر الشرقي، وقد ذكرناها.

وذكر ابن حوقل: أن في نيل مصر أماكن لا يضرُّ التمساح فيها، كعدوة بوسير والفسطاط، قال: وفي نيل مصر السَّقَنُور يصلح للجماع، ويكون عند أسوان وفي حدودها.

وفي النيل السمك الرَعَاد إذا وقعت السمكة في شبكة الصياد لا تزال ترتعد يداها ورجلاه حتى يلقىها أو تموت، وهي نحو الذراع^(٢).

وقال جالينوس: إذا وضع منها على رأس مَنْ به الصداع زال، وقيل: إنما الخاصية أن توضع على الرأس وهي في حالة الحياة^(٣).

وفيه سمك على صورة الفرس، والمكان الذي تكون فيه لا يقربه التمساح، وتخرج من الماء ليلاً فتزعى الزرع فتفسده، فيطرحون لها التُّرْمُس فتأكله ثم تشرب الماء فيرم جوفها فتموت، وهي على صورة الفرس إلا أنه ليس لها حافر ولا ذنب.

وفيه شيخ البحر، سمكة على صورة آدمي وله لحية طويلة، والغالب أنه يكون بنواحي دِمياط، وهو مشؤوم فإذا رُئي في مكان دلَّ على القحط والموت والفتن، ويقال: إن دِمياط ما تنكب حتى يظهر عندها.

وفيه المقياس يعرف به زيادة النيل ونقصانه، وأول من بناه يوسف عليه السلام

(١) هنا ينتهي السقط في (ب)، وانظر مروج الذهب ١/ ٢٣٥ - ٢٣٦.

(٢) «صورة الأرض» ص ١٣٩ - ١٤١.

(٣) انظر «عجائب المخلوقات» ص ١٨٧.

بمَنف، وبنت دلوكة الملكة مقياساً بإخميم، وفي أيامها عُمِلت الطَّلَسَمَات بمصر.
فأما المقياس التي بنيت بمصر في الإسلام فأول من بنى مقياساً عبد العزيز بن مروان بن الحكم لما ولي مصر، بناه بحُلوان فوق الفسطاط، وهذا المقياس الظاهر بناه المأمون، وقيل: إنما بناه أسامة بن زيد التَّنُوخي ودثر، فجده المأمون، وأسامة بناه في أيام سليمان بن عبد الملك بن مروان، وبنى أحمد بن طولون مقياسين أحدهما بقُوص وهو قائم اليوم، والآخر بالجيزة وقد انهدم.

فصل في الفرات

وأصلها من الفَرْت وهو الشق، قال الجوهري: والفرات اسم نهر بالكوفة، والفراتان: الفرات ودُجَيْل. والفرات: الماء العذب. يقال: ماء عذب فَرَات^(١).
واختلفوا في مخرجها على قولين: أحدهما: أنها من جبل ببلد الروم يقال له: افرذهخش، بينه وبين قاليقلا مسيرة يوم، والثاني: أنها تخرج من أطراف أرمينية ثم تجري إلى بلاد الروم.

ويجتمع إليها أعين كثيرة ويصبُّ إليها خليج من بحيرة المازريون، وليس ببلاد الروم بحيرة أكبر منها، دَوْرُها أكثر من شهر، ثم يمرُّ الفراتُ بأَرْضِ مَلْطِيَّة على مسيرة ميلين منها، ثم يمرُّ على صُمَيْصَات^(٢) وقلعة الروم والبيرة وجسر مَنبُج وبالس وقلعة جَعْبَر والرَّقَّة والرَّحْبَة^(٣) وقرقيسيا وعانة والحديثة وهيئ والأنبار.

ومن تحت الأنبار يأخذ منها نهر عيسى، ونهر الملك، فيصبان في دجلة، ثم يمر الفرات بالطفوف، ثم بالحلة، ثم بالكوفة، وينتهي إلى البطائح، ويصب في البحر الشرقي.

قالوا: ومقدار جريانها على وجه الأرض أربع مئة فرسخ، وقد كانت تمر ببلاد الحيرة، ونهرها بين إلى هَلَمَّ جَرًّا، ويعرف بالعتيق، وعنده كانت وقعة القادسية، وكان

(١) «الصحاح»: (فرت).

(٢) في «معجم البلدان»: «مَلْطِيَّات».

(٣) وهي رحبة مالك بن طوق. «معجم البلدان» ٣/ ٣٤.

البحر المعروف بالتَّجَف في ذلك الوقت جاريًا، وكان مرسى السفن من الهند والصين إلى ذلك المكان، تحمل فيه الأمتعة إلى ملوك الحيرة لما كانت عامرة، ولما استحال الماء وانقطع عن مصبه في النجف صار ذلك البحرُ برًا، وصار بين الحيرة والبحر مسافة.

والتَّجَف - بالتحريك - المكان الذي لا يعلوه الماء، ويقال: إن اسم هذا المكان نج وكان أهل الحيرة يستقون منه الماء، فأصبحت امرأة لتستسقي فرأته يابسًا فقالت: نج جف، ثم خففوه.

وقد روي في فضل الفرات حديث: حدثنا جدي رحمه الله قال حدثنا إسماعيل بن السمرقندي بإسناده عن ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من يومٍ إلَّا وينزلُ مَثاقيلُ من بركاتِ الجنةِ في الفُراتِ». قال جدي^(١) في «الأحاديث الواهية»: هذا الحديث لا يصح؛ في إسناده الربيع بن بدر، تركوا حديثه^(٢).

قلت: وقد ذكر الزهري ما يدلُّ على صحته، لأنَّه قال: ومصدقُ هذا الحديث أنَّ الفراتَ مدَّتْ في بعض السنين فجاءت برمانٌ كلُّ رمانةٍ مثلُ البعير، فكانوا يرون أنه من الجنة.

وقال البخاري بإسناده عن أبي هريرة: قال، قال رسول الله ﷺ: «يُوشِكُ أَنْ يَحْسِرَ الفُراتُ عن كنزٍ من ذهبٍ، فَمَنْ حَضَرَهُ، فَلَا يَأْخُذْ مِنْهُ شَيْئًا»، وفي رواية: «عن جبل من ذهبٍ». أخرجاه في الصحيحين^(٣).

ولمسلم عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَحْسِرَ الْفُراتُ عن جَبَلٍ مِنْ ذَهَبٍ، يَقْتُلُ النَّاسُ عَلَيْهِ، فَيُقْتَلُ مِنْ كُلِّ مِئَةِ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ، وَيَقُولُ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ: لَعَلِّي أَنْ أَكُونَ أَنَا الَّذِي أَنْجُو»^(٤).

وروي أن دانيال حضرها مع دجلة، وسنذكره.

(١) في (ب): «قال حدثني جدي».

(٢) «العلل المتناهية» (٣٨).

(٣) البخاري (٧١١٩)، ومسلم (٢٨٩٤) (٣٠).

(٤) مسلم (٢٨٩٤).

فصل في دجلة

قال الجوهري: دَجَلَةُ نهر بغداد^(١). وذكر أبو بكر الخطيب أن دانيال حفرها مع الفرات فقال: حدثنا أبو الحسين أحمد بن محمد بن أحمد مولى بني هاشم بإسناده عن عثمان بن عطاء، عن أبيه قال: أوحى الله إلى دانيال أن احفر لي سَيِّئِينَ بالعراق، فقال: يارب بأيِّ مكاتِلَ وبأيِّ مساحيٍّ وبأيِّ رجالٍ؟ فأوحى الله إليه أن أعدَّ سكة حديد وعرضها واجعلها في خشبة وألقها خلف ظهرك فإني باعُثُّ إليك ملائكة يعينونك على حفرهما، ففعل، فكان إذا انتهى إلى أرضٍ أرملةٍ أو يتيمٍ حاد عنها حتى حفر دجلة والفرات.

وقال الخطيب بإسناده عن ابن عباس قال: أوحى الله تعالى إلى دانيال أن فجّر لعبادي نهرين عظيمين، واجعل مفيضهما إلى البحر، فقد أمرت الأرض أن تطيعك، فأخذ قناة فجعل يخذ في الأرض، والماء يتبعه - وفي رواية: فأخذ قصبَةً - وكان إذا وصل إلى أرض شيخ كبير أو يتيم ناشده الله فيحيد عن أرضه، فعواقل دجلة والفرات من ذلك^(٢).

قال الجوهري: العاقول من النهر والوادي: ما اعوجَّ منه^(٣).

وقال أرباب العلم بهذا الشأن: مبدأ دجلة من بلاد آمد وديار بكر وميافارقين وأرمينية، تجتمع العيون ثم تمر ببلاد حصن كَيْفَا والجزيرة والموصل، وتستمد من الزابين الأعلى والأسفل، وهما من عيون بلاد أرمينية، ثم تمر ببلاد تكريت وبغداد وواسط، وتنقسم عدة أودية، ثم تصب في البَطَائِح وتختلط بالفرات، ثم تصب في البحر الشرقي.

قالوا: ومقدار جريانها على وجه الأرض ثلاث مئة فرسخ، وقيل: إن الذي

(١) «الصحاح»: (دجل).

(٢) «تاريخ بغداد» ٥٦/١، وهذان خبران منكران، في إسنادهما الهيثم بن عدي وأبو صالح والكلبي وعثمان بن عطاء.

(٣) «الصحاح»: (عقل)، وفيه: «المعوج منه».

حفرهما أفريدون الملك، وليس بصحيح، والله أعلم.

فصل في سِيحُون

وهو نهر الهند، ويقال: هو مِهْرَان السند، وقال الجوهري: وسِيحُون نهر بالهند، وسِيحَان نهر بالشام، وساحِين نهر بالبصرة، وانساح أي: اتسع^(١). ومخرج سيحون من جبال ماسَبَذَان وينتهي إلى بلاد المولتان، وتفسيره: مرج الذهب، ثم ينتهي إلى الفنصورة، ثم يصبُّ في البحر الشرقي، ومقدار جريانه على وجه الأرض ست مئة فرسخ، والتماسيح في خلجانه على ما ذكر الجاحظ، ولا توجد في غيره وغير النيل، وقد ذكرناه.

فصل في جَيِّحُون

وهو نهر بلخ، ومنبعه من عيونِ بِلَادِ التُّبَّت، ويمر ببلخ والتَّرمِذ وأَسْفَرَايْن وخُوارِزم، ويمضي حتى يصبُّ في بحر جُرجان، ثم يمر على بلاد التُّرك. قالوا: ومقدار جريانه على الأرض مقدار ثلاث مئة فرسخ، وقيل: إنه يصب في مِهْرَان، وليس كذلك، بينهما مسافة بعيدة، وقد سماه النبي ﷺ: «جَيِّحُون» في الحديث الذي رويناه.

فصل

وفي العالم أنهار كثيرة، ذكر أحمد بن بختيار أن بالصين جزيرة الفضة يخرج منها ثلاثة أنهار، مثل: جَيِّحُون والنيل والفرات. قلت: وقد وهم، لو جعل مكان النيل دجلة كان. ومنها: نهر إِتِل يأتي من المشرق فيصب في بحر الخَزَر، ويقال: إنه يتشعب منه نيف وسبعون نهراً، وهو أكبر من جَيِّحُون. ومنها: نهر الهِنْدَمَنْد، ومخرجه من جبال خراسان ويصب في البحر الشرقي.

(١) «الصحاح»: (سيح).

وذكر في «جغرافيا»: أن العيون الكبار التي تنبع في الأرض مئتا عين وثلاثون عيناً دون الصغار، وعدد الأنهار الكبار الجارية في الأقاليم السبعة على الدوام مائتان وتسعون نهراً.

وقال ابن المنادي: في الإقليم الأول من الأنهار والعيون ثلاثة وعشرون عيناً ونهراً، وفي الإقليم الثاني تسعة وعشرون، وفي الإقليم الثالث أربعة وعشرون، وفي الإقليم الرابع ستون، منها دجلة والفرات، وفي الإقليم الخامس عشرون، وفي الإقليم السادس ستة وعشرون، وفي الإقليم السابع الباقي.

وجميع ما ذكرنا من العيون والأنهار داخل في الأقاليم السبعة إلا العيون التي في جبل القمر فإنها خارجة عن ذلك، لأنها ليست في خط الاستواء. وقيل: إنها في أطراف إقليم الهند وهو الأول.

وذكر صاحب «المسالك»: أن بلاد المشرق تلاً حوله ألف عين تجري إلى المشرق وتسمى بركون، أي: الماء المقلوب، وصيده ذراريح سود^(١).

قلت: وقد روى أبو بكر الخطيب في «تاريخه» حديثاً يأتي على سيحون وجيحون ودجلة والفرات والنيل، فقال بإسناده عن ابن عباس: قال، قال رسول الله ﷺ: «أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَى الْأَرْضِ خَمْسَةَ أَنْهَارٍ: سَيْحُونُ وَهُوَ نَهْرُ الْهِنْدِ، وَجَيْحُونُ وَهُوَ نَهْرُ بَلْخَ، وَدِجْلَةُ وَهُوَ الْفَرَاتُ: وَهُمَا نَهْرَانِ بِالْعِرَاقِ، وَالنَّيْلُ نَهْرٌ بِمِصْرَ، أَنْزَلَهَا اللَّهُ مِنْ عَيْنٍ وَاحِدَةٍ مِنْ عُيُونِ الْجَنَّةِ مِنْ أَسْفَلِ دَرَجَاتِهَا عَلَى جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَاسْتَوْدَعَهَا الْجِبَالَ، وَأَجْرَاهَا فِي الْأَرْضِ، وَجَعَلَ فِيهَا مَنَافِعَ لِلنَّاسِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدَرُ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ﴾ [المؤمنون: ١٨] فَإِذَا حَانَ خُرُوجُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، أَرْسَلَ اللَّهُ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَرَفَعَ مِنَ الْأَرْضِ هَذِهِ الْأَنْهَارَ الْخَمْسَةَ وَالْقُرْآنَ وَالْعِلْمَ وَالْحَجَرَ وَالرَّكْنَ وَالْمَقَامَ وَتَابُوتَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَا فِيهِ، يَرْفَعُ الْكُلَّ إِلَى السَّمَاءِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَدْ يَرْوَنَ﴾ [المؤمنون: ١٨] فَإِذَا

(١) «المسالك والممالك» ص ٢٨، وجاء فيه: «بركو آب».

رُفِعَتْ هذه الأشياءُ مِنَ الْأَرْضِ فَقَدْ خَيْرُ الدِّينِ وَالْدُّنْيَا^(١). إِلَّا أَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ غَرِيبٌ، وَالْأَصَحُّ أَنَّهُ مَوْقُوفٌ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه.

فصل في سَيِّحَانٍ وَجَيِّحَانٍ

قال التُّوبَخْتِي: هما في بلد الروم، فأما سَيِّحَان: فيخرج من عيون بينها وبين مَلْطِيَّة ثلاثة أيام، ويمتد إلى ناحية الغرب، وعليه أَدْنَةُ^(٢)، فيصب في البحر الرومي. وأما جَيِّحَان: فيخرج من عيون بينها وبين مَرْعَش ثلاثة أيام وعليه المَصْبِيصَة، ويصب في البحر الرومي.

والنهر الأسود: الذي غرق فيه ملك الألمان قريباً من بلد الروم.

فصل في البحيرات

وهي كثيرة: منها بحيرة سَاوَه وسنذكرها في سيرة النبي ﷺ إن شاء الله تعالى. وبحيرة أَرْمِينِيَّة، وبحيرة الروم، وقد ذكرناها، وأما الشام فبحيرة قدس بحمص، وبحيرة فامية وبحيرة دمشق.

وبحيرة طبرية ودَوْرُها ثلاثة وثلاثون ميلاً ومصبُّ الماء إليها من حولة بانياس، ويخرج منها النهر المعروف بالأردن، ويمرُّ من الغُور إلى بحيرة زَغَر من أرض الكَرَك. وقال الجوهري: والأردنُ اسم نهرٍ وكورة بأعلى الشام، قال: والأردن أيضاً - بالضم والتشديد - النعاس^(٣).

وذكر جدي رحمه الله في «المنتظم»: أن بحيرة طبرية تصبُّ في نهر أنطاكية. والظاهر أنه قلَّد من لا يعرف، وأين بحيرة طبرية وأنطاكية؟! بحيرة طبرية في الشام الأسفل، وأنطاكية في الشام الأعلى، وإنما يصبُّ نهر أنطاكية في بحيرة فامية.

(١) «تاريخ بغداد» ٥٧/١ - ٥٨، قال ابن عدي في الكامل ٢٣١٦/٦ بعد إخراجه مع حديث آخر: وهذان الحديثان جميعاً غير محفوظين بل هما منكرا المتن.

(٢) اسم بلدة.

(٣) «الصحاح»: (ردن).

ومنها بحيرة تَنيس عند دِمياط، وكانت قَرْى ومزارع لم يكن بمصر مثلها، فغلب عليها ماء البحر.

فصل في أنهار الشام

أما دمشق فأصل مياهها بردى وعين الفَيْجَة، يجتمع بردى عند عين الفَيْجَة ثم ينحدر إلى قرية يقال لها: الهامة، فينفصلُ منه نهر يزيد، ويمتد في قاسيون وينتهي إلى دُومَة، وقد كان يمتد في الزمان القديم إلى الماطرون، وذَنَبَة والقناطر في لحفِ الجبل باقيةً إلى الآن وكذا الآثار، وهو منسوب إلى يزيد الرومي، فأما يزيد بن معاوية فإنه وسَّعه وعمَّقه فنسب إليه.

وأما ثُورا فيأخذ من فوق الرِّبوة ويمتد إلى قريب القُصير، ويقال: إنَّ عليه ثلاث مئة وستين ماصية.

وباناس وهو نهر الجامع، والقنوات ونهر المِزَّة وقناتها، ويتفرع من هذه أنهار عدة. وأما العاصي: فأصله من جبل لبنان، ومن قرية يقال لها: اللبوة، ثم ينزل الماء إلى بحيرة قَدَس، ويخرج العاصي منها فيمر بأرض حمص وحماة وشيْزَر وفامية، ثم يصب في البحر الرومي قريباً من أنطاكية، وقيل: إنما سمي العاصي، لأنه يجري على غير القبلة، ومسافة جريانه ثلاثة أيام.

ومنها قُويِّق: نهر حلب، يخرج من قرية يقال لها: سينات^(١)، على سبعة أميال من حلب، ثم يمر على حلب وقنسرين، وينتهي إلى المرج الأحمر، وماؤه موصوف بالرقَّة والخفة، وقيل: إن أوله وَخِم فإذا امتدَّ طاب.

فصل في أنهار الجزيرة

منها: البليخ بين حرَّان والرَّقة، ويقال: إن الخليل عليه السلام نزل بذلك المكان وقال له: أبلخ، فتفجَّر، وعنده مقام إبراهيم، وكانت عليه منازل الوليد بن عقبة بن أبي معيط.

(١) في «معجم البلدان» ٤/٤١٧: «سبتات»، وقال: سألت عنها بلحب، فقالوا: لا نعرف هذا الاسم إنما أخرجه من شنادر، قرية على ستة أميال من دابق، وفي الروض المعطار ٤٨٦، وبغية الطلب ١/٣٤٧: سنياب.

ومنها: الجلاب نهر حرّان، وماؤه خفيف، ويقال: إن أوله وَخِمٌ ثم يصحُّ، وأوله من عين ببلد الرُّها.

ومنها: الهرّماس وهو نهر نصّيين، ويقال: إنه يسقي ثلاثين ألف بستان، ومبدؤه من جبل نصّيين.

ومنها: الخابور، وهما خابوران: خابور رأس العين، ويمتد منها إلى الفرات فيصب فيها تحت قَرْقِيسيا، وعليه المجدل وقرى كثيرة غيرها، وأما الخابور الثاني: ففي ديار بكر عند قَرْدَى وبازْبَدَى، وهي ديار بني حمدان الذين ملكوا الموصل والجزيرة، ومخرجه من بلاد أرمينية ويصب في دجلة، وماؤه عذب، قال الشاعر [من الطويل]

بَقَرْدَى وبازْبَدَى مَصِيفٌ وَمَرْبَعٌ وعذب يُحاكي السَّلسبيلَ برودُ
وبغدادُ ما بغدادُ أَمَّا تُرابُها فجمٌّ وأما حرُّها فشديدُ

فصل في أنهار العراق

حكى الخطيب عن الأوائل أن ملوك الأردوان وهم النبط، كانوا في السواد قبل فارس، وهم الذين استنبطوا المياه وحفروا الأنهار العظام بالعراق وصرفوا دجلة والفرات بالسكور وقسموا المياه، ويقال لهم: ملوك الطوائف^(١). وإنما سموا نبطاً، لأنهم أنبطوا المياه، أي: استخرجوها، وذكرهم الجوهري فقال: النبط والنبيط قوم ينزلون بالبطائح بين العراقيين^(٢).

وقال ابن قتيبة: ملكوا العراق ألف سنة.

وقال ابن المنادي: كان ملكهم من عانات وكور دجلة والبصرة، وكانوا يصرفون الفرات ودجلة كيف ما شاؤوا، وما فضل يصرفونه إلى البحر الشرقي فلهذا سُموا نبطاً. وحكى الخطيب عن الهيثم بن عدي، عن عبد الله بن عياش المنتوف قال: كان حدُّ

(١) «تاريخ بغداد» ٥٦/١-٥٧.

(٢) «الصحاح»: (نبط).

مُلْكِ النَّبْطِ الْأَنْبَارِ إِلَى عَانَاتِ كَسْكَرٍ إِلَى مَا وَالَاهَا مِنْ كُورِ دَجَلَةَ إِلَى جَوْخَى^(١) والسَّوَادِ، وَكَانَ فِي أَيْدِي النَّبْطِ سُرَّةَ الدُّنْيَا، وَكَانَتِ الْفَرَاتُ وَدَجَلَةُ لَا يَنْتَفِعُ بِهِمَا حَتَّى يَأْتِيَانِ بِلَادَهُمْ فَيَفْجَرُونَهُمَا فِي كُلِّ مَوْضِعٍ وَيَسُوقُونَهُمَا إِلَى الْبَحْرِ، وَحَفَرُوا الصَّرَاةَ الْعَظْمَى وَنَهْرَ سُورَا.

وَقِيلَ: إِنَّمَا حَفَرَ الصَّرَاةَ مَلُوكُ فَارَسَ، ثُمَّ وَلِيَتِ الْفَرَسَ فَحَفَرُوا الْأَنْهَارَ، مِثْلَ نَهْرِ الْمَلِكِ، وَالْخَالِصِ، وَدَيَّالِي، وَفَمِ الصَّلْحِ، وَالنَّيْلِ.

وَقِيلَ: إِنَّمَا حَفَرَ نَهْرَ الْمَلِكِ أَقْفُورُ شَةَ آخِرَ مَلُوكِ النَّبْطِ، وَمَلَكَ مِئْتِي سَنَةٍ^(٢).

وَقِيلَ: إِنَّمَا حَفَرَهُ سَلِيمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَقِيلَ: إِنَّمَا حَفَرَ فَمَ الصَّلْحِ خَالِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِي، وَفَمِ الصَّلْحِ أَقْطَعَهُ الْمَأْمُونُ الْحَسَنُ بْنُ سَهْلٍ.

وَأَمَّا النَّيْلُ الَّذِي بِأَرْضِ الْعِرَاقِ، فَيُقَالُ: إِنَّ الْحِجَابَ حَفَرَهُ، وَهُوَ قَرِيبٌ مِنْ وَاسِطٍ. وَاخْتَلَفُوا فِي الَّذِي حَفَرَ نَهْرَ عَيْسَى الَّذِي يَأْخُذُ مِنَ الْفَرَاتِ وَيَصُبُّ بِبَغْدَادَ، وَعَلَيْهِ الْمُحَوَّلُ وَغَيْرُهَا، عَلَى أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا سَلِيمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالثَّانِي: أَقْفُورُ شَةَ آخِرَ مَلُوكِ النَّبْطِ، وَالثَّلَاثُ: مَلُوكُ الْفَرَسِ، وَقِيلَ: عَيْسَى بْنُ عَلِيٍّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ، وَلَيْسَ كَمَا قِيلَ، وَإِنَّمَا بَنَى عَلَيْهِ قَصْرًا فَأَضْيَفَ إِلَيْهِ.

فَأَمَّا الصَّرَاةُ فَقَدِيمَةٌ أَيْضًا، وَقَالَ الْجَوْهَرِيُّ: وَالصَّرَاةُ - بِالْفَتْحِ - نَهْرٌ بِالْعِرَاقِ وَهِيَ الْعَظْمَى وَالصَّغْرَى، وَصَرِيَّ الْمَاءِ إِذَا طَالَ مَكْنُهُ وَتَغَيَّرَ^(٣).

وَأَمَّا دُجَيْلٌ فَاخْتَلَفُوا فِيهِ، قَالَ الْهَيْثَمُ بْنُ عَدِيٍّ: أَمَرَ سَلِيمَانُ الشَّيَاطِينَ فَحَفَرْتَهُ وَأَلْقَتْ تَرَابَهُ بَيْنَ قَصْرِ شِيرِينَ وَخَانِقِينَ، وَقِيلَ: إِنَّ بَعْضَ مَلُوكِ الْفَرَسِ حَفَرَهُ.



(١) فِي (ب): «خَوْصَا».

(٢) «تَارِيخُ بَغْدَادَ» ٥٧/١.

(٣) «الصَّحَاحُ»: (صَرِي).

فصل في ذكر ما في الدنيا من العجائب وما أودع فيها من الغرائب^(١)

فصل في عجائب المشرق

ذكر العلماء بأخبار العالم أن بالهند عجائب:

منها: هيكل عظيم من أعظم الهياكل، يقال له: بلاذري، مستدير الشكل، له سبعة أبواب وفيه قبة شاهقة في الهواء على سبعة أعمدة، وفي رأسها جوهرة بمقدار رأس الفحل، تضيء منها جميع أقطار ذلك الهيكل، وأن جماعة من الملوك حاولوا أخذ تلك الجوهرة فهلكوا، وكلُّ مَنْ دنا منها خَرَّ ميتاً. وفي القبة صنم من ذهب وزنه مئة ألف مثقال تزعم الهند أنه نزل من السماء، يقصدونه من الآفاق، وكلُّ مَنْ تعرَّض لهذا الهيكل مات. وأساسه من حجارة المغناطيس، وبني على سير الكواكب السبعة بالحركات السماوية. وفيه بئر عليها طوق من الحديد الصيني، مكتوب عليه بالقلم المسند: «هذه البئر فيها علوم السماوات والأرض وما مضى وما يأتي، وفيها خزائن لا يصل إليها من العالم إلا من وازت قدرته قدرتنا واتصل علمه بعلمنا وساوت حكمته حكمتنا»، وكل من نظر في البئر وقع على أُمِّ رأسه ميتاً، وكلُّ من نظر إلى هذا الهيكل خاف وارتعد وضعف قلبه في أول وهلة، وعلى هذا الهيكل أوقاف كثيرة منها مدينة برسداقها، وحول هذا الهيكل ألف مقصورة فيها جواري لمن يقدم زائراً لهذا الهيكل يتمتع بهن.

ومنها: غدير عظيم في مملكة المهرج، عليه قصرٌ شاهقٌ في الهواء، ويتصل بخليج إلى البحر من خلجان الزَّابج، والغدير مملوءٌ لبناً من ذهب، وكلُّ ملكٍ يلي أمر المهرج يضرب كل يوم لبناً ويلقيه فيه، وهذا الخليج يمد ويجزر كلَّ يوم، فإذا جزر ظهر اللبن يقابله شعاعُ الشمس يلمعُ الغدير لمعاناً تبرق منه الأبصار، فإذا مات الملك وقام بعده آخر جمع ما في الغدير من اللبن وفرَّقه في أهل المملكة، في الخواص أولاً ثم في العوام، فإن فضل شيء فرَّقه في المساكين، ثم يكتب عدد اللبن ووزنه في اللوح، وأن

(١) انظر «كنز الدرر» ٢٠٩/١.

فلاناً عاش في الملك كذا وكذا سنة، وخلف في غدير الذهب كذا وكذا لبنة. وكانوا يتوارثون ذلك ويفتخرون بمن تطول أيامه ويكثر لبنه.

ومنها: أظمة^(١) بساحل الهند بين مملكة شروان والمهراج، يخرج منها نפט أبيض وليس في العالم نפט أبيض سواه، وعندها نار لا تخدم ليلاً ولا نهاراً، وليس في آطام الأرض أعظم منها، وتضيء في الليل منها نارٌ تُرى في البحر الشرقي من مئة فرسخ، وتقذف بجمرٍ كالجبال وقطع من الصخور في الهواء، ثم تنعكس سفلاً فتُهوي في قعرها وهي سود وحمرة لما نالها من الحرارة. وقال الجوهري: والأظم^(٢) مثل الأجم - جمع أجمة.

ومنها: بطة من نحاس على عمود من نحاس بين الهند والصين في أرضٍ يقال لها: كثار. حكى جدي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: إذا كان يوم عاشوراء مدّت عنقها إلى نهر تحتها فتشرب منه ثم تعود إلى مكانها وتفتح منقارها فيفيض منه من الماء ما يكفي ساكني تلك البلاد وزروعهم ومواشيهم إلى مثل عاشوراء مثل ذلك اليوم في السنة القابلة^(٣).

ومنها: قنطرة بين السوس وجندي سابور، ذكرها في «المسالك» وقال: هي على وادي منه أنهار جندي سابور والسوس، وطول القنطرة أربع مئة ذراع بناها سابور، وأساسها في الأرض ثلاثون ذراعاً، وارتفاعها في الهواء مئة ذراع، وبين صخورها الرصاص مصبوب، وفيها نيف وعشرون طاقاً، كلّ طاقٍ عشرة أذرع، يخرج من تحت القنطرة نيف وثلاثون نهراً تسقي رستاق السوس وجندي سابور ولا ينقص الماء^(٤).

ومنها: ما ذكره ابن حوقل في «صفة الدنيا» فإنه قال: الخزر اسم إقليم، وقصبتها تسمى: إتل، وإتل أيضاً اسم النهر الذي يجري إليها من الروس وبلغار ويصب في بحر الخزر، وقد ذكرناه، واسم ملكهم أيضاً إتل، وقصره مبني بالجص والآجر، ولا يسمح

(١) الأظمة مثل الأجمة: الحصن. «تاج العروس» (أظم).

(٢) في (ب) و(ل): والأظمة، والمثبت من (ط) و«الصالح»: (أظم).

(٣) «المنتظم» ١/ ١٦٤-١٦٥، و«التبصرة» ٢/ ١٨٩.

(٤) «المسالك والممالك» ص ٤٣.

لأحد من رعيته في البناء بهما، وهو يهودي وعسكره اثنا عشر ألفاً كلهم يهود، وحاشيته أربعة آلاف، وفي بلاده مسلمون ويهود ونصارى ومجوس وعبداء الأوثان، وللملك سبعة من الحكام من هذه الأصناف التي ذكرنا يقضون بين الناس ولا يصل أحد إلى الملك إلا في النادر.

وذكر ابن حوقل حكاية طويلة اختصرتها، حاصلها: أن رجلاً وُلِدَ له ولد، وكان له غلامٌ يتَّجر بماله، فمات الرجل وتنازع الولد والغلام في المال، فالولد يقول: هو مال أبي، والغلام يقول: بل المال لي والرجل أبي، وأقاما يتحاكما عند الحكام سنةً، وأقام كل واحدٍ منهما البيعة، ومن عادتهم إذا امتدت الحكومة سنةً ولم تنفصل حالٌ تولَّى الملك الأمر بنفسه، فأحضرهما الملك وأعيدت عليه الدعاوى، فلم يجد ما يقتضي الترجيح بين البيعتين فأفكر ساعةً وقال للابن: أتعرف قبر أبيك؟ فقال: كنت غائباً لما مات، ولما قدمتُ قالوا: هذا قبر أبيك، فقال للغلام المدَّعي البتوة: أتعرف قبر أبيك؟ قال نعم: أنا توليتُ دفنه، فقال عليّ برمةً منه - رمة بكسر الراء: عظم بال - فأحضرت، فقال: افصدوا الغلام على هذه الرمة ففصدوه فكان الدم يحيد عنها يميناً وشمالاً لا يعلّق بها منه شيء، ثم قال: افصدوا الابنَ عليها، ففصدوه فعلق الدم بالرمة وشربته جميعه، فسلم المال إلى الابن وأدب الغلام ونكّل به^(١).

فصل في عجائب العراق

حكى جدي رحمه الله عن حميد الدّهقان، دهقان^(٢) الفلوجة السفلى، قال: كان ببابل سبع مدائن، في كل مدينة أعجوبة ليست في الأخرى. فكان في المدينة الأولى هيئة مثال الأرض كلها وفيها صورة أنهارها، فإذا التوى بعض أهل المملكة خرق أنهارها فغرق أهلها فلا يستطيعون سداً حتى يطيعونه وينقادون إليه.

(١) «صورة الأرض» ص ٣٣٠-٣٣٢.

(٢) الدهقان: - بالكسر والضم - رئيس الإقليم، ومقدم قرية وصاحبها في خراسان والعراق. «تاج العروس» (دهقان).

وكان في المدينة الثانية حوضٌ من رخام، فإذا أراد الملك أن يجمعهم لطعامه يأتي منهم من أراد بما يحب من الأشربة فيصبونه في الحوض فيختلط الجميع، ثم يقوم السقاة فيصبونه في الأواني، فمن صُبَّ في إنائه شراب كان شرابه الذي أتى به.

وكان في المدينة الثالثة طبل إذا غاب أحدٌ من أهلها غيبةً منقطعة وأرادوا أن يعلموا أحيي هو أو ميت ضربوا الطبل، فإن صَوَّتَ فهو حي، وإن لم يصوَّت فهو ميت.

وكان في المدينة الرابعة مرآة من حديد إذا غاب رجل وأراد أهله أن يعلموا الحالة التي هو عليها نظروا في المرآة فأبصروه على ما هو عليه.

وكان في المدينة الخامسة إوزة من نحاس على بابها، فإذا دخل المدينة غريبٌ صَوَّتَتْ صوتاً يسمعه أهل البلد فيعلمون أن قد دخلها غريب.

وكان في المدينة السادسة قاضيان جالسان على الماء، فإذا تقدم إليهما خصمان يمشي المحقُّ على الماء ويغوص المبطل.

المدينة السابعة كان فيها شجرة عظيمة، فإن جلس تحتها ألف رجلٍ أظلمت، وإن زادوا واحداً جلسوا كلهم في الشمس^(١).

ومن عجائب العراق إيوان كسرى، وسنذكره في سير الأكاسرة.

فصل في عجائب المَوصل

في أرض الموصل جبل قريب منها من ناحية المشرق عليه ديرٌ يقال له: دير الخنافس، للنصارى فيه عيد في ليلة من السنة، حكى لي جماعة من أهل الموصل قالوا: تصعد إليه جميع الخنافس التي في الدنيا، ويبعث فيه ألوفٌ من الناس يمشون عليها طول الليل^(٢)، وكذا الدواب، فإذا طلع الصباح لم يوجد للخنافس أثر، وبأرض الغرب مثله.

(١) «المنتظم» ١/١٦٧.

(٢) في (ب): «الليل كله».

فصل في عجائب اليمن

ذكر النُوبختي قال: ما بين الشَّحْر وَحَضْرَمَوْت رجلٌ من نحاسٍ على عمود من نحاسٍ مَدًّا يده إلى وراء كأنه يشير إلى أنه ليس وراءه مسلك. وهي أرض رجراجة لا تستقيم عليها الأقدام، يقال: إن ذا القرنين وصل إليها فخرج عليهم نملٌ كالبخاتي فكانت النملة تصرع الفارس، فرجع، وقد حكاه جدي عن عبدالله بن عمرو بن العاص^(١).

ومنها: وادي بَرَهَوْت بحضرموت، وفيه جُبٌّ فيه أرواحُ الفَجَّار، وفي هذا الوادي أطمَةٌ تقذفُ بالجمر، كالتي في الهند.

وحكى جدي رحمه الله تعالى في مجالس وعظه، وقد سمعته، وذكرها في بعض مصنفاته وقال: قدم بغدادَ رجلٌ من خراسان حاجًا وكان معه مالٌ، فأودع بعضه عند بعض الزهاد ومضى إلى الحج، فلما عاد وجد الزاهد قد مات، فسأل أهله هل أوصى بمالٍ؟ قالوا: لا، فاهتمَّ فسأل بعض العلماء عن الطريق إلى كشف الحال، فقال له: ما ثمَّ إلا أن ترجعَ إلى مكة وتقفَ على زمزم وتنادي باسمه يا فلان، فإن أجابك، وإلا فاذهب إلى بَرَهَوْت، فيه بئر فيها أرواحُ الفَجَّار، وفي زمزم أرواح المؤمنين. فرجع الرجل إلى مكة ووقف على زمزم ونادى يا فلان، فلم يجبه، فخرج إلى اليمن ووقف على وادي بَرَهَوْت وناداه، وإذا هو جُبٌّ عميق مظلم يطلع منه الدخان واللهب، فأجابه وقال: لبيك. فقال: وأين مالي؟ قال: تحت الدرجة الفلانية، اذهب إلى أولادي وعرفهم فهم يعطونك إياه، فقال: ألسنَ الزاهد العابد، فما الذي أوقعك ها هنا؟ فقال: كانت أعمالي لغير الله تعالى. وعاد الرجل إلى بغداد، وعرف أهله، فحفروا المكان وأعطوه إياه.

فصل في عجائب الشام ومصر والمغرب

حكى عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: من عجائب الدنيا حمَّام طبرية

(١) حكاه ابن الجوزي في «التبصرة» ١٨٩/٢، وانظر «المنتظم» ١٦٤/١.

ومنارة الإسكندرية.

وقال آخر: نهر الذهب وجبُّ الكلب وقلعة حلب، فأما جب الكلب فيقال: إنه في الروم، وماؤه يبرئ من الكَلْب، وأما نهر الذهب فيقال: هو نهر بُزاعة فإنه يسقي البساتين والأراضي وما يفضل منه يصير في البرية ملحاً.

ومنها: بمصر بئر البلسم التي تسقي شجر دهن البَلْسان.

ومنها: الهَرَمَان، وسُمُّك كلِّ واحد منهما خمس مئة ذراع في ارتفاع مثلها، وكلما ارتفع البناء، دقَّ رأسها حتى يصير مثل مفرش حصير، وهما من الممر، وعليهما جميع الأقلام اليونانية والعبرانية والسُّريانية والمسندية والحميرية والرومية والفارسية.

وحكى بعض علماء مصر قال: إنهم حلوا بعض الأقلام فوجدوه: «إني بنيتها بملكي، فمن ادَّعى قوةً فليهدمها، فإن الهدم أيسر من البناء».

وحكى جدي عن ابن المنادي في «المنتظم» أنه قال: فحسبوا خراج الدنيا مراراً فلم يف بهدمها^(١).

قلت: وقد وهم ابن المنادي، فإن صلاح الدين رحمه الله أمر أن تؤخذ منها حجارةً يبنوا بها قنطرة، فهدموا منها شيئاً كثيراً فبنوا جسراً قريباً منها يُمشى عليه في زمان زيادة النيل إلى الإسكندرية، وهو جسرٌ عظيم تولى عمارته قراقوش الخادم.

وإنما في هدمها كلفةٌ لكونِ الحجارة ذكراً في أنثى، وقد شاهدتُ الهرمين مراراً، وأحدهما مسدودٌ والآخرُ فيه بابٌ تدخلُ الناسُ فيه، وحكى لي مَنْ دخله أنه وجد فيه قبراً وأن فيه مهالك، وربما خرج منه الإنسان في سراديب إلى الفيوم، والظاهر أنها قبور الملوك الأوائل وعليها أساميهم وأسرارُ الفلك والسحر وغير ذلك.

واختلفوا في مَنْ بنى الأهرام، قال بعضهم: يوسف الصديق، وقال آخرون: بناها نمرود، وقيل: دلوكة الملكة، وقال قوم: إنما بناها القبط قبل الطوفان، وكانوا يرون أنه كائن، فبنوها ونقلوا ذخائرهم إليها، وجاء الطوفان فما أغنى ذلك عنهم شيئاً، وقيل: إنه لا يُعرف من بناها، وهو الظاهر.

(١) «المنتظم» ١/١٦٦.

وحكى بعض شيوخ مصر: أنَّ بعض من يعرف لسان اليونان حلَّ بعض الأقلام التي عليها ونقلها إلى العربية فإذا هي: «بناء هذان الهرمان، والنسر الواقع في السرطان» قال: ومن ذلك الوقت إلى زمان نبينا محمد ﷺ ستة وثلاثون ألف سنة، وقيل: اثنان وسبعون ألفاً.

وقيل: إن القلم الذي عليهما تاريخه قبل بناء مصر بأربعة آلاف سنة، ولا يعرفه أحد. وحكي لي أنه قيس عرض الهرم الشرقي فكان خمس مئة ذراع، وسطحه تسعة أذرع، وطوله في الهواء ستة وخمسون ذراعاً، وهو مئة وثمانون صفاً، كل حجر عرضه ثلاثة أذرع، وعرض الهرم الغربي أربع مئة وستون ذراعاً، وبالقرب منهما صخرة عظيمة قد صوروا منها رأس آدمي سموه: أبا الهول، وحولها أهرام صغار.

ويقال: إن ملك اليونان واسمه: سوريد بن سهلوف رأى في منامه كأن الأرض انقلبت والكواكب تتساقط، ولها أصوات منكرة، فهاله ذلك، فجمع حكماءه وأخبرهم، فقال واحد: لا بدَّ من هولين عظيمين يحزن منهما العالم، أحدهما ناري والثاني مائي، فأمر ببناء الأهرام ونقل إليها علومهم وكنوزهم، وجعل عمقها في الأرض كارتفاعها في الهواء، فإن كانت الآفة مائيةَّ صعدوا إلى أعلاها، وإن كانت ناريةً نزلوا إلى أسفلها إلى السرايب. وصوِّر فيها الكواكب والبحورات والروحانيات والأقلام وصوِّر العقاقير وغيرها.

وكان كلما مات حكيم جعلوا كتبه عند رأسه، وكانوا يقولون بالرجعة. وجعلوا باب الهرم الشرقي من ناحية الجنوب في الأرض بأزج معقود طوله مئة وخمسون ذراعاً، وباب الغربي من الشمال كذلك. وقيل: ابتداء بنائها والنسر الطائر في الحمل.

ولما تمَّ بناؤها ذبحوا لها الذبائح وكسوها الديباج، وكتبوا على ظاهرها: «نحن بيناها في ست سنين فاهدموها في ستين سنة». ووجدوا فيها دنانير وزن كل دينار أوقية^(١).

(١) في (ب): «دنانير وزن أوقية».

وقيل : إن روحانيَّ الهرم الشرقي في صورة امرأة عريانة لها ذوائب ، فإذا أرادت أن تستهوي أحداً ضحكت ودعته إلى نفسها ، فيدنو منها فيهم على وجهه فيهلك ، وقد رآها جماعة تدور حول الهرم وقت القائلة.

قالوا : وروحانيُّ الهرم الغربيُّ غلام أمرد عريان أصفر اللون ، وقد رؤي وقت المغرب وهو يدور حول الهرم. وهناك هرم مُلَوْن وروحانيُّه شيخٌ نوبي عليه بُرْطُل^(١) وبيده مبخرة ، وقد رُؤي ليلاً حول الهرم.

ولما ملك ابن طولون^(٢) مصرَ حفر على أبواب الأهرام فلم تعرف ، فوجدوا في الحفر قطعة مرجان مكتوب عليها سطور باليوناني ، فأحضر من يعرف ذلك القلم ، وإذا هي أبيات شعر فترجمت فكان فيها :

أنا بانيُّ الأهرام في مصرَ كلها	ومالكها قدماً بها والمقدَّم
تركْتُ بها آثارَ علمي وحكمتي	على الدهر لا تبلى ولا تتشَلَّم
وفيها كنوزٌ جمَّةٌ وعجائبٌ	وللدهرِ لينٌ مرةً وتهجُّمٌ
وفيها علُومي كلُّها غيرَ أنِّي	أرى قبلَ هذا أن أموت فتعلمُ
سَتُفْتَحُ أقفالي وتبدو عجائبي	وفي ليلةٍ في آخرِ الدهرِ تنجم
ثمانٍ وتسعٍ واثنتانِ وأربعُ	وتسعون من بعد المئين تسلم
ومن بعد هذا جزء تسعين برهة	وتلقى البرابي تستحِرّ وتهدم
تدبِّرُ مقالي في صخورٍ قطعها	بسيفي وأفنى قبلها ثم تُعَدَم

فجمع ابن طولون الحكماء وأمرهم بحساب هذه المدة فلم يقدروا على تحقيق ذلك فيئس وزال الطمع.

ومنها : المطالب ، وهي كثيرة بمصر ، إلّا أنَّ الغالبَ عليها أنَّ لها طِلسماتٍ تمنع من الوصول إليها.

وحكى الهيثم بن عدي وغيره ، أنَّ رجلاً جاء إلى عبد العزيز بن مروان وهو على

(١) البرطُل : القلنسوة. «القاموس المحيط» : (برطل).

(٢) كان تملك أحمد بن طولون مصر سنة (٢٥٤) هـ كما سيذكر ذلك المصنف.

مصر من قبل أبيه مروان بن الحكم، فقال له: أيها الأمير إني قد وجدت كتاباً قديماً يشير إلى بعض الأماكن، أن فيه كنزاً فيه أموالٌ وجواهر لا تحصى، فخرج معه إلى ظاهر مصر على أميال، وجاء به إلى تلٍّ عظيم فقال: تحت هذا التلِّ، فقال: ومن أين لك هذا؟ فقال: إذا كشفنا هذه التلِّ ظهر لنا بلاطٌ مختلفُ الألوان، ثم نحفر فيظهر لنا بابٌ من الصُّفْرِ فيه المطلب، فأزالوا بعضَ التلِّ فظهر البلاط والباب، فأزالوا عنه التراب وإذا عليه أقفالٌ عجيبَةٌ، فعالجوها حتى فتحوها، فإذا بدرجٍ يأخذ إلى بهوٍ عظيم فيه قناطر ومجالس عليها أبواب الذهب مرصعة بالجواهر، وفيها من الأموال والياقوت والجوهر ما لا يحصى، وإذا بالدرج من نحاس مشبك، وفي أول درجة عمودٌ من ذهب، وفي أعلاه ديك عيناه ياقوتتان تساويان خراج الدنيا، وجناحاه من زمرد، فضرب بعضهم رأس الديك فلمع شيء كالبرق الخاطف، وهو ما في عيني الديك من الياقوت فبانت الدرج بأسرها والبهو، فبادر واحدٌ فوضع قدمه على أول درجة، فلما استقرت قدماه عليها ظهر سيفان عظيمان عاديان من عن يمين الدرجة وشمالها، فالتقيا على الرجل فقداه نصفين، فأهوى جسمه على الدرج، فلما استقرَّ على بعضها اهتزَّ العمود وصَفَر الديك صفرةً عظيمةً أسمعت من كان بعيداً، وحَرَكَ جناحيه، وظهرت أصواتٌ مزعجة قد عملت على الكواكب بالحركات ينزعج لها السامع، وتقدم آخر فالتقت عليه السيفان فقدته نصفين، ثم آخر وآخر حتى قتلت ألف رجل، فقال عبدالعزیز: حسبنا، هذا أمرٌ لا يُدْرَك ولا يوصلُ إليه، ثم أمر بردَّ الترابِ على الموتى فكانت الحفيرةُ قبورهم.

ومنها: جبل الطير بصعيد مصر، فيه شقٌّ، فإذا كان يومٌ مُعَيَّن من السنة جمع عنده زرايزر الدنيا، فيأتي كلُّ زَرزور فيدخل منقاره في الشقَّ ثم يخرج به ويطير، ويأتي آخر فيفعل كذلك، طولَ النهار يأتي زَرزور ويذهب زَرزور إلى وقت الغروب، فيأتي آخر الزرايزر فيدخل منقاره في الشقَّ فينضمُّ عليه ويبقى معلقاً طول العام إلى ذلك اليوم، فينفتح الشقَّ ويسقط ذلك الزرزور ويأتي غيره.

ومنها: عمود السواري بالإسكندرية، وليس في الدنيا مثله، وقد شاهده، ويقال: إن أخاه بأسوان.

ومن عجائب المغرب: نار في جزيرة صقلية تشتعل فيها حجارة ولا تمكن أحداً من الوقود منها، قالوا: وليس بصقلية نملة.

ومنها حجارة بالقيروان تقذفها النيران بالليل، وفي النهار دخان، وهي في جبل يقال له: البركان.

ومنها: بيتان بالأندلس يعرفان بالملوك، فلما فتحت الأندلس في زمان الوليد بن عبد الملك بن مروان وجدوا هذين البيتين، ففتحوا أحدهما فإذا فيه أربعة وعشرون تاجاً، على كل تاج اسم صاحبه مكتوبٌ عليه ومبلغُ سنّهِ، وما ملك من السنين، ووجدوا فيه مائدة سليمان عليه السلام وهي من الذهب، وقيل من الياقوت، وعليه أطواق الجواهر الثمين، فحملت إلى الوليد، ووجدوا على باب البيت الآخر أربعة وعشرين قفلاً، كان كلّما ملك واحدٌ منهم تلك البلاد زاد قفلاً، ولا يعلمون ما في البيت، فقال لهم بعض الرهبان: إنّ آخر ملوك الأندلس يُفْتَحُ على يديه، قالوا: لا بد من فتحه، فنهاه الحكماء فخالفهم وفتحوه، فإذا رجال من العرب قد صوّروا على خيولهم، وعليهم العمام والأسلحة، فدخلت العربُ جزيرة الأندلس في السنة التي فتح فيها الباب.

ومنها: ما حكاه جدي عن عبدالله بن عمرو بن العاص في «كتاب التبصرة» قال: ومن العجائب سوداني من نحاس على قضيب من نحاس على الباب الشرقي برومية، فإذا كان أوانُ الزيتون صَفَّرَ ذلك السوداني فلا تبقى سودانية تطير إلا جاءت بثلاث زيتونات: زيتونة في منقارها وزيتونتان في رجليها، فألقته على ذلك السوداني، فيحمله أهل رومية فيعصرون منه ما يكفيهم لِسُرْجِهِمْ وإدامهم إلى العام المقبل^(١).



(١) «التبصرة» ٢/ ١٨٨-١٨٩.

فصل في الطبائع

قال علماء الأوائل: العالم وما فيه أربعة أجزاء:

فالربع الأول: المشرق، وجميع ما فيه حارّ رطب، وله الهواء والدم، وله ريح الجنوب، وزمانه ربيع، ويختص من الكواكب بالقمر والزهرة، وله من البروج الحمل والثور والجوزاء.

والربع الثاني: المغرب، وجميع ما فيه رطب، وله الماء والبلغم، وله من الريح الدبور، وله الشتاء، ومن الكواكب عطارد والمشتري، ومن البروج الجدي والدلو والحوث.

والربع الثالث: اليمن، وجميع ما فيه حارّ يابس، وريحه الصبا، وله المزة الصفراء والصيف، ومن الكواكب الشمس، ومن البروج الأسد والسرطان والسنبلة.

والربع الرابع: شمالي^(١) له ريح الشمال، وله الخريف، ومن الكواكب زحل والمريخ، ومن البروج الميزان والعقرب والقوس.

قلت: وهذا تقسيم بعض الأوائل، والأصح أن الشمس تختص بالمشرق، وكذا المريخ يختص بالترك، وأن العقرب يختص بأرض الحجاز.

قالوا: والطبائع أربع: فالأولى: طبيعة النار، وهي حارة يابسة، والثانية: طبيعة الهواء، وهي حارة رطبة، والثالثة: طبيعة الماء، وهي باردة رطبة، والرابعة: طبيعة الأرض، وهي باردة يابسة، فائتان منها يذهبان الصعداء وهما النار والهواء، واثنان يرسبان سفلاً وهما الأرض والماء.



(١) جاء بعدها في «كنز الدرر» ٢٢٩/١: «وجميع ما فيه يابس، وله التراب وله المرة السوداء».

فصل

في ذكر سكانها وما ورد في قطانها^(١)

روى مجاهد عن ابن عباس قال: كان في الأرض أمم قبل آدم أيضاً^(٢).
وقال الجوهري: الحنُّ حيٌّ من الجن، قال: ويقال الحنُّ خلق بين الإنس والجن^(٣).

وروى مقاتل عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال: أول من سكن الأرض أمة يقال لهم: الحنّ والبن، ثم سكنها الجنّ، فأقاموا يعبدون الله تعالى زماناً، فطال عليهم الأمد فأفسدوا، فأرسل الله إليهم نبياً منهم يقال له: يوسف، فلم يطيعوه وقتلوه، فأرسل الله الملائكة فأجلت بهم إلى البحار، وكان مدة إقامتهم في الأرض ألف عام^(٤).
قلت: وقد ضعّف العلماء روايات مقاتل، فإن الله تعالى لم يبعث نبياً قبل آدم، وإنما قيل: بأن يوسف كان ملكاً لهم فعصوه.

حدثنا عبد القادر الرُّهاوي بإسناده عن وهب بن منبه عن سعيد بن المسيب عن عبدالله بن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ بِالْمَغْرِبِ أَرْضاً بِيضَاءَ تَسِيرُ الشَّمْسُ فِيهَا أَرْبَعِينَ سَنَةً، بِهَا أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ لَمْ يَعْصُوا اللَّهَ طَرْفَةَ عَيْنٍ» قالوا: يا رسول الله، فأين الشيطان منهم؟ قال: «مَا يَدْرُونَ هَلْ خُلِقَ الشَّيْطَانُ أَمْ لَا» قالوا: فمن بني آدم هم؟ قال: «مَا يَدْرُونَ خُلِقَ آدَمُ أَمْ لَا»^(٥).

قلت: والأصح أنه موقوف على ابن بريدة عن أبيه.



(١) انظر «كنز الدرر» ١/ ٢٣٠.

(٢) في «كنز الدرر»: «كان في الأرض أمم قبل الحن والبن فانقرضوا، وقبل آدم أيضاً».

(٣) «الصحاح»: (حنن).

(٤) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ٥٨، عن ابن عباس، ولم يذكر فيه: الحن والبن، وانظر «المنتظم» ١/ ١٦٩.

(٥) وأخرجه - أيضاً - أبو الشيخ في «العظمة» (٩٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فصل

في ذكر من ملكها، وقطع سبلها وسلكتها

حدثنا عبد العزيز بن محمود البزار بإسناده عن سعيد بن المسيب، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ملك الأرض أربعة: مؤمنان وكافران، فالمؤمنان ذو القرنين وسليمان، والكافران نمرود وبختنصر، وسيملكها خامس من أهل بيتي»^(١). وقيل: إنه موقوف على ابن عباس، والمراد به العمران من الأرض، فإن الخراب مفاوز ومهالك وقفار وبحار.

وقال أبو الحسين ابن المنادي: ملك الأرض من الجن والإنس ثمانية: ثلاثة من الجن وخمسة من الإنس، فمن الجن ظهُمُورُثُ وكيَوْمَرُثُ وأوشنج، ومن الإنس جمشاد من ولد قاييل، كان يقطع الدنيا في يوم كما تقطعها الشمس، ونمرود ويوراسب، وهو الضحاك، والإسكندر وسليمان.

قلت: وقد وهم ابن المنادي فإن كيَوْمَرُثُ وظهُمُورُثُ وأوشنج من ولد آدم، حتى إن طائفة تزعم أن كيَوْمَرُثُ هو آدم. ولم يوافق ابن المنادي أحدٌ على أن هؤلاء الثلاثة من الجن.

وأما ما ذكره عن جمشاد ففي غاية البعد، والعقول السليمة تأباه، ولا خلاف بين علماء السير أن الله طرد ولد قاييل إلى جبال الهند ولعنهم، ولم يكن في نسل قاييل ملكٌ ولا رئيس، وأنهم هلكوا في زمان الطوفان، لما نذكر، والاعتماد في هذا الباب على ما روينا عن ابن عباس.



(١) أخرجه الحاكم ٥٨٩/٢ موقوفاً على معاوية. ولم أقف عليه من حديث ابن عباس رضي الله عنه. وانظر المنتظم ١/

فصل

في ذكر من تحتها من السكان، وهل هو ريح أو جماد أو حيوان^(١)

روى السُّدي عن أشياخه: أَنَّ لكلَّ أرض سكاناً، فسكان الأرض الثانية: الريح العقيم، وهي التي أهلكت قوم عاد، وسكان الثالثة: حجارةُ جهنم التي ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿وَقُوذُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤]، وفي الرابعة: كبريت جهنم، وفي الخامسة: حيّات جهنم، وفي السادسة: عقاربها، كالبغال الدُّهم وأذنانها مثل الرماح، وسكان السابعة: إبليسُ وجنوده.

وروى عكرمة عن ابن عباس أنه قال: في كلِّ أرض آدم كآدمكم^(٢).

وهذا القول بعيد^(٣) لم يرد به خبر ولا أثر، وإنما هو آدم واحد، وهو أبو البشر، وقد أخذ على أبي العلاء المعري قوله^(٤): [الطويل]

وما آدم في مذهبِ العقْل واحدٌ ولكنّه عند القياسِ أوادِمُ
ومذهبُ الأوائل أن الأرض على صفةٍ واحدة كالْمُحّة في البيضة، وإنما تختلف أجناسها، وليس تحتها سوى الماء.



(١) انظر «كنز الدرر» ١/ ٢٦٨.

(٢) أخرجه الحاكم ٢/ ٤٩٣، وقال: هذا حديث صحيح ولم يخرجاه، وقال البيهقي (كما في فتح الباري ٩/

٤٧٦): إسناده صحيح، إلا أنه شاذ بمرة.

(٣) في (ب): «ضعيف».

(٤) البيت في «لزوم ما لا يلزم» ٣/ ١٣٨٨.

فصل

في ذكر النار، التي أعدها الله للفقار^(١)

قال أحمد بن حنبل بإسناده عن أبي حازم عن أبي هريرة قال: كنّا جلوساً عند النبي ﷺ فسمعنا وَجْبَةً، فقال رسول الله ﷺ: ما هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «هذا حَجَرٌ أُرْسِلَ في جهنم سبعين خريفاً والآن انتهى إلى قَعْرِهَا». انفرد بإخراجه مسلم^(٢).

الْوَجْبَةُ: السقطة مع هَذَّةٍ. وهذا الحديث يدلُّ على أنَّ النارَ في الأرض، وقد نص عليه ابن سلام، وقال: كذا هو في التوراة، فإن قيل: ففي حديث المعراج أن النبي ﷺ رآها تلك الليلة في السماء^(٣)، فالجواب أنه ﷺ قال: ورأيت الجنة والنار، ولم يقل: رأيت النار في السماء.

وأبنا جدي بإسناده عن قتادة - وفي رواية ابن أبي الدنيا: عن شعبة - قال: أخبرني من رأى عبادة بن الصامت على حائط بيت المقدس الشرقي يبكي ويقول: من ها هنا أخبرنا رسول الله ﷺ أنه رأى جهنم ليلة المعراج، قال: ولذلك سمي وادي جهنم^(٤).

ويحتمل أن الله تعالى أراه إيها في تلك الليلة كما جلى له بيت المقدس، وذلك أبلغ في إظهار القدرة، ولأنَّ النارَ حبس، والحبس يكون في جهة السفلى، بخلاف الجنة لأنها بستان، والبستان يكون في جهة العلو.

روى مجاهد عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ [الحجر: ٤٤] قال: هي دركاتٌ بعضها فوق بعض، فأولها جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية^(٥).

(١) انظر «كنز الدرر» ١/ ٢٦٥.

(٢) أحمد في «مسنده» (٨٨٣٩)، ومسلم (٢٨٤٤).

(٣) الحديث أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٣٢٨٥) من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، وانظر تفصيل الكلام على مكان جهنم في كتاب «التخويف من النار» لابن رجب، باب في ذكر مكان جهنم ص ٦٢-٦٨، وانظر المنتظم ١/ ١٨١.

(٤) «فضائل بيت المقدس» ص ١٢٠-١٢١.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١٤/ ٣٥ من حديث ابن جريج.

قلت: قرأت على شيخنا أبي اليُمن زيد بن الحسن الكندي رحمه الله تعالى: قال قرأت على شيخنا أبي منصور بن الجواليقي قال: اشتقاق جهنم من قول العرب: رَكِيَّةٌ جَهَنَّمُ - بكسر الجيم - إذا كانت بعيدة القعر^(١). وكذا قال في «الصحاح»: جهنم اسمٌ من أسماء النار التي يعذب الله تعالى بها عباده.

وأما لظى، فقال الجوهري: هي اسم من أسماء النار، وأصلها من التلهب.

وأما الحُطَمَة، فمن الحَطَم، وهو الكسر، لأنها تحطُم ما يُلقَى فيها.

وأما السعير، فمن التسعُر، وهو التوقد.

وأما سقر، فمن البعد، ومُضْمَقِر^(٢): شديد الحر.

وأما الجحيم، فقال الجوهري: كلُّ نارٍ عظيمة في مهواةٍ فهي جحيم، من قوله تعالى: ﴿قَالُوا اتَّبِعْنَا لِمَ بُيِّنَّا قَالِقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ۖ﴾ [الصفافات: ٩٧]، والجاحم: المكان الشديد الحر.

قال الجوهري: وأما الهاوية، فإنما يقال: هاوية بغير ألف ولام، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّهُمْ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة: ٩] أي: مستقرة في النار، قال: والنار تجمع الكل^(٣).

وقد جاءت في ذكر النار أحاديث:

قال أحمد بن حنبل بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «نَارُكُمْ هَذِهِ مَا يُوقَدُ بَنُو آدَمَ جُزْءٌ وَاحِدٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءاً مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ» قالوا: يا رسول الله، والله إنها لكافية، فقال: «إِنَّهَا فَضَّلْتُ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءاً كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا». أخرجه في الصحيحين أيضاً بهذا الإسناد^(٤).

(١) «المعرب» ص ١٥٥.

(٢) في (ل): ومصقر، وجاء في (ب) مكانها بياض، والمثبت من الصحاح (سقر).

(٣) «الصحاح»: (جهنم، لظى، حطم، جحم، هوي).

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٨١٢٦)، ومسلم (٢٨٤٣) من طريق عبد الرزاق، عن معمر بن همام بن منبه، عن أبي هريرة.

وأخرجه البخاري (٣٢٦٥)، ومسلم (٢٨٤٣)، وأحمد (٧٣٢٧) من طريق أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، ولفظ أحمد: «إن ناركم هي جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، وضربت بالبحر مرتين، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد».

[وفي الصحيحين أيضاً] عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «اشتكت النارُ إلى ربِّها فقالت: ياربِّ، أكلَ بعضي بعضاً فنَّسني، فأذنَ لها أن تنفَّس نفَّسين: نفْساً في الشتاء ونفْساً في الصيف، فأشدُّ ما تجدون من الحرِّ فمن حرِّ جهنَّم، وأشدُّ ما تجدون من البرِّد فمن زمهريرِها^(١)». في أخبار كثيرة.

قال أحمد بن حنبل: حدثنا أبو اليمان بإسناده عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال لجبريل: «مالي لم أرَ ميكائيلَ ضاحكاً قطُّ، فقال: مُنذُ خَلَقَ الله النَّارَ لم يضحك»، أخرجه أحمد في «المسند»^(٢).

وقال أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمن بإسناده عن عبد الله بن عمرو بن العاص: أن رسول الله ﷺ قال عند ذكر النار: «أهلُ النارِ كلُّ جَعْظَرِيٍّ جَوَاطٍ مُسْتَكْبِرٍ جَمَاعٍ مَنَاعٍ^(٣)».

الجَعْظَرِي: الفُظُّ الغليظ، ذكره الجوهري، وقال: قال ابن السكيت: يقال للرجل إذا كان قصيراً غليظاً: جَعْظَرَةً، بكسر الجيم^(٤). والجَوَاطُ: الجَمُوع المَنُوع، وقال الجوهري: الجَظ: الرجل الضخم، قال: وفي الحديث: «أهل النارِ كلُّ جَظٍّ مُسْتَكْبِرٍ» قال: وكذا الجعظ^(٥).

فصل

ومذهب أهل الحق أن النار مخلوقة، وقالت المعتزلة والجهمية: لم تُخلق بعدُ، لأنها دارٌ تعذيبٍ وجزاء، وليس هذا وقته. ولنا قوله تعالى: ﴿أَعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤] والمُعَدُّ ما يكونُ موجوداً، وما ذكره فنقول: جهنم حبسُ العصاة، فوجودها أبلغُ في الزجر من عدمها، وعلى هذا الخلاف الجنة، لما نذكر.

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٠)، ومسلم (٦١٧). وما بين معقوفين زيادة من «كنز الدرر» ١/ ٢٦٧.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٣٣٤٣).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٦٥٨٠).

(٤) «الصحاح»: (جعظر).

(٥) «الصحاح»: (جفظ) و(جعظ).

فصل

في خلق الجن والشیاطین وأصلهم إبليس اللعين

قال علماء اللغة: أصل الجن من الاستتار، ومنه: الجنين، لأنه مستتر في بطن أمه. وقال الجوهري: إنما سموا بذلك لأنهم لا يُرون^(١). قال الجوهري^(٢) أيضاً: الشيطان كلُّ عاتٍ متجبر من الجنِّ والإنس والدواب، ومَنْ بَعْدَ غَوْرُهُ في الشرِّ. واختلفوا في اشتقاقه على قولين، أحدهما: مِنْ شَطَنَ، أي: بَعْدَ عن الخير. والقول الثاني: أنه من شاط يشيط إذا احترق، ومنه شاطت القِدر. وقال أحمد بن حنبل بإسناده عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «خُلِقَ الجَانُّ من مارجٍ من نار»^(٣). وقد فسَّره ابن عباس فقال: المارجُ هو لسانُ النار الذي يكون في طرفها إذا التهب^(٤).

وقال الجوهري: المارجُ نارٌ لا دخانَ لها خُلِقَ منها الشيطان^(٥). واختلفت الرواية عن ابن عباس: هل الجانُّ إبليس أم غيره؟ فروى عنه عكرمة أنه قال: إبليس أصل الجانِّ والشیاطین، وهو أبو الكلِّ. وروى مجاهد عنه أنه قال: الجانُّ اسمه سُومان، وهو أبو الجنِّ كلِّهم كما أن آدم أبو البشر. وروى سعيد بن جبیر عنه أنه قال: هذا الفن خمسة أنواع: جانٌّ، وجنٌّ، وشيطان، وعفريت، ومارد، وأضعفها الجانُّ وهو مسيخ الجنِّ، كما أن القردة والخنازير مسيخ الإنس، وأقواها المارد^(٦).

(١) «الصحاح»: (جن).

(٢) في (ل): وأما الشيطان فقال الجوهري. وانظر «الصحاح»: (شطن).

(٣) أحمد في «مسنده» (٢٥١٩٤).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١٢٦/٢٧.

(٥) «الصحاح»: (مرج).

(٦) جاء بعدها في (ب): «وأضعفها الجن».

وقال الحسن البصريّ: الشياطين أولاد إبليس، لا يموتون إلا معه، والجنّ يموتون قبله.

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: خلق الله الجنّ قبل آدم بألفي سنة. وقد روي مرفوعاً والموقوف أصح.

وحكى السدي عن أشياخه قالوا: في الجنّ: المؤمن والكافر والقدرية والمعتزلة والجهمية والشيعة وجميع الفرق.

وحكى مجاهد عن ابن عباس أنه قال: هم على أصناف، على صور الحيات والعقارب والأسد والذئاب والثعالب ونحوها.

وقال الترمذي بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «اقتلوا الأسودين ولو كنتم في الصلاة: الحية والعقرب». ورواه أبو داود، وفيه: أمر رسول الله ﷺ بقتلهما^(١).

قلت: وعامة العلماء على جواز قتل الحية والعقرب في الصلاة، وكرهه إبراهيم النخعي لأنه عمل كثير، وقد روي أن النبي ﷺ أمر بأن يؤذّنوا قبل قتلهم، فقال عبدالله ابن أحمد بن حنبل عن أبيه بإسناده عن جرير بن عبدالله قال: أمر رسول الله ﷺ أصحابه إذا ظهروا في مكان أن يؤذّنوا بالانصراف قبل قتلهم^(٢). يقال: خلّ الطريق ومراً بإذن الله، يعني إذا تصور الجنّ في صورة الحيات والعقارب.

وقال ابن أبي ليلى: الحية البيضاء التي تمشي مستوية هي الجنّ، فتلك التي تُنذر قبل قتلها، أما غيرها فلا تنذر بل تقتل.

قال أبو جعفر الطحاوي: والمختار عند أصحابنا: قتل الجميع بغير إنذار، لحديث أبي هريرة الذي روينا، فإنه مطلق في حقّ الكلّ، قال: لأنه بلغنا أن النبي ﷺ عهد ليلة

(١) الترمذي (٣٩٠)، وأبو داود (٩٢١)، وهو عند أحمد في «مسنده» (٧١٧٨).

(٢) حديث إيدان حيات البيوت قبل قتلهم ليس هو من حديث جرير بن عبدالله، ولم نقف عليه في «مسند أحمد»، والحديث مروي عن أبي سعيد الخدري عند مسلم (٢٢٣٦) مطولاً وفيه قصة، ثم قال رسول الله ﷺ: «إن بالمدينة جنّاً قد أسلموا، فإذا رأيتم منهم شيئاً فأذّنوه ثلاثة أيام، فإن بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه، فإنما هو شيطان». وأخرجه أيضاً أحمد في «مسنده» (١١٣٦٩).

الجنّ وأكد عليهم العهودَ والمواثيقَ أنهم لا يدخلون بيوتَ أمته ولا يظهرون، فإنّ ظهوروا قُتلوا، فإذا ظهوروا فقد نقضوا العهدَ فيجب قتلهم. ولكن الأولى هو الإنذار عملاً بالروايات كلها، فإن لم يرجع قتله.

وروى عروة أن عائشة رضي الله عنها قتلت حيّةً فأتيت في منامها فقيل لها: أقتلت مسلماً؟ فقالت: لو كان مسلماً لما دخل بيوتَ أزواج رسول الله ﷺ، فقيل لها: هل كان يدخلُ عليك إلاّ وعليك ثيابك؟ فأصبحتُ فزعة، فتصدقت باثني عشر ألفاً^(١).

وروى مجاهد عن ابن عباس: أن الكلابَ من ضعفاء الجن، وقال أحمد بن حنبل بإسناده عن أبي ذرّ قال: قال رسول الله ﷺ: «الكلب الأسود شيطان»، انفرد بإخراجه مسلم^(٢)، وفيه: الكلب الأسود البهيم.

وبهذا الحديث يحتجُّ أحمد بن حنبل في إحدى الروايتين عنه: أنّ الكلبَ الأسود البهيم يقطعُ الصلاة، وهو قول أهل الظاهر.

وروي عن أحمد أنه قال: الذي لا أشك فيه أن الكلب البهيم يقطعُ الصلاة، ويروي عن معاذ وطاووس ومجاهد، قال أحمد: وفي نفسي من المرأة والحصار شيء. وعند أهل الظاهر يقطع الصلاة مرورُ الكل.

قلت: ومذهب أصحابنا ومالك والشافعي وعامة الفقهاء أنه لا يقطع الصلاة مرورُ شيء من ذلك، لقوله عليه السلام: «لا يقطعُ الصلاة مرورُ شيء»^(٣)، وحديث أبي ذرّ لا حجة فيه وقد بيّنا هذا في «شرح البداية».

وقال الحسن البصري: الجن ثلاثة أصناف: صنف في البرّ، وصنف في البحر، وصنف في الهواء.

وروى عكرمة عن ابن عباس أنه قال: هم أربعون جيلاً، كلُّ جيلٍ ست مئة ألف، وهم مأمورون ومنهيون.

(١) أورده ابن عبد البر في «الاستذكار» ٥٢٦/٨، وأبو الشيخ في العظمة (١٠٦٦).

(٢) أحمد «مسنده» (٢١٣٢٣)، ومسلم (٥١٠).

(٣) أخرجه أبو داود (٧١٩) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

واختلفوا هل بعث فيهم نبيٌّ أم لا؟ على قولين: أحدهما: أنه بعث إليهم نبي اسمه يوسف، لقوله تعالى: ﴿يَمْعَثِرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ أَلَّا يَأْتِكُمْ رَسُولٌ مِّنْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠] وقال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ [مريم: ٦٨] فعلى هذا هم يُحْشَرُونَ ويحاسبون.

والقول الثاني: أنه لم يبعث فيهم نبيٌّ وإنما كان فيهم النذر، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَوْأَإِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩]، قاله مجاهد. وقال الضحاك والكلبي: كانت الرسل قبل محمد ﷺ يبعثون إلى الإنس والجن جميعاً.



فصل

في ذكر إبليس وجنوده، وأولاده وحشوده^(١)

اختلفوا في اشتقاقه، قال علماء التفسير: اشتقاقه من الإبلّاس وهو الإياس، وإبليس قد يئس من رحمة الله، قال الجوهري: يقال أبلّس فلان إذا سكت غمًا.

واختلفوا في اسمه، فقال الجوهري: كان اسمه عزازيل^(٢). وهو قول ابن عباس، وروي عن ابن عباس أن اسمه: الحارث.

واختلفوا في كنيته على قولين: أحدهما: أبو مرة، والثاني: أبو الغمر.

واختلفوا هل كان من الملائكة أو من الجنّ على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه كان من الملائكة، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس.

والثاني: أنه كان من الشياطين، قاله الحسن البصري، قال: ولم يكن من الملائكة قط، واحتجّ بقوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠].

الثالث: أنه لا من الملائكة ولا من الجن، بل هو خلق مفرد خلقه الله تعالى من النار كما خلق آدم من الطين، قاله مقاتل^(٣).

وقد رجّح علماء التفسير قول ابن عباس أنه كان من الملائكة، واحتجّوا بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ [البقرة: ٣٤، الكهف: ٥٠] وهذا استثناء متصل، فدلّ على أنه منهم.

وأما قول الحسن: إنه كان من الجن، وما احتجّ به من الآية فقد فسّره ابن عباس وقال: أشرف الملائكة وأكرمهم يقال لهم: الجنّ، لأنهم استتروا عن أعين الملائكة لشرفهم، وكان إبليس منهم، قال: وكان له سلطان السماء الدنيا وسلطان الأرض، وكان يسمّى: طاووس الملائكة، وليس في سماء الدنيا مكان إلا وقد سجد عليه، ولما عصت الجنّ في الأرض بعثه الله في طائفة من الملائكة فطردوهم إلى الجزائر وأطراف

(١) انظر «كنز الدرر» ١/ ٢٤٤.

(٢) «الصحاح»: (بلس).

(٣) أخرجه أحمد في «الزهد» ص ٩٦. وانظر «تلبيس إبليس» ص ٢٧.

الجبال فاغتر في نفسه، وقال: مَنْ مثلي. ولم يسجد لآدم، فمسخه الله تعالى شيطاناً. قلت: وظاهر الآيات يقتضي التعارض فينبغي التوقف، وقد قال: ﴿خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢] وإذا كان مخلوقاً في الأصل من النار، فكيف يُخلَق من النور، لأن الملائكة خُلِقوا من النور لما نذكر.

وذكر أبو جعفر الطبري^(١): أن إبليس بُعث حاكماً في الأرض، فقضى بين الجن ألف سنة، ثم عرج إلى السماء فأقام يتعبد حتى خُلِق آدم. وقال شهر بن حوشب: كان إبليس من الجن الذين يعملون في الأرض بالفساد، فأسره بعض الملائكة فذهب به إلى السماء.

وقال قتادة: ﴿فَفَسَّقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠] خرج عن طاعته، والفسق الخروج، من قولهم: فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرها.

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل بإسناده عن ثابت البناني قال: بلغنا أن إبليس ظهر ليحيى عليه السلام، فرأى عليه معاليق من كل شيء، فقال له: ويحك ما هذه المعاليق؟ فقال: الشهوات التي أُصيب بها بني آدم، قال: فهل لي فيها من شيء؟ قال: ربما شبت فتثقل عن الصلاة وتغلب على الذكر، فقال يحيى: فله علي أن لا أملأ بطني من طعام أبداً. فقال إبليس: والله علي أن لا أنصح مسلماً أبداً^(٢).

وبه، قال ابن عباس: قال: كان إبليس يأتي يحيى بن زكريا طمعاً أن يفتنه، وعرف ذلك يحيى منه، وكان يأتيه في صور شتى، فقال له: أحب أن تأتيني في صورتك التي أنت عليها، فأتاه عليها فإذا هو مشوه الخلق كريه المنظر، جسده جسد خنزير، ووجهه وجه قرد، وعيناه مشقوقتان طولاً، وأسنانه كلها عظم واحد، وليس له لحية، ويداه في منكبیه، وله يدان أخريان في جانبيه، وأصابعه حلقة^(٣) واحدة، وعليه لباس المجوس واليهود والنصارى، وفي وسطه منطقة من جلود السباع فيها كيزان معلقة، وعليه جلاجل، وفي يده^(٤) جرس عظيم، وعلى رأسه بيضة من حديد معوجة كالخطاف،

(١) في تاريخه ٨٨/١، وانظر ٧٩-٨٨، والمنظم ١٧٦/١-١٧٩، وكنز الدرر ٢٤٤/١ فما بعدها.

(٢) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ٣٢٨-٣٢٩، وانظر تلييس إبليس ٢٧.

(٣) في (ل) و(ب): يدان أخراواتان . . . خلقه، والمثبت من (ط).

(٤) في (ب): «وسطه».

فقال يحيى: ويحك ما الذي شؤّه خلقتك؟ فقال: كنت طاووس الملائكة فعصيت الله فمسخني في أحسن صورة، وهي ما ترى، قال: فما هذه الكيزان؟ فقال: شهوات بني آدم، قال: فما هذا الجرس؟ قال: صوت المعازف والنوح، قال: فما هذه الخطاطيف؟ قال: أخطف^(١) بها عقولهم، قال: فأين تسكن؟ قال: في صدورهم وأجري في عروقهم^(٢)، قال: فما الذي يعصمهم منك؟ قال: بغض الدنيا وحب الآخرة^(٣).

وقال جدي رحمه الله بإسناده إلى عبدالله بن دينار عن ابن عمر قال: كنا عند رسول الله ﷺ، فجاء رجل أقبح الناس وجهاً وثياباً وأنتهم ريحاً، حافياً يتخطى رقاب الناس، فجلس بين يدي النبي ﷺ فقال: مَنْ خلقتك؟ قال: «الله»، قال: فمن خلق السماء والأرض؟ قال: «الله»، قال: فمن خلق الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «هذا إبليس جاء يُشكككم في دينكم»^(٤)، قال جدي: هذا حديث لا أصل له، وفي إسناده عبدالله ابن جعفر، ضعيف يتهم في الأحاديث.

وروي عن أبي الحسين ابن المنادي قال: يجيء الشيطان الذي يقال له: القَرْفَنَّة^(٥) في صورة طائر، وفي رواية: يجيء الشيطان في صورة طائر يقال له: القَرْفَنَّة، فيخفق بجناحيه على عين الرجل الذي يقرّ أهله على الفاحشة فلا يُنكرها بعد ذلك.

وقال أحمد بن حنبل بإسناده عن جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: «يضع إبليس عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه، فأدناهم عنده منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئاً، ويجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله، فيؤذنه منه ويلتزمه ويقول: نعم، أنت أنت» انفرد بإخراجه مسلم^(٦).

وذكر عبدالله بن أحمد بن حنبل عن أبيه عن ابن مسعود: إن الشيطان إذا طاف بأهل

(١) في (ب): وأختطف.

(٢) في (ب): «عقولهم».

(٣) انظر «عمدة القاري» ١٥/١٦٨.

(٤) «العلل المتناهية» (١).

(٥) في (ل) و(ب): «القرقية»، والمثبت من «النهاية في غريب الحديث» ٢/٤٦٥ ومصادر اللغة.

(٦) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٤٣٧٧)، ومسلم (٢٨١٣)(٦٧).

مجلسٍ ذكرٍ ليفتنهم فلم يقدروا على التفرقة بينهم، فأغرى بين مجلس آخر فاقتتلوا، فقام أهل الذكر فحجزوا بينهم حتى تفرقوا^(١).

وذكر عبدالله أيضاً عن قتادة قال: إن لإبليس شيطاناً يقال له: قبقب، يجمه أربعين سنة، فإذا دخل الغلام في هذه الطرق قال له: دونك وإياه، فإنما أجممتك لمثل هذا، أجلب عليه وافتنه^(٢).

وقال أحمد بإسناده عن أنس بن مالك: إن رسول الله ﷺ قال: أول من يكسى حلة من النار إبليس، فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه، وذريته من بعده، وهو ينادي يا ثوراه، وينادون: يا ثورهم، حتى يقفوا على النار فيقول: يا ثورهم، ويقولون: يا ثورهم، فيقال لهم: ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ١٤] أخرجه أحمد في «المسند»^(٣)، والثبور: الهلاك والخسران.

وقال أحمد بإسناده عن أبي سفيان عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَسَّ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ» انفرد بإخراجه مسلم^(٤). ولمسلم، عن جابر عن النبي ﷺ أنه قال: «إِذَا أَدْنَى الْمُؤَذِّنُ هَرَبَ الشَّيْطَانُ حَتَّى يَكُونَ بِالرُّوحَاءِ» من المدينة ثلاثون ميلاً^(٥).

فصل في ذكر أولاده

قال الله تعالى: ﴿أَفَنَتَّخِذُهُمْ ذُرِّيَّةً أَوْ لِكَاءَ مِنْ دُونِ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ يَسَّ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

وروى مجاهد عن ابن عباس أنه قال: بلغنا أن لإبليس أولاداً كثيرين، واعتماده على خمسة منهم: ثبر والأعور ومِسْوَط وداسم وزَلَنْبُور.

وقال مقاتل: لإبليس ألف ولد، ينكح نفسه ويلد ويبيض كل يوم ما أراد^(٦).

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» ص ١٩٦.

(٢) أخرجه ابن الجوزي في «ذم الهوى» ص ١٧٦-١٧٧، و«تلبس إبليس» ص ٢٧ من طريق عبدالله بن أحمد.

(٣) أخرجه أحمد في «المسند» (١٢٥٣٦).

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٤٣٦٦)، ومسلم (٢٨١٢).

(٥) صحيح مسلم (٣٨٨).

(٦) قال ابن الجوزي في المنتظم ١/ ١٧٩: وهذا من أبعد الأقوال.

وقال كعب الأحبار: ومن أولاده المذهب وخنزب وهفاف ومرة والولهان والمتقاضي.

فأما ثبر: فصاحب المصائب، يأمر بلطم الخدود وشق الجيوب ودعوى الجاهلية.

وأما الأعور: فصاحب الزنا يُزينه إلى الذكور والإناث.

وأما مسوط: فصاحب الكذب والنميمة.

وأما داسم: فيري الرجل عيوب أهله فيبغضهم إليه.

وأما زلتبور: فيركز رايته في الأسواق ويأمرهم بالتطيف والخيانة.

وأما المذهب: فموكل بالعلماء يردهم إلى البدع.

وخنزب: موكل بالمصلين يلقي عليهم النوم والسبات، وقد روي في خنزب حديث فقال أحمد بإسناده إلى أبي العلاء بن الشخير، أن عثمان بن أبي العاصي الثقفي قال: يا رسول الله، حال الشيطان بيني وبين صلاتي وبين قراءتي، قال: «ذاك الشيطان يقال له: خنزب، فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه، واتفل على يسارك ثلاثاً» قال: ففعلت ذلك فأذهب الله عني. انفرد بإخراجه مسلم^(١).

وهفاف: صاحب الخمرة.

ومرة: صاحب اللواط.

والولهان: يوسوس في الوضوء، وقد ورد فيه حديث، قال الترمذي بإسناده عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ للوُضوءِ شيطاناً يُقال له: الولهان، فهو وسواسُ الماء» إلا أن هذا الحديث فيه مقال، قال الترمذي: هذا الحديث ليس بالقوي، لا نعلم أحداً أسنده غير خارجة بن مصعب، وخارجة ليس بالقوي عند أصحابنا^(٢).

وذكره جدي رحمه الله في «الواهيّة»^(٣).

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٧٨٩٧)، ومسلم (٢٢٠٣).

(٢) الترمذي (٥٧)، وفيه: «فاتقوا وسواس الماء».

(٣) «العلل المتناهية» (٥٦٧).

وأما المتقاضي: فإن الإنسان إذا عمل عملاً في السرّ تقاضاه حتى يتحدث به في العلانية.

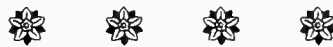
وروى مجاهد عن ابن عباس قال: أول دينار وجد في الأرض أخذه إبليس وقبّله ووضع على عينيه، وقال: أنت قرّة عيني وثمرّة فؤادي، لا أبالي بآدم، إذا أحبّك هو عبدي حقاً. وقد رواه عكرمة عن ابن عباس وقال فيه: فوضع الدينار في يده اليمنى والدرهم في اليسرى وقال: سمّيتكما نجيحاً ومُنْجِحاً.

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل بإسناده عن عبدالعزيز بن رفيع قال: بلغني أنه إذا عُرِجَ بروح المؤمن إلى السماء تقول الملائكة: سبحان الله مَنْ نَجَّى هذا العبدَ من الشيطان؟ أو: يا ويحه كيف نجا^(١)؟.

حدثنا أبو اليمن الكندي بإسناده عن الحسن قال: جاء إبليس إلى حكيم فقال له: ويحك لِمَ تُضِلُّ الناس؟ فقال له: إلى ها هنا انتهت حكمتك؟ وهل أقدرُ على إضلال من خلقه الله سعيداً؟ قال فينما هو يحدثه إذ مرّت امرأة بيدها جرّةً غسل، فوقعَت فانكسرت، فجلس الناس يلعبونَ الغسلَ ويلعنونَ إبليس، فقال إبليس للحكيم: انظر إلى جهلهم يأكلون الغسل ويلعنونني، فإن نسبوه إلى فعلي كفروا حيث جعلوا الحكم لي، وإن كان فعل الله فما ذنبي؟

وبه: قال الحسن: كان عابداً في بني إسرائيل جليل القدر في زمان عيسى عليه السلام، وكان مجتهداً في العبادة، فاجتهد إبليس أن يفتنه فلم يقدر عليه، فجاءه في ليلة كثيرة المطر والثلج، فوقف تحت صومعته وناداهُ يا راهبُ، فقال: من أنت؟ فقال: عيسى بن مريم، افتح لي، ما ترى هذا البرد؟! فقال: لا حاجة لي بلقائك، إنك أمرتنا أن نعبد الله وحده ونبالغ في العبادة وإن موعدنا يوم القيامة، فاذهب فلا تشغلني عن العبادة، ولم يفتح له.

وسنذكر من أخبار إبليس طرفاً في قصة آدم عليه السلام، إن شاء الله تعالى.



فصل

في خلق السماوات والآثار العلويات^(١)

أظهر الله سبحانه في السماء دلائل على ربوبيته ووسائل إلى قدرته :
منها : أنه جعلها سقفاً مرفوعاً لتكون ظلاً .

ومنها : أنها بغير عمد تحتها ولا علاقة فوقها .

ومنها : سعتها والنفع بزيادة التصرف فيها وكونها زينةً للناظرين .

ومنها : استواؤها ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَأَنجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ (٣) ثُمَّ أَتَجِبِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴿[الملك ٣-٤] بالنظر والاستدلال، وقيل : بالنزهة والاعتبار .

ومنها : لونها الذي لم يتغير على مرور الزمان وتقلب الحداث، ثم هو أحسن الألوان، وأقوى للبصر، وأحد للنظر، والأطباء إنما يأمرُون بإدمان النظر إلى الخضرة ليقوى البصر. وقيل : هي بيضاء ولكن من بعدها تُرى خضراء .

ومنها : إمساكها بيد القدرة ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ [فاطر : ٤١] .

ومنها : أنها ظلٌ لبني آدم لقوله تعالى : ﴿وَالسَّقْفَ الْمَرْفُوعَ﴾ [الطور : ٥] .

ومنها : أن الخلق يضعون الأساس أولاً ثم السقف بعد ذلك، والله تعالى أفعاله خلاف أفعال العباد .

ومنها : أن بناء أهل الدنيا تحته أوسع من فوق، وبناء الله على ضده .

ومنها : أن بناء الخلق ينهدم على طول الأيام، وبناء الله تعالى لا ينهدم ولا يتغير ولا يسقط منه شيء .

إذا عرفنا هذا قلنا : قال الجوهرى : كل ما علاك فأظلك فهو سماء، ومنه قيل : لسقف البيت سماء، ويقال للسحاب : سماء، قال الله تعالى : ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَرَكًا﴾ [ق : ٩] ويسمى المطر : سماء، قال الشاعر :

(١) انظر «كتر الدرر» ٣٠ / ١ .

إذا نزل السماء بأرض قوم رَعَيْنَاهُ وَإِنْ كَانُوا غِضَابًا
هذا كلام الجوهري^(١).

وقال الفراء والزجاج: لفظ السماوات واحدٌ ومعناه الجمع، بدليل قوله تعالى:
﴿فَسَوَّيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾^(٢) [البقرة: ٢٩].

وقال أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري في «كتاب الأنواء» في السماوات: قال الله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ [الذاريات: ٤٧] وقال في موضع آخر: ﴿السَّمَاءَ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾ [المزمل: ١٨] قلت: وما ذكروه من معنى السمو والارتفاع والمطر وغيره فإنما هو مجاز، أما الحقيقة، فيرأى به السماء المعروفة.

وقد ورد في السماء أخبارٌ وأثار:

قال أحمد بن حنبل بإسناده عن أبي ذرٍّ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون: أطلت السماء وحُقَّ لها أن تَنَظَّ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وعليه ملكٌ ساجدٌ»^(٣).

قال الجوهري: الأطيع: صوتُ الرَّحْلِ والإبل من ثقل أحمالها^(٤).

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما أراد الله خلق المخلوقات خلق الماء فنار منه دخانٌ، فارتفع فخلق منه السماء وجعلها سماءً واحدةً، ثم فتقها فجعلها سبعاً ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: ١٢] أي ما قَدَّرَ أَنْ يَكُونَ فيها من الملائكة والنجوم وغير ذلك.

وروى عنه عكرمة في تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَرَازَيْنَاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦] قال: الفروج: الشقوق وكذا الفطور، قال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود^(٥):

(١) «الصحاح»: (سما)، والبيت لمعاوية بن مالك، وانظر «المفضليات» ص ٣٥٩.

(٢) انظر «معاني القرآن» للزجاج ١/ ١٠٧.

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢١٥١٦).

(٤) «الصحاح»: (أطط).

(٥) البيت في «الأغاني» ٩/ ١٥١.

شَقَّقَتِ الْقَلْبَ ثُمَّ ذَرَرَتْ فِيهِ هَوَاكُ فَلَيْمَ فَالْتَامَ الْفَطُورُ
وقال الربيع بن أنس: السماء الأولى من مَوْج مكفوف، والثانية من صخرة،
والثالثة من حديد، والرابعة من صُفْرٍ أو نحاس، والخامسة من ذهب، والسادسة من
فضة، والسابعة من الياقوت الأحمر^(١).

وروى الوالبي عن ابن عباس قال: الأولى من زمردة خضراء، والثانية من فضة،
والثالثة من ذهب، والرابعة من لؤلؤ، والخامسة من الياقوت، والسادسة من المرجان،
والسابعة من النور. قال: وأما سماء الدنيا فهي الرقيق، وقال أبو حنيفة الدينوري:
الرقيق اسم علم للسماء، وفي الحديث: «من سبعة أرقعة»^(٢).
وقال مقاتل: والثانية ركماء، والثالثة جوفاء، والرابعة طرفة، والخامسة أدماء،
والسادسة عرويين، والسابعة عروباً.

فصل في أبوابها

روي عن ابن عباس أنه قال: لها أبواب كثيرة منها باب المطر، ومن قوله تعالى:
﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ۖ﴾ [القمر: ١١]، وباب الرزق ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ
رَحْمَةٍ﴾ [فاطر: ٢]، وباب النزول ﴿تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ﴾ [فصلت: ٣٠] وباب الوحي
﴿بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ [النحل: ٢]، وباب صعود الأعمال ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ
الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠].

وحكى جدي في «كتاب التبصرة» وقال: قال أبو الحسين ابن المنادي: لا خلاف
بين العلماء أن السماء على الأرض مثل القبة، وأن العالم مثل الكرة، وأنها تدور بما
فيه من الكواكب على قطبين ثابتين غير متحركين، أحدهما في ناحية الشمال، والآخر
في ناحية الجنوب مطلع سهيل، وأن كرة الأرض مثبتة وسط كرة السماء كالنقطة من

(١) انظر «المنتظم» ١/١٨٣، و«التبصرة» ٢/١٧٣.

(٢) هو قطعة من حديث حكم سعد بن معاذ في بني قريظة، أخرجه ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام ٢/٢٤٠
من حديث علقمة بن وقاص الليثي، وأصل القصة عند البخاري (٤١٢١)، ومسلم (١٨٦٨)، وانظر
«مسند» أحمد (١١٦٦٨) من حديث أبي سعيد الخدري. وسيذكر المصنف الخبر في السنة الخامسة للهجرة.

الدائرة، إلى ها هنا ذكر جدي^(١).

ورأيت في كتاب ابن المنادي تمام هذا الفصل قال: والأرض على نَمَيط واحدٍ من جميع الجهات، والأفلاك تدور على محورين وقطبين ثابتين، ومَن كان مسكنه وسط الأرض عند استواء ساعات الليل والنهار رأى المحورين والقطبين، ومَن كان في بلاد الشمال يرى القطب الشمالي، ومَن كان في بلاد الجنوب يرى القطب الجنوبي^(٢).

وقال جالينوس: العالم شبه البيضة، والسماء موضع القشر، والهواء موضع البياض، والأرض موضع المَح.

فصل

واختلفوا هل الأفلاك هي السماوات أم هي غيرها؟ على قولين: أما مذهب الأوائل فإنها هي بعينها، وأما مذهب المتشرعين^(٣) فهي غيرها، وقد رواه العوفي عن ابن عباس واحتج بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأعراف: ٥٤] وقال في آية أخرى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣].

وسمى الفلك فلَكًا لاستدارته، ومنه: فَلَكَةُ المغزل، بفتح الفاء لاستدارتها، وأما الفُلُكُ - بالضم - فالسفينه، قال الله تعالى: ﴿فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [الشعراء: ١١٩]. وقال قوم بأنَّ الفلك هو القطب، وليس بشيء، لأن القطب لا يزول ولا يتغير كما لا يزول قطب الرحى.

فصل

ومذهب جملة المسلمين أنَّ السماوات سبع، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ [الطلاق: ١٢].

ومذهب الأوائل والمنجمين أنها تسعة أفلاك، فأولها أقربها إلى الأرض وهو

(١) «التبصرة» ١٧٣/٢.

(٢) جاء بعدها في «كنز الدرر» ٣٣/١: «قال الجوهري: والمحور العود الذي تدور عليه البكرة، وربما كان من حديد، وسنذكر القطب والجدي في موضعه» وانظر «الصحيح»: (حور).

(٣) في (ل): «المشرعين».

أصغرهما وهو فلك القمر، ثم الذي يليه فلك عطارد، ثم فلك الزهرة، ثم فلك الشمس، ثم فلك المريخ، ثم فلك المشتري، ثم فلك زحل وهو السابع، والثامن فلك البروج وفيه سائر الكواكب الثابتة، والتاسع الفلك الأعظم الحاكم على جميع الأفلاك وله أَسَامٌ منها: الأثير، لأنه يؤثر في غيره وغيره لا يؤثر فيه، ومنها: القسري، لأنه يدير الأفلاك دورة قسرية في كل يوم وليلة دورة واحدة، ومنها: فلك الاستواء، ومنها: المستقيم، ومنها: الأطلس، ويزعمون أنه ليس وراء شيء ولا فيه كوكب ولا غيره، ويدير الأفلاك على القطبين الثابتين الذين ذكرناهما، قالوا: وبينه وبين الأرض خمسون ألف سنة، ويسمى المحيط أيضاً، لأنه يحيط بكل شيء ولا يحيط به شيء.

قال بَطْلَيْمُوس: وهو أخفُّ الأفلاك وأضوؤها، لأنه منها في جوهره كذلك، ولهذا ارتفع على الكل، قال: والذي من دونه يقال له: فلك البروج، وفلك الأفلاك، لأنه يدور بأفلاك الكواكب، ثم دونه أفلاك الكواكب السبعة.

ومنهم من يقول: هي أفلاك كثيرة^(١)، وهذه الأفلاك من طبيعة أخرى بخلاف الطبائع الأربع التي بدون فلك القمر من النار والهواء والتراب والماء، لأنها لو كانت من هذه لزمها ما يلزم هذه من الكون والفساد والاستحالة والزيادة والنقصان، فالفلك وما فيه طبيعة خامسة ولم يخبروا عن ماهيتها بأكثر من هذا.

وقال بَطْلَيْمُوس أيضاً: صورة الفلك وهيئات بروجيه على مثال البطيخة المخططة، أعلاها وأسفلها كالنقطتين، وكلُّ بيت بين خطين بمنزلة البرج، واتساق بروجيه على مثال اتساق بيوتها وخطوطها.

وقال أفلاطن: الأفلاك كهيئة الأكر، بعضها فوق بعض، والفلك التاسع محيط بجميع الطبائع والمخلوقات، وليس فيه كوكب، وهو يدير الكل من المشرق إلى المغرب كل يوم وليلة دورة واحدة، والأفلاك الثمانية تدور من المغرب إلى المشرق. وشبهوا ذلك بسفينة تجري مع الماء وفيها رجلٌ يمشي مُضْعِداً. ولهم في هذا بحث طويل.

(١) جاء بعدها في «كنز الدرر» ٣٤/١: «ومنهم من قال: إن الفلك حي مميز بجميع ما فيه، ذو صورة وكذلك جميع ما فيه بهذه المنزلة».

واستدلوا أيضاً على ذلك بأن الشمس والقمر يدوران في اليوم واللييلة دورة واحدة، قال: والبروجُ نصفُ سُدسِ الفلك، وفلكُ البروج وما فيه من الكواكب يدور على القطبين اللذين ذكرنا غير قطبي الفلك الأعظم، وعرضُ الأرض من القطب الشمالي إلى القطب الجنوبي الذي هو مطلع سهيل في موضع خط الاستواء ثلاث مئة وستون درجة فيكون الجملة تسعة آلاف فرسخ.

قلت: وينبغي أن يكون هذا على وجه التقريب والظن والتخمين لا على وجه القطع واليقين.

ونُقِلَ عن فيثاغورس أنه قال: العالم الأرضي متصلٌ بالعالم السماوي، والفلكُ يتحرك حركةً مستديرة دائمة، فتتحرك الكواكبُ بتحريكه، وحركة الكواكب على هذا العالم تفعل فيه الاستحالة ويحدث فيه الكون والفساد، وفسادُ كلِّ شيء بكون شيء آخر، وأن حركات الكواكب الدائمة توجب الكونَ الطبيعي الدائم، وليس في الحركات حركةً تامة غير المستديرة، لأن المتحرك بها لا يسكن لأنه لا نهايةً لحركتها، بخلاف الحركات المختلفة لأنها غير تامة^(١)، ولهم في هذا اصطلاح عجيب. ويقال: إن هذا كله كلامُ أفلاطن لأنه أقام يرصد الأفلak سبعين سنة، وسنذكره في باب الحكمة إن شاء الله تعالى.



(١) جاء بعدها في «كنز الدرر» ٣٦/١: «ولها نهايات، فإذا انتهت سكتت وضربوا لها مثلاً فقالوا: وحركة النار إلى فوق وحركة الماء والتراب إلى أسفل».

فصل في البروج ومطالعها

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَرَئَيْنَاهَا لِلنَّظِيرِينَ﴾ (١) [الحجر: ١٦]
 وقال تبارك وتعالى: ﴿نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان: ٦١] وقال عز من
 قائل: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ (٢) [البروج: ١]. وقال الجوهري: والبرج واحد بروج
 السماء، وبرج الحصن ركنه، قال: وربما سمي الحصن به، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ
 فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨] هذا كلام الجوهري^(١).

وقال الحسن البصري: البروجُ القصورُ، وفي السماء قصورٌ مثل قصور الأرض.
 وقال أبو إسحاق الثعلبي في تفسير قوله تعالى: ﴿نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾
 قال: يعني منازل الكواكب السبعة السيارة، وهي اثنا عشر برجاً: الحمل والثور
 والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو^(٢)
 والحوت.

فالحمل والعقرب: بيتا المريخ، والثور والميزان: بيتا الزهرة، والجوزاء^(٣)
 والسنبلة: بيتا عطارد، والسرطان: بيت القمر، والأسد: بيت الشمس، والقوس
 والحوت: بيتا المشتري، والجدي والدلو: بيتا زحل.

قال: فهذه البروجُ مقسومةٌ على الطبائع الأربع، فيكون نصيبُ كلٍّ واحدٍ منها ثلاثة
 بروج، وتسمى المثلثات، فالحمل والأسد والقوس مثلثة نارية، والثور والسنبلة
 والجدي مثلثة أرضية، والجوزاء والميزان والدلو مثلثة هوائية، والسرطان والعقرب
 والحوت مثلثة مائية.

قال: واختلف أهل التفسير في معنى البروج، فروي عن عطية العوفي في تفسير
 الآية قال: هي قصورٌ فيها الحرس^(٤)، دليله قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾

(١) «الصحاح»: (برج).

(٢) في (ب): «والدالي».

(٣) في (ب): «الجوزة».

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٢٧١٦/٨.

وقال مجاهد وقتادة: هي النجوم^(١). وقال عطاء: هي السُّرُج، وهي أبواب السماء التي تسمى المجرة. هذا كلام الثعلبي.

قلت: وقد نصَّ ابنُ عباس في رواية الوالبي عنه أنها البروج المعروفة التي أشرنا إليها.

وقال أبو حنيفة الدِّينوري: الناس مُجمِعُونَ على أنها اثنا عشر برجاً لا يختلفون في ذلك، وأن الله تعالى قسمها ترايع وتثاليث، وهي مقسومة على الكواكب السبعة كما ذكرنا، قال الدِّينوري: وتسميها كلُّ أمةٍ بلسانها ويتفقون في المعنى، وكلهم يتدبَّر بالحمل على الترتيب المذكور.

وقال أبو محمد عبد الجبار المعروف بالخرقي في «كتاب التبصرة»^(٢) له: فالحَمَلُ ثلاثة عشر كوكباً، والخارج عن الصورة خمسة كواكب، وصورته صورة كبش مُقَدَّمَةٌ إلى جهة المغرب ومؤخره إلى جهة المشرق، وهو ملتفتٌ إلى خلفه حتى صار حَظْمُهُ^(٣) على ظهره، ومن كواكبه الشَّرَطَيْنِ من منازل القمر.

والبرج الثاني: الثور ثلاثة وثلاثون كوكباً، والخارج عن الصورة أحد عشر كوكباً، وهو على صورة النصفِ المُقَدَّمِ من الثور، قد نَكَّسَ رأسَهُ لِلنَّطْحِ، وقد قُطِعَ بنصفين، على سرته، مُقَدَّمَةٌ إلى المشرق ومؤخره إلى المغرب، من كواكبه الثريا والدَّبَرَانِ وهما من منازل القمر.

والبرج الثالث: التوأمان، ويعرف بالجوزاء: ثمانية عشر كوكباً، والخارج عن الصورة سبعة كواكب، وصورته صورة صبيين قائمين واحدهما قد وضع يده على منكب الآخر، ورأسهما وسائر كواكبهما في الشمال والمشرق على طرف المجرة، وأرجلهما إلى المغرب.

(١) أخرجه عبدالرزاق في «تفسيره» ٧٠/٣ عن قتادة.

(٢) وهم المصنف في نسبة الكتاب إلى عبد الجبار بن عبد الجبار، أبي محمد المتوفى (٥٥٣) هـ، وإنما هو لأبي بكر محمد بن أحمد بن الحسين بن أبي بشر المروزي الخَرَقِي - بفتح الخاء والراء - المتوفى سنة (٥٣٣) هـ واسم الكتاب: «التبصرة في الهيئة» وقد ذكر الزركلي له نسختين خطيتين ٣١٧/٥، وانظر كشف الظنون ١/٣٣٨.

(٣) الخطم في الدابة: مقدم أنفها وفمها.

والبرج الرابع: السرطان سبعة كواكب، والخارج عن الصورة أربعة كواكب، مقدّمه إلى ناحية المشرق، ومؤخره إلى المغرب والجنوب على أثر التوأمين فإنهما مائلان إلى الجنوب في نفس المجرة.

والبرج الخامس: الأسد سبعة وعشرون كوكباً، والخارج عن الصورة ثمانية كواكب، وصورته تامة ومن كواكبه قلب الأسد كوكب نير.

والبرج السادس: السنبلة، ويعرف بالعدراء: ستة وعشرون كوكباً، والخارج عن الصورة ستة كواكب، وصورتها صورة جارية ذات جناحين قد أرسلت ذيلها، ورأسها على الصرفة: وهي كوكب نير، ومن كواكبها السماك الأعزل كوكب نير على كتفها الأيسر.

والبرج السابع: الميزان ثمانية كواكب وصورته كاسمه، والخارج عن الصورة تسعة كواكب.

والبرج الثامن: العقرب أحد وعشرون كوكباً، والخارج عن الصورة ثلاثة كواكب، وصورتها تامة، ومن كواكبها قلب العقرب، كوكب نير.

والبرج التاسع: القوس ويسمى الرامي، أحد وثلاثون كوكباً خلف كواكب العقرب، وصورته صورة حيوان تركب من إنسان وفرس كأنه جسد دابة إلى العنق، ثم يبرز من مغرز العنق نصف رجل قد وضع السهم في قوسه وأغرق في النز.

والبرج العاشر: الجدي ثمانية وعشرون كوكباً، وهو على النصف على صورة النصف المقدم من جدي، والثاني من مؤخر سمكة إلى ذنبها.

والبرج الحادي عشر: الدلو، يعرف بساكب الماء: اثنان وأربعون كوكباً، الخارج عن الصورة ثلاثة كواكب، وصورته صورة رجل قائم مآدّ اليدين بأحدهما كوز قد قلبه وانصب الماء إلى مقام رجله وجري الماء من تحتها إلى الجنوب، ويسمى الدالي^(١) أيضاً.

والبرج الثاني عشر: الحوت أربعة وثلاثون كوكباً، والخارج عن الصورة أربعة

(١) في (ب): «الدالي».

كواكب، وصورته صورة سمكتين قد وُصِلَ ذنبُ إحداهما بذنبِ الأخرى بخيط يسمى خيط الكتّان.

قال الخَرَقِي: فجملةُ هذه الكواكب ثلاث مئة، وفي قول عنه: أنها ثلاث مئة وأربعون كوكباً.

قلت: وقد ذكر الجوهري هذه البروج وأخلَّ بالبعض، فقال: الحَمَلُ: أول البروج^(١). والثَّور: برج في السماء^(٢). والجوزاء: نجم يقال إنها تعترض في جوز السماء، أي: وسطها، وجوز كلِّ شيء وسطه^(٣). قال: والسَّرطان برج في السماء^(٤). ولم يذكر الأسد، قال: والسُّنْبُلَة برج في السماء^(٥). ولم يذكر الميزان. قال: والعقرب: برج في السماء^(٦). وكذا القوس^(٧) والجدي والدلو^(٨) والحوت^(٩)، قال: والجدي نجم إلى جانب القطب تعرف به القبلة^(١٠). ولم يتعرض الجوهري لعدد الكواكب وصورها.

فصل

في ما لكلِّ برج من البلدان

قال علماء الهيئة: للحمَل بابل وفارس وأذربيجان، وللثَّور: هَمَدَان والأكراد، وللجوزاء: جُرْجان وكيلان^(١١) ومُوقان، وللسرطان: الصين وشرقي خراسان،

(١) «الصحاح»: (حمل).

(٢) «الصحاح»: (ثور).

(٣) «الصحاح»: (جوز).

(٤) «الصحاح»: (سرط).

(٥) «الصحاح»: (سبل).

(٦) «الصحاح»: (عقرب).

(٧) «الصحاح»: (قوس).

(٨) «الصحاح»: (دلو).

(٩) «الصحاح»: (حوت).

(١٠) «الصحاح»: (جدي).

(١١) كيلان ويقال لها: كيل بلد وراء طبرستان، ثم عربت فصارت كيل. «اللباب» ١/ ٣٢٤. و«معجم البلدان»

والبرج الرابع: السرطان سبعة كواكب، والخارج عن الصورة أربعة كواكب، مقدّمه إلى ناحية المشرق، ومؤخره إلى المغرب والجنوب على أثر التوأمين فإنهما مائلان إلى الجنوب في نفس المجرة.

والبرج الخامس: الأسد سبعة وعشرون كوكباً، والخارج عن الصورة ثمانية كواكب، وصورته تامة ومن كواكبه قلب الأسد كوكب نير.

والبرج السادس: السنبلة، ويعرف بالعدراء: ستة وعشرون كوكباً، والخارج عن الصورة ستة كواكب، وصورتها صورة جارية ذات جناحين قد أرسلت ذيلها، ورأسها على الصرفة: وهي كوكب نير، ومن كواكبها السماك الأعزل كوكب نير على كتفها الأيسر.

والبرج السابع: الميزان ثمانية كواكب وصورته كاسمه، والخارج عن الصورة تسعة كواكب.

والبرج الثامن: العقرب أحد وعشرون كوكباً، والخارج عن الصورة ثلاثة كواكب، وصورتها تامة، ومن كواكبها قلب العقرب، كوكب نير.

والبرج التاسع: القوس ويسمى الرامي، أحد وثلاثون كوكباً خلف كواكب العقرب، وصورته صورة حيوان تركب من إنسان وفرس كأنه جسد دابة إلى العنق، ثم يبرز من مغرز العنق نصف رجل قد وضع السهم في قوسه وأغرّق في النزاع.

والبرج العاشر: الجدي ثمانية وعشرون كوكباً، وهو على النصف على صورة النصف المقدم من جدي، والثاني من مؤخر سمكة إلى ذنبها.

والبرج الحادي عشر: الدلو، يعرف بساكب الماء: اثنان وأربعون كوكباً، الخارج عن الصورة ثلاثة كواكب، وصورته صورة رجل قائم مآدّ اليدين بأحدهما كوز قد قلبه وانصبّ الماء إلى مقام رجله وجرى الماء من تحتها إلى الجنوب، ويسمى الدالي^(١) أيضاً.

والبرج الثاني عشر: الحوت أربعة وثلاثون كوكباً، والخارج عن الصورة أربعة

(١) في (ب): «الدالي».

والثالثة: الجنوب، قال: وهي التي تقابل الشمال^(١). قال: والدَّبُور الريح التي تقابل الصُّبا^(٢).

فصل

فيما بين كلِّ سماء وسماء، وما ورد في ذلك من الأنباء

قد ذكرنا مذهب الأوائل في صور الأفلاك وما يتعلق بها، وأما على مذهب المتشرعين فهي السماوات عندهم، وقد ورد في الجهة أخبار [عن العباس وأبي ذر وأبي هريرة رضوان الله عنهم فأما حديث] العباس^(٣): فقال أحمد بن حنبل: بإسناده عن العباس بن عبدالمطلب قال: كنّا جلوساً عند النبي ﷺ بالبطحاء، فمرت سحابة فقال: «تَدْرُونَ ما هذه؟» قلنا: السحاب، قال: «والمُزَن»، قلنا: والمُزَن، قال: «والعَنان» قلنا: والعَنان، قال وسكتنا، فقال: «هل تَدْرُونَ كم بين السَّمَاء والأَرْضِ؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خَمْسِ مِائَةِ سَنَةٍ، وَبَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ وَسَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِ مِائَةِ سَنَةٍ، وَكُنْتُ كُلَّ سَمَاءٍ خَمْسُ مِائَةِ سَنَةٍ، وَفَوْقَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ بَحْرٌ بَيْنَ أَعْلَاهُ وَأَسْفَلِهِ كَمَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، ثُمَّ فَوْقَ ذَلِكَ ثَمَانِيَةُ أَوْعَالٍ بَيْنَ رُكْبَتَيْهِمَا وَأُظْلَافُهُنَّ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ^(٤)، وَاللَّهُ تَعَالَى فَوْقَ ذَلِكَ، وَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ^(٥)».

وأما حديث أبي ذر: فأنبأنا جدي، قال: أنبأنا زاهر بن طاهر النيسابوري بإسناده عن أبي نُضْرَةَ، عن أبي ذرٍّ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا بَيْنَ الْأَرْضِ إِلَى السَّمَاءِ مَسِيرَةُ خَمْسِ مِائَةِ عَامٍ، وَغِلْظُ كُلِّ سَمَاءٍ خَمْسُ مِائَةِ عَامٍ، وَالْأَرْضُ مِثْلُ ذَلِكَ؛ وَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ إِلَى الْعَرْشِ مِثْلُ جَمِيعِ ذَلِكَ، وَلَوْ حَفَرْتُمْ لَصَاحِبِكُمْ ثُمَّ دَلَّيْتُمُوهُ لَوَجَدْتُمْ اللَّهَ ثَمَةً^(٦)».

(١) «الصحيح»: (جنب).

(٢) «الصحيح»: (دبر).

(٣) ما بين معكوفين من كنز الدرر ٤٣/١.

(٤) بعدها في «المسند»: «ثم فوق العرش، بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض».

(٥) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٧٧٠) وإسناده ضعيف جداً.

(٦) «العلل المتناهية» (٧) وهو منكر، وسيأتي الكلام عليه عند المصنف.

وأما حديث أبي هريرة: فقال أحمد بن حنبل: حدثنا سُريج بن يونس بإسناده عن أبي هريرة قال: بينا نحن عند رسول الله ﷺ إذ مرت سحابة فقال: «أتَدْرُونَ ما هذه؟» قلنا: الله ورسوله أعلم^(١)، قال: «الرَّقِيعُ مَوْجٌ مَكْفُوفٌ وَسَقْفٌ مَحْفُوظٌ، أَتَدْرُونَ كم بينها وبينكم؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. ثم ذكر السماوات والأرض وعدَّ ما بين كل واحدة خمس مئة عام، بمعنى حديث أبي ذرٍّ، وقال في آخره: «وَلَوْ حَفَرْتُمْ لَصَاحِبِكُمْ وَدَلَّيْتُمُوهُ بِحَبْلِ إِلَى الْأَرْضِ السَّابِعَةِ لَهَبَطَ عَلَى اللَّهِ، ثُمَّ قرأ رسولُ الله ﷺ: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾ [الحديد: ٣]^(٢)».

قلت: ليس في هذه الأخبار حديثٌ سالمٌ من الطعن، أما الحديث الأول وهو حديث العباس، فإن في طريقه يحيى بن العلاء كذاب، كذَّبه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وغيرهما، وفيه لفظ الفوقية، وقد فسَّرها أبو سليمان الخطابي فقال: معنى الفوقية القهر والغلبة.

وأما حديث أبي ذر فقال جدي في «الواهية» أيضاً: هذا حديث منكر، وكان الأعمش يروي عن الضعفاء ويدلُّسُ.

قال: وأما حديث أبي هريرة فلا يصحُّ عن رسول ﷺ، والحسن لم يسمع من أبي هريرة، وقيل للحسن: من أين تروي هذه الأحاديث؟ فقال: من كتاب عندنا سمعناه من رجل، وكان الحسن يروي عن الضعفاء. وقال أحمد بن حنبل: قد رواه أبو جعفر الرازي عن قتادة، وأبو جعفر الرازي مضطرب.

قال: ومقتضى حديث العباس أن الأرض تكون كذلك في الكثافة والبعد، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] فيكون مسافة الجميع أربعة عشر ألف سنة سوى ما في السماوات من الحجب والكرسي والعرش.

قال الخطابي: وهذا على مقدار سير بني آدم، أما المَلَك فإنه يخرقُ الجميع في

(١) بعدها في «المسند»: «قال: العَنَان، ورواها الأرض، يسوقه الله إلى من لا يشكره من عباده ولا يدعونه، أَتَدْرُونَ ما هذه فوقكم؟» قلنا الله ورسوله أعلم.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٨٨٢٨)، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٨).

ساعة^(١) وفي لحظة واحدة، وكذا الشيطان في الأرض.

وروى مجاهد عن ابن عباس، أنه سئل فقل له: كم بين كل سماء وسماء؟ فقال: الله أعلم.

وروى أبو راحة عن عليّ عليه السلام: أنه سئل كم بين السماء والأرض؟ فقال: دعوة مستجابة، قيل له: كم بين المشرق والمغرب؟ فقال: مسيرة يوم^(٢).



(١) لفظ «ساعة» ليس في (ب).

(٢) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» ٣٢/٣٩٣ ضمن خبر طويل فيه سؤال ابن الكواء لسيدنا علي عليه السلام.

فصل

في ذكر الشمس والقمر
والنجوم السيارة والثابتة والرجوم^(١)

فصل في الشمس

قال الجوهري: الشمس معروفة^(٢).

ذكر خلق الشمس: روي عن كعب الأحبار قال: في التوراة، لما أراد الله أن يخلق الشمس والقمر قال للسماء: أخرجي شمسي وقمرك.

وعن عليّ عليه السلام موقوفاً عليه قال: خُلِقَتِ الشمس والقمر من نور العرش^(٣).

وقد روي فيما يتعلق بالشمس أخبار وآثار، فأما الأخبار فلا يثبت منها إلا حديث واحد:

قال البخاري بإسناده عن أبي ذرّ قال: كنت مع النبي ﷺ في المسجد حين وجبت الشمس فقال: «يا أبا ذرّ، أتدري أين تذهب هذه الشمس؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «إنها تذهب حتى تسجد بين يدي ربّها فتستأذن في الرجوع فيؤذن لها». أخرجه في الصحيحين^(٤).

وأخرج البيهقي عن ابن عمر بمعناه، وفيه: نظر النبي ﷺ إلى الشمس قد غابت فقال: «في عين الله الحامية، لولا ما يزعمها من أمر الله لأهلك ما على وجه الأرض^(٥)». ومعنى يزعمها: يكفها ويردعها.

ومعنى الحديث: أنّ النبي ﷺ أخبر عن مغيبها في النار الحامية، لا أنه دعا

(١) انظر «كنز الدرر» ١/ ٤٤.

(٢) جاء بعدها في «كنز الدرر»: «ويقال لها: ذكاء، لأنها تذكو كما تذكو النار، ولذلك يسمى النهار: ابن ذكاء، قال: وهي ممدودة غير مصروفة لا تدخلها الألف ولا اللام» وانظر «الصحيح»: (ذكي).

(٣) لم نقف عليه عن علي، وأخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦٠٦٢) من حديث أنس مرفوعاً.

(٤) البخاري (٣١٩٩)، ومسلم (١٥٩).

(٥) لم نقف عليه فيما بين أيدينا من كتب البيهقي، وأخرجه أحمد في «مسنده» (٦٩٣٤) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص.

عليها^(١).

وأما الأخبار الواهية: فمنها ما أنبأنا به جدي رحمه الله بإسناده إلى أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «قد وُكِّلَ الله بالشَّمْسِ سبعة أملاكٍ يَقْدِفُونَهَا بِالنَّجِجِ، ولولا ذلك ما أَتَتْ على شيءٍ إلا أَحْرَقَتْهُ»^(٢).

ومنها: ما أنبأنا به جدي رحمه الله بإسناده عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «الشَّمْسُ والقَمَرُ ثَوْرَانِ عَقِيرَانِ مِنَ النَّارِ»^(٣) وفي رواية: «يُؤْتَى بهما يوم القيامة فيكوّران في النار». والعقير: المجروح.

ومنها ما ذكره أبو جعفر الطبري في «تاريخه» فقال: حدثني محمد بن أبي منصور بإسناده عن عكرمة عن ابن عباس، قال عكرمة: كنت جالساً عنده إذ جاءه رجلٌ فقال: يا ابنَ عباس سمعتُ كعبَ الأخبارِ يقول: إِنَّ الشَّمْسَ والقَمَرَ يكوّران يومَ القيامةِ وَيُلْقِيَانِ فِي النَّارِ، وكان ابن عباس متكئاً فاحتفز - أي: جلس واجتمع - وقال: كذب كعبٌ - ثلاثاً - بل هي يهوديته يريدُ إدخالها في الإسلام، الله أَجَلٌ وأَكْرَمٌ من أن يعذَّبَ أحداً على طاعته، ألم تسمع إلى قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ [إبراهيم: ٣٣] أي: طائعين^(٤)، فكيف يعذَّبُ مَنْ أَثْنَى عليه؟

ثم قال: ألا أحدثكم بما سمعتُ من رسول الله ﷺ، سمعته يقول: «لما أُبرِمَ خَلْقُهُ غَبَرَ آدمُ خَلَقَ شَمْسَيْنِ من نورِ عرشِهِ، فأَمَّا ما كان في سابقِ علمه أن يدعها شمساً فإنه خَلَقَهَا مثلَ الدنيا ما بينَ مشارِقِها ومغارِبِها، وأَمَّا ما كان في سابقِ عِلْمِهِ أن يَطْمِسَهَا ويحوّلها قمراً فإنه دونَ الشَّمْسِ في العِظَمِ وإنما يُرى صغيراً لشدة ارتفاع السماءِ وبُعْدِها من الأرضِ، فلو تَرَكَ اللهُ الشَّمْسَ كما كان خَلَقَهَا لم يُعْرِفِ الليلُ من النَّهَارِ، ولا النَّهَارُ من الليلِ، وكان لا يَدْرِي الأَجِيرُ إلى متى يعملُ ومتى يأخذُ أجرته، ولا يَدْرِي الصَّائِمُ إلى متى يَصُومُ، ولا تَدْرِي المرأةُ كيف تَعْتَدُّ، ولا يَدْرِي المسلمون متى وقتُ

(١) المنتظم ١/ ١٨٦.

(٢) «العلل المتناهية» (٢٩).

(٣) «العلل المتناهية» (٣٠)، و«الموضوعات» (٢٩١)، و«المنتظم» ١/ ١٨٧.

(٤) (ب): مطيعين.

الحجّ، ولا متى تحلّ ذُبُونُهُمْ؛ فنظّر الله تعالى لعباده، فأرسل جبريلَ فأمرَ جناحه على وجه القمرِ فطمسَ عنه الضوءَ وبقيَ فيه النورُ، فذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا أَلِيلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ﴾ [الآية: الإسراء: ١٢] فالسوادُ الذي ترونه في القمرِ شبهُ الخطوطِ فهو أثرُ المحوِّ.

قال: ثم خلق الله للشمسِ عَجَلَةً من نورِ العرشِ لها ثلاث مئة وستون عُرْوَةً، ووكل بالشمسِ وعَجَلَتِهَا ثلاث مئة وستين مَلَكًا، قد تَعَلَّقَ كُلُّ واحدٍ منهم بعُرْوَةٍ، وخلق للقمرِ أيضاً كذلك، وخلق لهما مشارقَ ومغاربَ ثمانين ومئة عينٍ في المغربِ طينةً سوداءَ فذلك قوله: ﴿وَجَدَهَا تَقَرَّبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [الكهف: ٨٦] وثمانين ومئة عينٍ في المشرقِ مثل ذلك [تفوز كغليان القدرِ، فكل يومٍ وليلةٍ لهما مطلعٌ جديدٌ ومغربٌ جديدٌ، فذلك قوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٧] ثم جمع فقال: ﴿الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠].

قال: وخلق الله مجرىً دونَ السماءِ، يعني: بحرًا، مقدارَ ثلاثةِ فراسخٍ، وهو موجٌ مكفوفٌ قائمٌ في الهواءِ كأنه جبلٌ ممدودٌ، فتجري فيه الشمسُ والقمرُ والحُسنُ، فذلك قوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

والذي نفسُ محمدٍ بيده، لو بدتِ الشمسُ من ذلك البحرِ لأحرقت كلَّ شيءٍ في الأرضِ حتى الصُّخُورَ والحجارةَ، ولو بدا القمرُ من ذلك البحرِ لافتتن أهلُ الأرضِ به حتى يعبدوه من دون الله.

قال ابن عباس: وكان عليُّ بن أبي طالبٍ عليه السلام حاضراً فقال له: يا رسول الله ذكرت الحُسنَ فما هنَّ؟ فقال: «خمسة كواكب، البرجيسُ وزُحل وعطارد وبهرام والزهرة، جارياتُ طالعاتُ كالشمسِ والقمرِ، فأما سائرُ الكواكبِ فمعلقاتُ في السماءِ كالقناديلِ في المساجدِ»^(١).

قال: وقال النبي ﷺ: «خلق الله مدينتين: إحداهما بالشرق، والأخرى بالمغرب، جابرسا وجابلقا، لكل واحدةٍ منهما عشرةُ آلافِ باب، وعلى كلِّ بابٍ عشرةُ آلافِ فارسٍ ووراءهم أُممٌ يقال لهم: منسك وتاريس وتاويل، ومن وراءهم يأجوج ومأجوج. وذكر ابن جرير حديثاً طويلاً مقدارَ كراسة، وفيه: طلوعُ الشمسِ من مغربها

(١) «تاريخ الطبري» ٦٢/١، و«العظمة» لأبي الشيخ (٦٢٧) وما بين حاصرتين منهما.

وبابُ التوبة، فقال له عمر بن الخطاب: وما باب التوبة؟ ففسّره، وقال: «من المصراع إلى المصراع مسيرة أربعين سنة للراكب المجّد» وذكر الصور، فقال له حذيفة بن اليمان: يا رسول الله، وما الصور؟ ففسّره، وفي آخر الحديث: فبلغ كعباً فأتى إلى ابن عباس يعتذر ويقول: إنما حدّثتُ من كتابِ دارسٍ تداولته الأيدي، وأنت حدثت عن رسول الله ﷺ، وذكر كلاماً طويلاً^(١).

قلت: أما حديث أبي أمامة فقال جدي في «الواهية»: في إسناده مسلمة بن علي، قال: قال ابن معين والنسائي: ليس بشيء، وتركاه^(٢).

وأما حديث أنس ففي إسناده درست بن زياد عن يزيد الرقاشي، وهما ضعيفان، قال ابن حبان وابن معين: لا يحلّ الاحتجاجُ بحديثِ درست^(٣).

وأما الحديث الذي رواه ابنُ جرير الطبري عن ابن عباس فالعجب من ابن جرير مع معرفته بالأحاديث كيف أورد مثل هذا عن رسول الله ﷺ؟ ولم يشغله نزوع حديثه وروايته وقصده بحسب كتابه عن ذكر مثل هذه الألفاظ التي تنفر منها العقول السليمة وتقشعر منها الجلود، ومن وقف على الحديث من «تاريخه» فهم ما قلت.

ثم هذا الحديث الذي رواه يعرف بحديث حذيفة بن اليمان، وقد ذكره جدي في «الموضوعات» فقال: حدثنا محمد بن ناصر بإسناده إلى عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه وحذيفة وابن عباس: أنهم كانوا جلوساً ذات يوم، فجاء رجلٌ فقال: إني سمعت العَجَبَ، فقال له حذيفة: وما ذاك؟ قال: سمعت رجلاً يقولون: يجاء بالشمس والقمر يوم القيامة كأنهما ثوران عقيران فيقذفان في جهنم، فقال عليّ وابن عباس وحذيفة: كذبوا، الله تعالى أجلّ وأكرم أن يعذب على طاعته، فقال حذيفة: بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ سئل عن ذلك فقال: «إنَّ الله لما أبرم خلقه فلم يبقَ من خلقه غير آدم، خلَقَ شمسَين من نور عرشه، فأما التي كان في سابق علمه أن يطمسها ويحوّلها قمراً فإنه خلَقها دون الشمس في الضوء». قال جدي وذكر حديثاً طويلاً نحواً من جزء،

(١) «تاريخ الطبري» ١/ ٦٥ - ٧٥.

(٢) «العلل المتناهية» ١/ ٤٦.

(٣) «العلل المتناهية» ١/ ٤٧.

وفيه: «أَنَّ اللَّيْلَةَ الَّتِي تَطْلُعُ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا فِي صَبِيحَتِهَا»^(١) ومعها القمر ثم يعادان». ثم قال: وهذا حديث موضوع على رسول الله، ﷺ وفي إسناده ضعفاء ومجهولون. وعمر بن صبح كان يضع الأحاديث وذكر غيره^(٢).

قلت: والمنقول مثل هذه الألفاظ عن ابن عباس فلو وقفوه عليه كان أولى، وإنما رفعوه إلى رسول الله ﷺ، وحوشي منصبه الكريم عن مثله، وواضعه ما قصد به إلا شين الشريعة، وإلا فمن أين في الدنيا مدينة يقال لها: جابر سا، لها عشرة آلاف باب، بين كل بايين فرسخ، وفي كل باب عشرة آلاف حارس، وما أشبه ذلك.



وأما الآثار: فروى مجاهد عن ابن عباس قال: للشمس ثلاث مئة وستون مشرقاً ومغرباً، وكذا القمر، فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقِيمُ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠]^(٣) فأما قوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٧] فإنما أراد مشرق كل واحد منهما ومغربه.

وروى الضحاك عن ابن عباس قال: لا تطلع الشمس كل يوم إلا وهي كارهة تقول: يا إلهي لا تطلعني على عباد يعصونك، حتى إنها لتقف عند الطلوع فيدفعها ثلاث مئة وستون ملكاً حتى تطلع^(٤).

وذكر الثعلبي عن ابن عباس قال: تطلع الشمس كل سنة في ثلاث مئة وستين كوة، لا ترجع إلى تلك الكوة إلى ذلك اليوم من العام القابل^(٥).

قلت: وفي الشمس دلائل ومنافع، فمن الدلائل: أنها واحدة، ونورها يضيء على جميع العالم، كذلك البارئ سبحانه وتعالى واحد

(١) جاء بعدها في «الموضوعات»: «تكون بقدر ثلاث ليال، ولا يعرف طولها سوى المتعبدين فيستغيث بعضهم إلى بعض، وإن الشمس تطلع من مغربها».

(٢) «الموضوعات» (٢٩٠).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٢٨٣/٢٣ من طريق عكرمة.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٢٨٣/٢٣ من طريق عكرمة أيضاً.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٢٨٣/٢٣-٢٨٤.

وهو يُدبّر العالم.

والثاني: أن ذات الشمس مِنَّا بعيدة وضوءها قريب، كذلك الله سبحانه وتعالى بعيد من الخلق بالذات قريب بالإجابة.

والثالث: أن ضوءها غير ممنوع عن أحد، كذلك رزق الله تعالى لا يمتنع عن أحد.

والرابع: أن كسوفها دليل على وجود القيامة، وغروبها يدل على ظلمتها.

والخامس: أن السحاب يغطيها، وكذا المعاصي غطاء المعرفة.

فأمّا منافعها فكثيرة:

أحدها: أنها سراج العالم، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦].

والثانية: أنها طبّاخ لأطعمتهم من غير كلفة ومنضج لثمارهم.

والثالثة: تسير من المشرق إلى المغرب لمصالحهم.

والرابعة: أنها لا تقف في مكان واحد لئلا تضرّ بالخلق.

والخامسة: أنها تكون في الشتاء في أسفل البروج وفي الصيف في أعلاها لمنافع

العالم.

والسادسة: أنها لا تجتمع مع القمر في سلطانه لئلا يُبطل كل واحد منهما ضوء

الآخر.

فإن قيل: فهي في الفلك الرابع فلم لم تحجبها السماوات ويحجبها الغيم؟ قلنا:

السّماوات جواهر لطيفة شقّافة، والغيم كثيف لأنّه يتصاعد من الأرض. وقد حدّ

أفلاطون الشمس فقال: هي فلك محشو ناراً يخرج منه اللهب.

فصل في القمر

قال علماء اللغة كالزجاج والفراء والأصمعي وغيرهم: إنما سمي القمر: قمراً

لبياضه، والأقمر الأبيض، وليلة قمرأ أي: مُضيئة، قال ابن قتيبة^(١): يقال له في الليلة

(١) جاء بعدها في «كتر الدرر» ١/ ٥٠: «والهلال أول ليلة، والثانية والثالثة، ثم هو قمر بعد ذلك إلى آخر

الشهر، وتصغيره قمر، وجمعه أقمار».

الرابعة عشرة: بدر، لتمامه، ومنه البَدْرَة، وكل شيء تَمَّ فهو بدرٌ مجازاً، وفي القمر حقيقة^(١).

وقال الجوهري: إنما سمي بدرًا لمبادرته الشمس بالطلوع، كأنه يُعجلها المغيب^(٢).

وقال الفراء: هو في أول ليلة هلال ثم قمير ثم قمر ثم بدر.

حديث ضُرب المثل به: قال البخاري بإسناده عن أبي هريرة قال: قال الناس: يا رسول الله، هل نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فقال: «هَلْ تُمَارُونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ؟» قالوا: لا، قال: «فَهَلْ تُمَارُونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟» قالوا: لا، قال: «فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ». أخرجاه في «الصحيحين»^(٣). وهو حديث طويل. وقد رواه جماعة من الصحابة بألفاظ مختلفة^(٤).

فإن قيل: فهلا ضُرب المثل بالشمس وهي أضوأ وأتمُّ نوراً فإن نور القمر منها، فالجواب من وجوه:

أحدها: أن نور الشمس يغلبُ على الأبصار فلا تتمكّن من النظر، فيفوت المقصود، بخلاف القمر فإنّ العيون تتمكّن من النظر إليه.

والثاني: لأنّ من انكسر لأجل الحقّ سبحانه فعليه جبره، ولَمَّا طَمَسَ جبريل ضوء القمر بجناحيه انكسر قلبه لأنه كان يضاهي ضوء الشمس، فجبره الله تعالى بشيئين: أحدهما: أنه جَعَلَ العيون تنظر إليه في الدنيا في أوّل كلّ شهر، والثاني: أنه أمر نبيّه ﷺ بأن يضرب به المثل في أعظم الأشياء وأعلاها.

فإن قيل: فقد قال الله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْآبْصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْآبْصَرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] قلنا: إننا لا ندّعي أنّ الأبصار تدركه بمعنى تحيط به، وإنما المدرك

(١) «أدب الكاتب» ص ٨٨-٨٩.

(٢) «الصحاح»: (بدر).

(٣) البخاري (٨٠٦)، ومسلم (١٨٢).

(٤) منها ما أخرجه البخاري (٤٥٨١) ومسلم (١٨٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وانظر للتوسع كتاب «الرؤية» للدارقطني.

نفس النظر، لأنّ الباري سبحانه يستحيل عليه الحدود.

وفي القمر فوائد منها: أنّه سراج للخلق بالليل ومعجزة نبينا ﷺ لقوله تعالى: ﴿وَأَنشَقَّ الْقَمَرَ﴾ [القمر: ١] وقدره منازل يُعرَف بها المواقيت، ومحا من نوره تسعة وتسعين جزءاً لقوله تعالى: ﴿فَحَوَّنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢] ولولا ذلك لانبسط الناس في معاشهم ليلاً ونهاراً فأذى الحريص كده.

وقد ذكر الطبري معنى هذا عن علي رضي الله عنه فقال: حدثنا ابن حميد بإسناده عن أبي الطفيل قال: قال ابن الكواء لعلي: يا أمير المؤمنين ما هذه اللطخة التي في القمر؟ فقال: ويحك أما تقرأ ﴿فَحَوَّنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ فهذه محوّه^(١).

وفيه عيوب: منها أن النّوم فيه منكشفاً يورث البرص، ومنها: أنه يبلي الكتان، إلى غير ذلك.

وقيل: إنّ نوره من الشمس، وهو الظاهر.

فصل في منازل القمر

قال الله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٩] وقد ذكر ابن قتيبة وغيره منازل القمر فقالوا: هي ثمانية وعشرون منزلاً من أول الشهر إلى أن يستسرّ، وتسميها العرب نجوم الأخذ، لأن القمر يأخذ كل ليلة منها في منزل، وأسمائها: الشّرطان، والبطين، والثريّا، والدبران، والهقعة، والهنة، والذراع، والنثرة، والظرف، والجبهة، والزبرة، والصرفة، والسماك، والعواء، والغفر، والزباني، والإكليل، والقلب، والشولة، والنعائم، والبلدة، وسعد السعد، وسعد الدابح، وسعد الأخبية، وسعد بلع، وفرغ الدلو المقدّم، وفرغ الدلو المؤخّر، والرشاء، وهو الحوت^(٢).

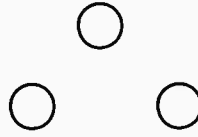
تفسير هذه المنازل

أولها: الشّرطين، كذا ذكر ابن قتيبة بضم الشين، والشّرط العلامة، لأنها علامة

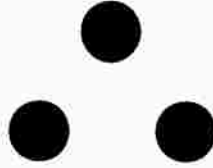
(١) الطبري ١/ ٧٥.

(٢) «أدب الكاتب» ص ٨٦-٨٧.

ابتداء الأمطار. وقال أبو معشر: الشَّرَطَيْنِ كوكبان مفترقان، أحدهما في ناحية الجنوب والآخر في ناحية الشمال، وهما قرنا الحَمَل، ويسمى أضوأهما النَّاطِح، وفي رأي العين إذا توسَّط السَّماء كان بينهما مقدار عشرة أذرع، وقريب من السَّمَك كوكب صغير يقدُّمهما أحياناً وهذه صورته:



وَأَمَّا الْبَطِين، فقال الجوهري: هو ثلاث كواكب صغار طمسُ مستوية التثليث، وهي بطن الحَمَل، وإنما صغر لأنَّ الحمل نجومٌ كثيرة على صورة الحمل، فالْبَطِين بطنه، والثُّرَيَّا أليته، والشَّرَطَيْنِ قرناه. وصورة الْبَطِين:



وأما الثريا: فسبعة أنجم، ستة منها ظاهرة وواحد خفي، يمتحن به الناس أبصارهم. وقال أبو معشر: إنما سميت الثريا من الثروة، وهي كثيرة الندى والبَلَل، ولها أسامي منها النجم وإن كان في العدد نجوماً.

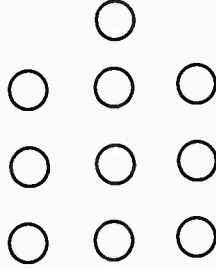
وذكر أبو إسحاق الثعلبي أن المراد بقوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١] أنه الثريا في أحد الأقوال، وحكاها عن ابن عباس. والعرب تسمي الثريا نجماً، وإن كان نجوماً في العدد، وسمّاها رسول الله ﷺ نجماً:

أنبأنا جدي، أنبأنا أبو القاسم الحريري بإسناده عن سَمُرَةَ بن جُنْدَب قال: قال

رسول الله ﷺ: «إذا طَلَعَ النُّجْم ارتَفَعَت العَاةُ يعني الثُّرَيَّا^(١)» وأراد عن الثمار.

ومنها: العنقود والقدم، وقال امرؤ القيس^(٢):

إذا ما الثُّرَيَّا في السماءِ تعرّضت يراها صغير^(٣) العين سبعة أنجم
على كبدِ الجرباء وهي كأنها جبيرةٌ دُرٌّ ركبَت فوقَ معصم
وصورة الثُّرَيَّا:



قال ابن قتيبة: والكفّ الحَضِيْبُ كف الثُّرَيَّا المبسوطة، ولها كفّ أخرى يقال لها: الجَذْمَاءُ، وهي أسفل من الشَّرَطَيْنِ^(٤).

وقال الجوهري: والعَيُوقُ نجم أحمرٌ مضيء من طرف المجرة الأيمن يتلو الثُّرَيَّا لا يتقدّمها، وأصله فيُعُول^(٥).

وقال ابن قتيبة: العَيُوقُ نجم كبير مضيء وقاد وعلى أثره ثلاثة كواكب يقال لها: الأَعْلَامُ، وهي توابع العَيُوق، وأسفل العَيُوقُ نجم يقال له: رِجْلُ العَيُوق، وليس العَيُوق من منازل القمر. وإنما ذكرناه هاهنا لقربه من الثُّرَيَّا.

وأما الدَّبْران: فآلية الحمل، وقيل: إنما سُمِّيَ به لأنه استدبر الثُّرَيَّا.

(١) لم نقف عليه في أي من كتب ابن الجوزي التي بين أيدينا، ولم نجد من أخرج هذا الحديث عن سمرة بن جندب، وأخرجه أحمد في «مسنده» (٨٤٩٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

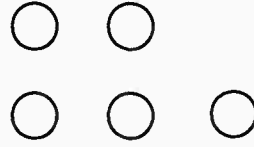
(٢) البيتان في «الأزمنة والأمكنة» ٣٠٦/٢، و«نهاية الأرب» ٦٧/١، منسوبين إلى المبرد. وورد في ديوان امرئ القيس الشطر الأول من البيتين فقط ص ١٤، وهو من معلقته المشهورة، وتماه: تعرض أثناء الوشاح المفصل.

(٣) في المصادر السابقة: «الحديد».

(٤) «أدب الكاتب» ص ٩٢.

(٥) «الصحاح»: (عوق).

وقال ابن قتيبة: هي خمسة كواكب في الثور يقال: إنها سنامه. وكذا الجوهري^(١).
قال ابن قتيبة: وصورته:



وقال غيره: هو كوكب أحمر وصورته: 
ويسمى الدبران: الفنيق، وهو الجمل العظيم، وقدامه كواكب صغار تسمى
القلاص، وهي النوق الصغار، فإذا اجتمعت صارت في الصورة كأنها رأس بقرة،
وهي تعقب الثريا.

وأما الهقعة: فقال الجوهري: هي ثلاثة أنجم نيرة بعضها قريب من بعض، وهي
رأس الجوزاء^(٢)، كأنها ثلاثة أصابع مجتمعة، وصورته:



وقيل: هي الدائرة التي تكون في جنب الدابة عند رجل الفارس. وسئل ابن عباس
عن من طلق امرأته عدد نجوم السماء فقال: يكفيه هقعة الجوزاء. وهي نور عظيم.
وأما الهنعة: فقال الجوهري: هي منكب الجوزاء الأيسر، وهي خمسة أنجم
مصطفة^(٣). وقيل: هي كوكبان كبيران بينهما ثلاثة صغار، والظاهر أنها خمسة
وصورتها:

(١) «الصحاح»: (دبر).

(٢) «الصحاح»: (هقع).

(٣) «الصحاح»: (منع).



وإنما سميت: الهَنَعَةُ لأنَّ كل واحدٍ منها ينعطف على صاحبه، يُقال: هَنَعْتُ الشيءَ، أي: عطفته.

وأما الذراع: فقال الجوهري: هو ذراع الأسد، وهما كوكبان نيَّران^(١). وقال غيره: كوكبان بينهما كواكب صغار يقال لها: الأظفار، كأنَّها مخالب الأسد، بينهما في رأي العين قيد شَوُطٍ، وهما ذراعان إحداهما مبسوطة والأخرى مقبوضة ليست على سمت الذراع الأخرى كأنَّها منقبضة عنها، والمبسوطة أرفع في الشمال، يقال للنيَّار منها: الشَّعْرَى الغَمِيضَاءُ لأنها لما عجزت عن عبور المجرَّة واللاحق بصاحبتهما وهي الشَّعْرَى العَبُور بكت حتَّى غمصت، وقيل: إنما بكت لأنها لم تلحق بسهيل.

وأما النَّثْرَة: فقال الجوهري: هما كوكبان بينهما قدر شبر، وفيهما لطخٌ بياض كأنه قطعة من سحاب، وهي أنف الأسد^(٢). وقيل: هي ثلاث كواكب، وصورته:



وهي بين فم الأسد ومنخريه، ويقال له: مخططة الأسد.

وأما الظَّرَف: فقال الجوهري: هما كوكبان يقدمان الجبهة وهما عينا الأسد^(٣). وقيل: بينهما قدر قامة، صورتها:

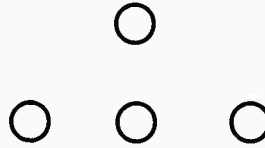
(١) «الصحاح»: (ذرع).

(٢) «الصحاح»: (نثر).

(٣) «الصحاح»: (طرف).



وأما الجُبْهة: قال الجوهري: هي جبهة الأسد، وهي أربعة أنجم^(١). وقال غيره: أحدها نجم براق، وهو اليماني، بين كل كوكبين في رأي العين قدر شوط، ويقال لها: نوء الأسد، وهي تعقب الطَّرف، وصورتها:



وأما الزُّبْرة: فقال الجوهري: هما كوكبان نيَّران، هما كاهلا الأسد^(٢). وقال غيره: هما موضع الشعر من أكتافه، وبينهما في رأي العين مقدار شوط، وصورتها:



وأما الصَّرْفة: فقال الجوهري: هي نجم واحد نيَّر تلقاء الزُّبْرة^(٣). وقال غيره: هي قلب الأسد، وإنما سمي صرفة لانصراف البرد بها وإقبال الحرِّ، وقيل: وبطلوعها ينصرف الحرِّ، وصورته:



وأما العَوَّاء: فقال الجوهري: هي خمسة أنجم، يقال: إنها ورك الأسد^(٤).

(١) «الصَّحاح»: (جبه).

(٢) «الصَّحاح»: (زبر).

(٣) «الصَّحاح»: (صرف).

(٤) «الصَّحاح»: (عوى).

وصورته:



وأما السَّمَاكُ: فقال الجوهري: هما سِمَاكان نَيْرَان: سَمَاكُ الأَعْزَل، وهو من منازل القمر، وسَمَاكُ الرَّامِحِ، وليس من منازل القمر، وهما كوكبان، ويقال إنهما رَجُلَا الأَسَد^(١).

وقال أبو معشر: الرامح أحد ساقِي الأَسَد، والآخر الساق الآخر، ومع الرامح كوكب قدامه هو رَمَحُه، والأَعْزَلُ معْزَلٌ عن الكواكب ليس يقاربه كوكب، وسمي: الأَعْزَلُ، لأنه لا رَمَحَ له، وسمِّي سِمَاكاً، لأنه سَمَكٌ في السماء أي: ارتفع. وصورة الأَعْزَل:



وصورة الرامح:



قال: وخلف الرامح نجم يقال له: الفَكَّةُ، وهو كواكب مستديرة، ويسمَّى قِصْعَةُ المَسَاكِينِ.

وقال ابن قتيبة: إنما الفَكَّةُ قَدَّامُ الرَّامِحِ.

قال الجوهري: وعَرِشُ السَّمَاكِ أربعة كواكب صغار أسفل من العَوَّاءِ، يقال لها:

(١) «الصَّحاح»: (سَمَك).

عجز الأسد^(١).

وقال ابن قتيبة: السَّمَاكُ الأعزل حُدُّ ما بين الكواكب اليمانيَّة والشَّاميَّة.
وأَمَّا العَفْرُ: فقال الجوهري: هو ثلاثة أنجم صغار ينزلها القمر، وهي من
الميزان^(٢). وقال غيره: هي مأخوذة من الغفرة، وهي الشعرة التي في طرف ذنب
الأسد، وصورته:



وأَمَّا الزَّبَّانِي: فقال الجوهري: وزبانيا العقرب قرناها^(٣) وقال النوبختي: هما
كوكبان نيران



وأما الإكليل: فأربعة أنجم مصطفة، وهذه صورته:



كذا قال الجوهري^(٤)، وقال غيره: هو ثلاثة، وهو رأس العقرب كأنه الإكليل على
الرأس.

وأَمَّا القلب: فقلب العقرب، وهو كوكب نيّر، وإلى جانبه كوكبان، وصورته:



(١) «الصحاح»: (عرش).

(٢) «الصحاح»: (غفر).

(٣) «الصحاح»: (زين).

(٤) «الصحاح»: (كلل).

وأما الشُّولة: فقال الجوهري أيضاً: هي كوكبان نيران متقاربان يقال لهما: حُمة العقرب^(١):



وقال النُّوبختي: هما ذنب العقرب مأخوذ من الشُّول، وهو الارتفاع، كأنها شائلة أي: مرتفعة.

وأما النَّعائم: فقال الجوهري: هي ثمانية أنجم كأنها سرير معوجّ، أربعة صادرة وأربعة واردة^(٢).

وقال أبو معشر: هي خارجة عن المجرة كأنها شربت ثم صدرت. وقال النُّوبختي: هي شبيهة بالخشب التي تكون معلقة على رأس البئر يُعلّق فيها البكرة والحبال، وتسمّى النَّعائم.

وأما البَلْدة: فقال الجوهري: هي ستّة أنجم من القوس تنزلها الشمس في أقصر يوم من السنة^(٣).

وقال النُّوبختي: البَلْدة الفرجة بين الحاجيين، وصورتها:



وأما سعد الذابح: فقال الجوهري: هما كوكبان نيران بينهما مقدار ذراع، وفي نحر كلّ واحد منهما نجم صغير قريب منه، كأنه يذبحه فسمّي ذابحاً لذلك^(٤). وصورته:

(١) «الصحاح»: (شول).

(٢) «الصحاح»: (نعم).

(٣) «الصحاح»: (بلد).

(٤) «الصحاح»: (ذبح).



وأما سعد السُّعُود: فكوكب واحد نيرٌ مفرد يتنزَّل بالسَّعادة، وصورته:

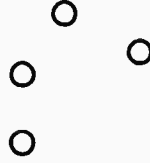


وأما سعد بُلَع: فكوكب واحد كأنه فم مفتوح يريد أن يبلع شيئاً، وصورته:



وأما سعد الأَخْيِيَّة: فثلاثة أنجم كأنها أثافي، ونجم رابع تحت واحد منهم

وصورته:



وقيل: هما كوكبان. ومنهم من قال: أوَّل السُّعُود، سعد السُّعُود، ثم سعد الذَّابِح،

ثم سعد الأَخْيِيَّة، ثم سعد بُلَع.

وقال الجوهري: وسُعود النجوم عشرة، أربعة منها في برج الجدي^(١) ينزلها القمر

وذكر الأربعة، قال: وأما الستة التي ليست من منازل القمر فسعد ناشِرة، وسعد المَلِك

وسعد البِهام وسعد الهُمَام وسعد البَارِع وسعد مَطَر. قال: وكل سعد من هذه الستة

كوكبان، بين كل كوكبين في رأي العين مقدار ذراع، وهي متناسقة^(٢).

(١) جاء بعدها في «الصَّحاح»: «والدُّلو».

(٢) «الصَّحاح»: (سعد).

وأما فَرَّغ الدلو المَقْدَم والمؤخَّر: فكل واحد منهما كوكبان، بين كل كوكب مقدار خمسة أذرع في رأي العين، كأنهما يفرغان من الدلاء. وقال الجوهري: والفرغ مخرج الماء من الدلو بين العراقي، قال: ومنه يسمّى الفرغان^(١).

وأما الرِّشاء: فقال الجوهري: هي كواكب كثيرة صغار على صورة السمكة يقال لها: بطن الحوت، وفي سرّتها كوكب نير، ينزله القمر^(٢).

فهذه منازل القمر يقطعها في كل شهر، ويكون القمر في كل ليلة حذاء واحد منها أو قريباً منه ثمّ ينتقل في الليلة الثانية إلى ما بعده، ويكون منها فيما بين طلوع الشمس إلى غروبها أربعة عشر، وفيما بين غروبها وطلوعها أربعة عشر^(٣)، وفي وقت الفجر منزلان منها، وكلها تطلع من المشرق وتغرب في المغرب، وتكون وقت طلوعها إلى يسرة المصلي، ووقت غروبها على يمينه، بحسب اختلاف الأقاليم. والشمس أيضاً تنزل هذه المنازل.

فصل

والعرب تسمّي هذه المنازل الأنواء: وقال ابن قتيبة: إنما سمّي النوء نوءاً لأنه إذا سقط الغارب ناء الطالع^(٤). أي: نهض.

وقال الجوهري: والنوء سقوط نجم من المنازل في المغرب مع الفجر وطلوع رقبه من المشرق يقابله من ساعته في كلّ ليلة إلى ثلاثة عشر يوماً، وهكذا كل نجم منها إلى انقضاء السنّة، ما خلا الجبهة فإنّ لها أربعة عشر يوماً. قال: وقال أبو عبيد: لم يسمع في النوء أنه السقوط إلّا في هذا الموضع، وكانت العرب تضيف إليها الأمطار والرياح والبرد والحرّ، وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: مطرنا بنوء كذا^(٥).

(١) «الصحاح»: (فرغ).

(٢) «الصحاح»: (رشو).

(٣) في (ب): «أربعة وعشرون».

(٤) «أدب الكاتب» ص ٨٧.

(٥) «الصحاح»: (نوا)، و«غريب الحديث» ١/ ٣٢١. ولم يذكر القول عن سيدنا عمر بن الخطاب، إنما ذكرناه حكاية عن قول العرب.

فصل في مطالعها

قال النوبختي: طلوع الشَّرَطِين^(١) لتسع عشرة خلت من نيسان، وتنزل الشمس يومئذ الإكليل، وطلوع البُطَيْن لليلة إن بقيت منه. وطلوع الثُّرَيَّا لثلاث عشرة من أيار وتستسرُّ بعد ما سقط عند المغرب خمسين ليلة، ثم تظهر بالغداة من المشرق، فإذا توسَّطت السَّماء مع غروب الشمس اشتدَّ البرد وترتفع العاهات عن الثمار، وقد روينا أنَّ النبي ﷺ قال: «إِذَا طَلَعَ النَّجْمُ ارْتَفَعَتِ الْعَاهَةُ»^(٢).

وطلوع الدَّبَرَان لست وعشرين من أيار. وطلوع الهَقَّة لثمان خلون من حَزِيرَان^(٣). وطلوع الهَنْعَة لإحدى وعشرين منه^(٤). وطلوع الذَّرَاع لأربع خلون من تَمُوز. وطلوع الثَّرة لسبع عشرة ليلة خلت منه مع طلوع الشَّعْرَى العبور. وطلوع الطَّرْف لأوَّل ليلة من آب. وطلوع الجَبْهَة لأربع عشرة ليلة خلت منه. وطلوع الزُّبْرَة لتسع وعشرين منه^(٥). وطلوع الصَّرْفَة لثمان خلون من أيلول^(٦). وطلوع العَفْر لتسع عشرة ليلة خلت منه^(٧). وطلوع الزَّبَّانِي لليلتين إن بقيتا منه^(٨). وطلوع الإكليل لاثنتي عشرة من تشرين الأول^(٩). وطلوع القلب لخمس وعشرين منه^(١٠). وطلوع الشُّوْلَة لثمان^(١١) من تشرين الثاني. وطلوع النعائم لإحدى وعشرين منه^(١٢). وطلوع البلدة لثلاث خلون من كانون

(١) في (ب) و(ل): «البطين» والمثبت من (ط)، وانظر الأنواء ص ١٨.

(٢) تقدم تخريجه عند الكلام على الثريا ص ١٨٠.

(٣) في «الأنواء» ص ٤١: لتسع ليال.

(٤) في «الأنواء» ص ٤٢: لاثنتين وعشرين ليلة.

(٥) في «الأنواء» ص ٥٩: لأربع ليال يقيين من آب.

(٦) في «الأنواء» ص ٥٩: لتسع ليال تخلو من أيلول.

(٧) في «الأنواء» ص ٦٧: لثماني عشرة ليلة تخلو من تشرين الأول.

(٨) في «الأنواء» ص ٦٨: آخر ليلة من تشرين الأول.

(٩) في «الأنواء» ص ٦٩: لثلاث عشرة ليلة تخلو من تشرين الآخر.

(١٠) في «الأنواء» ص ٧٠: لست وعشرين ليلة تخلو من تشرين الآخر.

(١١) في (ب): «لثماني عشرة»، و في «الأنواء» ص ٧٢: لتسع ليال تخلو من كانون الأول.

(١٢) في «الأنواء» ص ٧٤: لاثنتين وعشرين ليلة تخلو من كانون الأول.

الأول^(١). وطلوع الذراع لست عشرة ليلة خلت منه^(٢). وطلوع سعد السعود لتسع وعشرين منه^(٣). وطلوع سعد الذابح لإحدى عشرة ليلة^(٤) خلت من كانون الثاني، وقيل: لأربع وعشرين خلت منه، وطلوع سعد الأخبية لست خلون من شباط^(٥). وطلوع سعد بُلع لثمان عشرة خلون منه^(٦). وطلوع الفَرغ المقدّم لليلتين خلتا من آذار^(٧). وطلوع المؤخر لأربع عشرة ليلة خلت منه^(٨). وطلوع الرّشاء لأربع من نيسان^(٩).

فصل

في انقسام هذه المنازل على فصول السنة

قال ابن قتيبة: لفصل الربيع: الشّرطين^(١٠)، والبُطين، والثريّا، والدّبران، والهفّة، والهفّة، والذّراع.

ولفصل الصيف: النّرة، والطّرف، والجبهة، والزّبرة، والصّرفة، والسّمك، والعوّاء.

ولفصل الخريف: العفّر، والزّباني، والإكليل، والقلب، والشّولة، والنّعائم، والبلدة.

ولفصل الشتاء: سعد السّعود، وسعد الذّابح، وسعد الأخبية، وسعد بُلع، والفَرغان المقدّم والمؤخر، والرّشاء^(١١). فلكلّ فصل سبع منازل، والله أعلم.

(١) في «الأنواء» ص ٧٦: لأربع ليال تخلو من كانون الآخر.

(٢) في «الأنواء» ص ٤٩: وسقوطها لأربع ليال تخلو من كانون الآخر.

(٣) في «الأنواء» ص ٧٩: لاثنتي عشرة ليلة تمضي من شباط.

(٤) في «الأنواء» ص ٧٦: لسبع عشرة ليلة.

(٥) في «الأنواء» ص ٨٠: لخمس وعشرين ليلة تخلو من شباط.

(٦) في «الأنواء» ص ٧٨: لليلة تبقى من كانون الآخر.

(٧) في «الأنواء» ص ٨٢: لتسع ليال تخلو من آذار.

(٨) في «الأنواء» ص ٨٣: لاثنتين وعشرين ليلة تمضي من آذار.

(٩) ويسمى الحوت كما في «الأنواء» ص ٨٤-٨٥.

(١٠) كذا في النسخ والمطبوع، وصوابها: الشرطان.

(١١) «الأنواء» ص ١٠٠-١٠٢، وانظر «أدب الكاتب» ص ٨٦-٨٧.

فصل في أسجاع العرب

المتعلقة بهذه المنازل، وما نقل فيها عن الأوائل^(١)

قرأت على شيخنا أبي اليُمن الكِندي رحمه الله، قال: قرأت على أبي منصور بن الجواليقي قال: بلغني عن أبي بكر محمد بن المنادي أنه قال: العرب تقول: إذا طلع الشرطين، استوى الزُمين. وأمّا قول من يقول «الشرطان» فقال أبو حنيفة الدينوري: استوى الزمان، وخَضرت الأعطان^(٢)، وعمرت الأوطان، وتهادت الجيران، وبات الفقير بكل مكان.

وإذا طلع البُطين اقتضى الدِّين.

وإذا طلعت الثريا عشيًا، بع لراعيك كسيًا، فإن طلعت غُدّيًا ابتغ له سقيًا.

وإذا طلع الدَّبران، توقّدت الحرَّتان، ويبست الغدران.

وإذا طلعت الهَقَّة، رجع الناس عن النُّجعة. وإذا طلعت الهَنَعَة، انعطفوا إلى المنعة.

وإذا طلع الذراع، حسرت الشمس القناع، واشتعل في الأفق^(٣) الشعاع، وترقرق السَّراب بكل قاع.

وإذا طلعت النُّثرة، جُني النخل بكثرة، ولم يترك في ذات درّ قطرة.

وإذا طلع الطَّرف، سهل أمر الضَّيف وخف.

وإذا طلعت الجَبْهة، توجَّه المسافر في كلِّ وجهة.

وإذا طلعت الصَّرفة احتال كلُّ ذي حرفة.

وإذا طلعت العَوَّاء، ضُرب الخباء، وطاب الهواء.

وإذا طلع السِّماك، كثر على الماء اللِّكاك، يعني الزَّحام.

(١) أورد ابن قتيبة في «الأنواء» هذه الأسجاع مفرقة كل في موضعه، وانظر «المخصص» ١٥/٩-١٧، و«الأزمنة والأمكنة» ٢٤٩/٢-٢٥٤.

(٢) في (ب): «خضرت الأغصان».

(٣) في (ب): «الأرض».

وإذا طلع الغفر، عاد السفر.
 وإذا طلعت الزباني، أخذ كلُّ ذي عيال شانا.
 إذا طلع الإكليل بطلت التعاليل.
 إذا طلع القلب، لان كلُّ صعب.
 إذا طلعت الشولة، أعجلت الشيخ البولة.
 إذا طلعت النعائم، خلص البرد إلى كل قائم.
 إذا طلعت البلدة، أكلت القسدة - وهي ما يخرج من الزبد والسمن في أسفل القدر -
 وفي رواية ابن فارس: أكلت الجعدة، وهي نبت معروف.
 إذا طلع سعد السعود اخضرَّ العود، ولانت الجلود، وكره في الشمس القعود.
 إذا طلع الذابح، حمى أهله النَّابح.
 إذا طلع الأخبية، حنَّ الناس إلى لبس الأقبية.
 إذا طلع بُلع، اقتحم الرُّبع^(١) - أي قوي على المشي - وصار في الأرض لُمع - أي
 بدَّر الكلا.
 إذا طلع المقدم، فاخدم وإلا تندم.
 إذا طلع المؤخر، فأسرع ولا تتأخر.
 إذا طلعت السمكة، أمكنت الحركة، وتعلقت^(٢) الحسكة، أي: حسك السعدان.



(١) الرُّبع: الناقة المعتادة بأن تنتج في الربيع. «القاموس المحيط»: (ربع).

(٢) جاء بعدها في «الأنواء» ص ٨٥: «بالثوب».

فصل في النجوم

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْأَبْحَرِ﴾ [الأنعام: ٩٧] وقال تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: علم النجوم نافع عاجز عنه الناس، ووددت أني علمته. أشار إلى معرفة نفس النجوم، لا إلى الأحكام.

واتفقوا على أن نور القمر من نور الشمس.

واختلفوا في نور الكواكب، هل هو من نور الشمس أم من نور آخر، على قولين: قال الخرقى والنوبختي وأبو معشر وغيرهم: الكواكب المعروفة ألف واثنان^(١) وعشرون كوكباً:

منها الجدي، وهو أدلها على القبلة. قال الجوهري: والجدي نجم إلى جنب القطب تُعرف به القبلة^(٢). قال: والقطب كوكب بين الجدي والفرقدين يدور عليه الفلك^(٣).

وقال النوبختي: الجدي إلى جانب القطب الشمالي حوله أنجم دائرة كفراشة الرّحى، في أحد طرفيها الفرقدان، وفي الطرف الآخر نجم مضيء يقابلها، وبين ذلك أنجم صغار، ثلاثة من فوق وثلاثة من أسفل، تدور حول الجدي والقطب دوران فراشة الرّحى حول سفودها، وحولها بنات نَعَش تدور والجدي والقطب لا يبرحان من مكانهما، وإنما يُستدل بالجدي على القطب.

وقال أبو معشر: الجدي قطب هذه الفراشة، وقيل: القطب قطبها، ويستدل عليه بالجدي إذا لم يكن قمر، فإذا قوي ضوء القمر خفي مكانه فلا يراه إلا الحديد الناظر.

والسُّها إلى جانبه، وهو نجم خفي يمتحن به الناس أبصارهم.

(١) في (ب): «ومئتان»، وانظر «عجائب المخلوقات» ص ٦٠.

(٢) «الصّحاح»: (جدي).

(٣) «الصّحاح»: (قطب).

وقال ابن قتيبة في «أدب الكاتب»: الجدي الذي تعرف به القبلة هو جدي بنات نَعَش الصغرى، وبنات نَعَش الصغرى بقرب الكبرى على مثال تأليفها، أربعة منها نَعَش وثلاث بنات، فمن الأربعة الفرقدان وهما المتقدمان، ومن البنات الجدي وهو آخرها. قال: والسُّها الذي يمتحن الناس به أبصارهم كوكب خفي في بنات نَعَش. وفي المثل: أريها السُّها وتُريني القمر^(١).

وكيفية معرفة القبلة بالجدي: أنك إذا جعلته وراء ظهرك في أرض الشام كنت مستقبل القبلة، وفي أرض العراق تجعله مقابل ظهر أذنك اليمنى على علوها فتكون مستقبلاً باب البيت إلى المقام، ومتى استدبرت الفرقدان أو بنات نَعَش كنت مستقبلاً جهة الكعبة.

وأما الفرقدان فنجمان مضيئان قريبان من القطب وهما ندمانا جديمة^(٢).

وقال الجوهري: وبنات نَعَش الكبرى سبعة كواكب، أربعة منها نَعَش وثلاث بنات، وكذا بنات نَعَش الصغرى^(٣).

وقال أبو حنيفة الدينوري: والقطب الشمالي والجنوبي لا يبلغهما شمس ولا قمر، والقطب الجنوبي عند مطلع سهيل، لا يظهر إلا في جزيرة العرب.

ومنها سهيل، وهو إلى جانب القطب الجنوبي ومطلعه من مهب الجنوب، ثم يسير نحو المغرب فيصير في قبلة المصلي وهناك يغيب.

وقال ابن قتيبة: سهيل كوكب أحمر منفرد عن الكواكب، ولقربه من الأرض تراه أبداً كأنه يضطرب، وهو من الكواكب اليمانية^(٤)، ومطلعه عن يسار القبلة^(٥)، ويرى في جميع أرض العرب والعراق والشام، ولا يرى في بلاد أرمينية، وبين طلوعه

(١) «أدب الكاتب» ص ٩١-٩٢، وانظر «جمهرة الأمثال» ١/١٤٢، و«مجمع الأمثال» ١/٢٩١.

(٢) هو جذبة بن الأبرش، وسيذكر المصنف قصته مع الفرقدان في فصل ذكر ملوك الحيرة.

(٣) «الصحاح»: (نَعَش).

(٤) في (ل): «الثمانية».

(٥) في «أدب الكاتب»: «عن يسار مستقبل قبلة العراق».

بالحجاز ورؤيته بالعراق بضع عشرة ليلة^(١). وذكره الجوهري فقال: وسهيل نجم^(٢).
والعرب تقول: إذا طلع سهيل لا تأمن السَّيل^(٣).

وقال أبو معشر: من هذه الكواكب التي هي ألف واثنان^(٤) وعشرون كوكباً: ثلاث مئة واثنان عشر كوكباً^(٥) في اثنتي عشرة صورة في طريق الشمس، وهي البروج الاثنا عشر. ومنها ثلاث مئة وستون كوكباً في إحدى وعشرين صورة، وهي مائلة عن طريق الشمس إلى ناحية الشمال، منها الدبُّ الأكبر والأصغر والتنين وغيرهم. ومنها ثلاث مئة وستة عشر كوكباً في خمس عشرة صورة مائلة عن طريق الشمس إلى ناحية الجنوب، والاعتماد على الكواكب التي في طريق الشمس لأنها منتقة^(٦) البروج، وما عدا الكواكب التي سمينا لم يُسمها عامة أرباب الهيئة.

وذكرها أبو محمد عبد الجبار المعروف بالخرقي في كتابه المسمى بـ «التبصرة في الكواكب الثابتة»^(٧) فقال: فأما الكواكب التي في الصور الشمالية:

فمنها الدبُّ الأصغر: وهو على صورة دبٍّ واقف مادُّ ذنبه، وكواكبه سبعة، وتسميها العرب: بنات نَعَش الصغرى، فأربعة هي النَعَش على شكل مربع، والثلاث على طرف ذنبه، والخارج عن الصورة كوكب واحد، فالذي على طرف ذنبه يسمونه: الجدي، وهو الذي يُتَوَخَّى به القبلة، إذ هو أقرب الكواكب المرصودة إلى القطب الشمالي.

قال: ومنها الدبُّ الأكبر: وكواكبه سبعة وعشرون كوكباً، والخارج عن الصورة منها ثمانية كواكب. من جملتها سبعة تسميها العرب بنات نَعَش الكبرى، أربعة على يديه وثلاثة على ذنبه، والذي على طرف ذنبه يسمونه: القائد، ثم العنَّاق، ثم

(١) «أدب الكاتب» ص ٩٢-٩٣.

(٢) «الصحاح»: (سهل).

(٣) انظر «الأنواء» ص ١٥٤-١٥٥.

(٤) في (ب): «مئتان».

(٥) جاء بعدها في (ب): «في اثنتي عشر كوكباً».

(٦) كذا في المخطوطتين، وفي كنز الدرر ١/ ٥٤: متقنة.

(٧) تقدم الكلام على الكتاب ومؤلفه.

الجون^(١)، وبقر العناق كوكب صغير يسمونه: الشها.

ومنها التّنين: وهو أحد وثلاثون كوكباً وصورته حيّة كبيرة كثيرة العطفات، وابتدأها من أربعة كواكب على شكل مربع منحرف على رأسه، تسميه العرب: العوائذ.

قال الجوهري: والتّنين موضع في السماء، والتّنين ضرب من الحيات^(٢).

قال: ومنها الفكّة: ويقال له: الإكليل الشّمالي، ويعرف بقصعة المساكين لاستدارتها، وكواكبها ثمانية، وذكرها الجوهري فقال: والفكّة كواكب مستديرة خلف السّمك الرامح^(٣).

ومنها الجاثي على ركبتيه: وصورته تسعة وعشرون^(٤) كوكباً.

ومنها السلياق: ويقال له: اللوزا والصبح الرومي والسلحفاة، وكواكبه عشرة من جملتها كوكب نير يسمونه: النّسر الواقع، سمي بذلك لأن جناحيه مقبوضان.

قال الجوهري: وفي النجوم النّسر الطائر والنّسر الواقع^(٥).

ومنها الدّجاجة: سبعة عشر كوكباً، والخارج عن الصورة كوكبان، وأكثر كواكبها في المجرة قريبة من النسر الواقع.

ومنها ذات الكرسي: ثلاثة عشر كوكباً، وصورتها صورة امرأة جالسة على كرسي عليه مسند وقد دلّت رجليها، وهي في نفس المجرة، ومن كواكبها الكف الخضيب على وسط المسند، يعرف بسنام الناقة.

ومنها برشاوس: ويسمى حامل رأس الغول، ستة وعشرون كوكباً، والخارج عن الصورة ثلاثة كواكب، وصورته صورة رجل قائم على رجله اليسرى رافع رجله اليمنى،

(١) هكذا جاءت في الأصول الخطية، وصوابه: الحور، كما في «القاموس المحيط»: (حور).

(٢) «الصّحاح»: (تن).

(٣) «الصّحاح»: (فكك).

(٤) في (ب): «تسع وثلاثون».

(٥) «الصّحاح»: (نسر).

ويده اليمنى فوق رأسه، ويده اليسرى رأس مشوّه الخلق مقطوع، يسمّى: رأس الغول.
ومنها ممسك العنان: أربعة عشر كوكباً، وصورته صورة رجل قائم بإحدى يديه
سوط، ويده الأخرى قابضة على عنان خلف العيوق.
ومنها الحوّاء: وهي أربعة وعشرون كوكباً، والخارج عن الصورة خمسة كواكب،
وصورته صورة رجل قائم قد قبض بيديه جميعاً على حية.
ومنها حيّة الحوّاء: ثمانية عشر كوكباً قد قبضها الحوّاء وقد رفعت رأسها وذنبها
حتى عليا رأسه.

ومنها السّهم: خمسة كواكب بين منقار الدجاجة والنسر الواقع.
ومنها العقاب: تسعة كواكب، والخارج عن الصورة ستة، ومن كواكبه النّسر الطائر
لأن جناحيه مبسوطان.

ومنها الدّلفين: عشرة كواكب مجتمعة خلف النّسر الطائر، وصورته صورة حيوان
بحري يشبه الرّق المنفوخ، ولم يذكره الجوهري في النجوم، وإنما قال: الدلفين -
بالضم - دابة في البحر تنجي الغريق^(١).

ومنها قطعة الفرس: أربعة كواكب، ويقال لها: مقدّم الفرس، خلف كواكب
الدّلفين.

ومنها الفرس الأكبر: وهو ذو الجناح، عشرون كوكباً، صورة فرس له رأس ويدان
وليس له رجلان ولا كفّل.

ومنها أندروميذا: ويقال لها: المرأة المسلسلة، اثنان وعشرون كوكباً، وصورتها:
امرأة قائمة ممدودة اليدين، في يديها سلسلة كأنها معلّقة بها، ويقال: السلسلة في
رجليها.

ومنها المثلث: أربعة كواكب بين كواكب السمكة وبين النّير الذي على رأس الغول.
قال الحرّقي: فجملة هذه الصور الشمالية ثلاث مئة وستون كوكباً. فأما الصور

(١) «الصّحاح»: (دلف).

الجنوبية فثلاث مئة وستة عشر كوكباً:

منها قيطس: اثنان وعشرون كوكباً، وصورته صورة حيوان بحريّ، ذو رجلين وذنّب كذنّب الحوت.

ومنها الجبار: ثمانية وثلاثون كوكباً، وصورته صورة رجل على كرسيّ بيده عصا، وفي وسطه منطقة وسيف، ومن كواكبه يد الجوزاء، وهو كوكب أحمر نير.

ومنها النّهر: أربعة وثلاثون كوكباً، وشكله شكل جدول كثير العطفات.

ومنها الأرنب: اثنا عشر كوكباً مجتمعة تحت رجل الجبار مشبهة بأرنب، ووجهه إلى المغرب ومؤخره إلى المشرق.

ومنها الكلب الأكبر: ثمانية عشر كوكباً، والخارج عن الصورة أحد عشر كوكباً خلف كواكب الجوزاء أمام السفينة، ومن كواكبه الشعريّ العبور، كوكب نير، ويسمّى الثاني المرزّم.

قال الجوهري: والشعريّ الكوكب الذي يطلع بعد الجوزاء، وطلوعه في شدّة الحرّ، وهما الشعريان العبور التي في الجوزاء، والشعريّ الغميصاء التي في الذراع، وتزعم العرب أنهما أختا سهيل^(١).

وقال الجوهري: والمرزّمان مرزّما الشعريّين، وهما نجمان أحدهما في الشعريّ، والآخر في الذراع^(٢).

ومنها الكلب الأصغر: وهما كوكبان يسمّى أحدهما الشعريّ الشامية والغميصاء، كوكبان نيران.

ومنها السفينة: خمسة وأربعون كوكباً مجتمعة في ناحية الجنوب تطلع في أثر الكلب الأكبر، من جملتها سهيل النّجم الأحمر.

ومنها الشجاع: خمسة وعشرون كوكباً، والخارج عن الصورة كوكبان، وصورته صورة حيّة طويلة كثيرة العطفات، ورأسه على حلقة وجه الفرس من أربعة كواكب،

(١) «الصّحاح»: (شعر).

(٢) «الصّحاح»: (رزم).

يبتدئ من زباني السرطان، وهو بين الشعري الشامية وقلب الأسد.
ومنها الكأس: سبعة كواكب على شكل مستدير عند ظهر الشجاع، ويسمى الباطية.
ومنها الغراب: سبعة كواكب، ويسمى: عرش السماك الأعزل، ويسمى أيضاً: الخباء.
ومنها قنطورس: سبعة وثلاثون كوكباً، وصورته صورة حيوان مركب من إنسان
وفرس، مقدّمه مقدّم الإنسان من رأسه إلى ظهره، ومؤخره مؤخر فرس من منشأ ظهره
إلى ذنبه، قد أخذ بيديه رجلي سبع، وتسميه العرب شماريخ.
ومنها السبع: تسعة عشر كوكباً مجتمعة خلف كواكب قنطورس على جنوب
العقرب.
ومنها الإكليل الجنوبي: ثلاثة عشر كوكباً^(١) وشكلها شكل صنوبري، وتسميها
العرب: قبة.
ومنها الحوت الجنوبي: أحد عشر كوكباً، والخارج عن الصورة ستة كواكب،
وصورته صورة سمكة عظيمة كواكبها على جنوب كواكب الدلو، ورأسها إلى المشرق،
وذنبها إلى المغرب.
ومنها المجرّة^(٢): على جنوب خرزات العقرب.
قال الحرقي: فهذه جملة الكواكب الشمالية والجنوبية.
قلت: وهذا الذي ذكره يختص بالكواكب التي هي غير مشهورة، وأمّا الكواكب
السبعة وما كان في معناها فنذكرها.

فصل في أجرامها

واختلفوا فيها: ذكر التوبختي وأبو معشر أن جرم الشمس بمقدار الدنيا مئة وستة
وستين^(٣) مرة ونصفاً. وجرم القمر بمقدار الدنيا تسعاً وثلاثين مرة، وكذا الزهرة

(١) من قوله: مجتمعة . . . إلى هنا ليس في (ب).

(٢) في (ل): المجرة، والمثبت من (ط).

(٣) في (ب): «مئة سنة وستين».

وعُطارد والمِريخ، وجِرم المشتري بمقدار الدنيا اثنتين وثمانين^(١) مرة. قال الجوهري: ويسمى المشتري الأُحور^(٢). وزحل أعظم من الدنيا بتسع وتسعين مرة.

وروي عن التُّبُخْتِي أنه قال: جِرم الشمس خمس عشرة درجة أمامها، وكذا خلفها، وجِرم القمر اثنتا عشرة درجة أمامه، وكذا خلفه، وجِرم المشتري تسع درجات أمامه، وكذا خلفه، وكذا جِرم زحل، وجِرم المِريخ ثمان درجات أمامه وكذا خلفه، وجِرم الزهرة سبع درجات أمامها وكذا خلفها، وكذا عطارد.

وذكر هارون بن المأمون في تاريخه المسمى بـ «منهاج الطالبين»: أن أصغر كوكب في السماء بمقدار الدنيا مرّات كثيرة، قال: إلا القمر، فإنه أصغر من الأرض. قلت: أما «قوله أصغر كوكب في السماء بمقدار الدنيا» فنعم، وما ذكر في القمر فلم يوافق عليه أحد.

قال أبو معشر: فأما الكواكب العظام الثابتة كالشُّعْرَى العُبُور، والسَّمَاءُ، والنَّسْر الواقع، والطارئ، وقلب الأسد، ونحوها، وهي خمسة عشر كوكباً، فكل كوكب منها بمقدار الأرض أربعاً وتسعين مرة ونصفاً.

وقال ابن قتيبة: النَّسْر الواقع ثلاثة أنجم [كأنها أثافي، وبإزائه النسْر الطائر وهو ثلاثة أنجم] مصطفة



[وإنما قيل للأول]: الواقع كأنهم جعلوا اثنين منها جناحيه قد ضمّهما إليه كأنه طائر وقع، وكذا الطائر ثلاثة أنجم مصطفة يجعلون اثنين منها جناحيه كأنه طائر قد بسطهما^(٣).

قال أبو معشر: ويقطع كل واحد منهما الفلك في ستّة وثلاثين ألف سنة.

(١) في (ب): «تسعة وثلاثين».

(٢) «الصّحاح»: (حور).

(٣) «أدب الكاتب» ص ٩٢، وما بين معقوفين زيادة منه.

فصل

في قطع النجوم السبعة الأفلاك

ذكر أبو حنيفة الدينوري: أنَّ القمر يقطع الفلك في تسعة وعشرين يوماً وأقل من ثلث يوم. وقال النُّوبختي: في تسعة وعشرين يوماً. وُعُطارد يقطعه في أقل من ثمانية وعشرين يوماً، والزُّهرة تقطعه في مئتين وأربعة وعشرين يوماً وأشْف من ثلثي يوم، والشمس تقطعه في ثلاث مئة وخمسة وستين يوماً وأشْف من ربع يوم، والمِرْيَخ يقطعه في ست مئة وثلاثين يوماً، والمُشتري يقطعه في إحدى عشرة سنة وثلاث مئة وسبعة وعشرين يوماً، وزُحل يقطعه في تسع وعشرين سنة فارسيَّة ومئة وستة وسبعين يوماً.

فصل

في مقامات الكواكب في البروج

قالوا: مقام القمر في كل برج ليلتان وثلث ليلة، ومقام عطارد في كل برج خمسة عشر يوماً، ومقام الزُّهرة في كل برج خمسة وعشرون يوماً، ومقام الشمس في كل برج شهر، ومقام المِرْيَخ خمسة وأربعون يوماً، ومقام المُشتري سنة، ومقام زُحل في كل برج ثلاثون شهراً.

فصل

في شرف الكواكب

شرف القمر الثور، شرف عطارد السُّنبلة، شرف الزُّهرة الحوت، شرف الشمس الحمل، شرف المِرْيَخ الجدي، شرف المُشتري السرطان، شرف زُحل الميزان.

فصل

في المعجزة

واختلفوا فيها، قال بعضهم: هي شرح السَّماء، كأنها مجمع النجوم، كشرح القبة. وقيل: هي باب السماء، وتسمِّيها العرب: أمَّ النجوم، لأنه ليس في السماء بقعة أكثر عدداً من الكواكب فيها.

وقد روى أبو بكر الخطيب حديثاً في المجرة فقال: أخبرني علي بن محمد بن الحسن المالكي بإسناده عن معاذ بن جبل قال: لما بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن قال: «إِنَّهُمْ سَأَلُواكَ عَنِ الْمَجْرَةِ فَقُلْ: إِنَّهَا مِنْ عَرَقِ الْأَفْعَى الَّذِي تَحْتَ الْعَرْشِ»^(١). قال جدي في «الموضوعات»: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، وفي إسناده الشاذكوني، اسمه سليمان بن داود، كان يضع الحديث ويكذب^(٢).

فصل

فيما لكل كوكب من الأيام السبعة

قالوا: يوم الأحد للشمس، والاثنين للقمر، والثلاثاء للمريخ، والأربعاء لعطارد، والخميس للمشتري، والجمعة للزهرة، والسبت لزحل.

فصل

في اقتران الكواكب

معنى القِران أن يجتمع الكوكبان في برج واحد، فيؤثران بأمر الله تعالى. قالوا: إذا قارن زحل المشتري عمت^(٣) الحروب في الأقاليم ويموت ملك، وكذا إذا قارن المريخ زحل، وكذا إذا قارنت الشمس زحل. وإذا قارنت الزهرة زحل دلّ على غلاء الأسعار والقحط. وإذا قارن زحل عطارد دلّ على صلاح حال الكتاب. وإذا قارن زحل القمر دلّ على ظهور الجور. وإذا قارن المشتري المريخ لقي العالم شدائد عظيمة.



فصل

(١) «تاريخ بغداد» ٤٤/٩.

(٢) «الموضوعات» (٢٩٦).

(٣) في (ب): «عملت».

في طبائع الكواكب

قال أبو معشر وغيره: القمر أنثى بارد رطبٌ بلغميٌّ، وفيه حرارة عرضيةٌ، لأن ضوءه من ضوء الشمس، وسلطانه على الطّحال والرّئة، وهو سعد. عطارذ يتذكّر ويتأثّث، وهو مرّة سعد ومرّة نحس، ويستوي في طبيعته الحرّ والبرد. وسلطانه النطق والكتابة.

الرّزهره: أنثى ممزوجة، وهي سعد، باردة رطبة لها البلغم، وسلطانها على الفرج والمفاصل، ولها الشهوة ونظم الأكاليل وتأليف الألحان والغناء، واللعب واللهو والضحك.

الشمس: ذكر حارّة يابسة لها المرّة الصفراء، وهي سعد بالنظر، نحسّ بالمقابلة، جوهرها الذهب، وسلطانها على الفؤاد، ولها الشرف والعلوّ، والفرح والسرور والملك.

المريخ: مؤنث ناريّ حارّ يابس نحس، له المرّة الصفراء، وجوهره النحاس، ومذاقته مرّة، وسلطانه على الرأس والمعدة، وله الدّاء القاتل والقتل، وفساد النساء في الحبل.

المشتري: ذكر معتدل روحاني هوائي سعد، وله الدم، وجوهره الرّصاص، ومذاقته طيبة، ولونه أبيض، وسلطانه على الريح الساكنة في القلب، وله العطاء والعبادة والعلوّ والرياسة.

زحل: ذكر بارد يابس مظلم، له المرّة السوداء، وجوهره الحديد، ومذاقته مرّة، ولونه أسود، وسلطانه على المذاكير، وله الجسارة والتؤدة والوحدة والقهر والجبريّة.

قلت: وزعم قوم أن هذه البروج والأفلاك والكواكب السيّارة تفعل في العالم التأثير، وأنّها هي المدبّرة للعالم، واحتجّوا بقوله تعالى: ﴿فَالْمَدِيرَ أَمَرًا﴾ [النازعات: ٥] ونحو ذلك.

ونحن نقول: قد ورد أن إدريس عليه السلام لما صعد السّماء أخبر بالبروج والنجوم وغيرها، فما جاء عنه في هذا الباب فمقبول، وما نهى عنه الشرع فلا يُلْتَفَت إليه، بل قد

قامت البراهين والأدلة على أن الباري سبحانه وتعالى اخترعها وأنشأها وابتدعها.
 وأما قولهم: ﴿فَالْمَدِيرَ أَمَرًا﴾ فقد قال ابن عباس: هم الملائكة، بعضهم
 مُوَكَّلٌ بالأرزاق، وبعضهم بالرياح لما نذكر في خلق الملائكة، ولو كانت مدبرَاتٍ
 فيأذن الباري سبحانه وتعالى، لأنه القادر العليم القاهر الحكيم.



فصل

في ذكر البيت المعمور

وما ورد فيه من النَّص والحديث المشهور^(١)

قال الله تعالى ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۝٤﴾ [الطور: ٤].

روى عطاء عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: [اسمه] الضُّراح.

وقد ضبطه الجوهري فقال: والضراح - بضمّ الضاد المعجمة والحاء المهملة - بيت في السَّماء^(٢)، وهو البيت المعمور، عن ابن عباس^(٣).

واختلفوا في أيّ سماء هو على أقوال:

أحدها: في السماء الدنيا، وهو قول ابن عباس ومجاهد والربيع، واحتجوا بحديث عائشة.

قال أبو إسحاق الثعلبي بإسناده عن أبي الزبير عن عائشة: أن النبي ﷺ قدم مكة فأرادت عائشة أن تدخل البيت - يعني ليلاً - فقال لها بنو شيبه: إنَّ أحداً لا يدخله ليلاً ولكن نُخليه لك نهاراً، فشكت إلى رسول الله ﷺ فقال: «إنَّه ليس لأحد أن يدخله ليلاً إنه بحِيال البيت المَعْمُور الذي في السَّماء، لو وَقَعَ حَجَرٌ منه لَوَقَعَ على ظهر الكعبة، وإنَّه يدخله كلُّ يوم سبعون ألفَ مَلَكٍ لا يعودون فيه إلى يوم القيامة، ولكن انطلقيني أنتِ وصواحِبكِ فصلَّين في الحِجْرِ» ففعلت، فأصبحت وهي تقول: قد دخلت البيت على رغم من رغم^(٤).

وروى عكرمة عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ بمعناه، وقال: «حُرْمَتُهُ فِي السَّمَاءِ

(١) انظر كثر الدرر ٦٠/١.

(٢) «الصَّحاح»: (ضرح).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (٨٨٧٤) من طريق كُريب، عن ابن عباس، وانظر «عمدة القاري» ٢٨/١٧.

(٤) أخرجه الثعلبي في تفسيره ١٢٤/٩ من طريق هارون بن محمد بن هارون، عن إبراهيم بن الحسين بن ديزيل، عن موسى بن إسماعيل، عن سفيان بن نشيط، عن أبي محمد، عن الزبير، به. وأورده السيوطي في «الدر المنثور» ١١٧/٦-١١٨، ونزاه لابن مردويه.

كحُرمة الكعبة في الأرض، فهو مَعْمُورٌ بكثرة الغاشية والأهل والعبادة، يُصَلِّي فيه كلَّ يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون فيه، وخادمُه يُقال له: رَزِين^(١).

وروي عن ابن عباس أنه كان من الجنة، فلما أُهبط آدم إلى الأرض حمل إليه ليستأنس به ثم رفع في أيام الطوفان.

القول الثاني: أنه في السماء السادسة عند شجرة طُوبى. وروي عن علي عليه السلام^(٢).

والثالث: أنه في السماء السابعة، قاله مجاهد والضحاك^(٣). وقد روى البخاري في حديث المعراج عن النبي ﷺ أنه قال: «وَرَأَيْتُ الْبَيْتَ الْمَعْمُورَ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، يَدْخُلُهُ كُلُّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، لَا يَعُودُونَ فِيهِ^(٤)».

قلت: ولا تنافي بين هذه الأقوال، لأنه يحتمل أن الله تعالى رفعه ليلة المعراج إلى السماء السادسة عند سدرة المنتهى ثم إلى السماء السابعة تعظيماً للنبي ﷺ حتى يراه في أماكن، ثم أعاده إلى السماء الدنيا.

وذكر الثعلبي عن الحسن البصري أنه قال: ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ أنه الكعبة الحرام يعمره الله كل سنة بالناس، وهو أول بيت عُمر للعبادة. والقول الأول أظهر لما روي عن عائشة رضي الله عنها، ولأن الكعبة تعمر بالناس في السنة مرة، والبيت المعمور يعمر كل يوم بالملائكة.



(١) أخرجه الأزرقي في تاريخ مكة ٤٩/١ من طريق كريب، عن ابن عباس.

(٢) انظر «عمدة القاري» ٤٤/٤.

(٣) انظر «عمدة القاري» ٤٤/٤.

(٤) أخرجه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤) من حديث مالك بن صعصعة.

فصل

في سدرۃ المنتهى

التي يسير الراكب في ظلّها مئة عام لا يقطعها^(١)

قال الجوهري: السّدر شجر النّبق، الواحدة: سدرۃ^(٢).

واختلفوا لم سمّيت بهذا الاسم على أقوال:

أحدها: لأنّه ينتهي إليها أعمال بني آدم التي تعرج بها الكتبة إلى السماء ثم تُقبض منها، وإليها ينتهي ما يقبض من فوقها فينقبض منها، قاله كعب الأحبار، وذكر أنه في التوراة.

كذلك فإنّ العوفي روى عن ابن عباس قال: سألت كعباً عن سدرۃ المنتهى، فقال: هي سدرۃ في أصل العرش، إليها ينتهي عمل الخلائق فترفع منها، تعرج به الملائكة إليها فتقف عندها، ثم ينزل إليها أمر الله تعالى^(٣). وبه قال ابن مسعود وابن عبّاس وجماعة من الصحابة.

والثاني: أنه ينتهي إليها علم كل عالم، قاله مقاتل.

والثالث: أن كل شيء من أوامر الله تعالى يصل إليها فينتهي عندها، ولا يعدوها شيء، قاله الربيع بن أنس.

والرابع: لأنّ الملائكة المقرّبين تنتهي إليها، فلا يتجاسرون أن يتجاوزوها من مخافة الله تعالى، قاله الضحاك.

والخامس: لأنّه ينتهي إليها ما يعرج من أرواح المؤمنين، حكاه سفيان الثوري.

واختلفوا في أيّ سماء هي على أقوال:

أحدها: في السماء السادسة، قاله ابن مسعود^(٤).

(١) انظر «كنز الدرر» ٦٢/١.

(٢) «الصحاح»: (سدر).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ١٥٠/١٣، والطبري في تفسيره ٥٢/٢٧.

(٤) أخرجه مسلم (١٧٣).

والثاني: في السماء السابعة، وقد ذكرها النبي ﷺ في المتفق عليه من حديث المعراج أنها فيها^(١).

والثالث: أنها بعد السماء السابعة، قاله أبو هريرة، قال: وقال لي النبي ﷺ: «رَأَيْتُهَا بَعْدَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَقِيلَ لِي: هَذِهِ سِدْرَةُ الْمُنتَهَى، فَإِذَا شَجَرَةٌ يَخْرُجُ مِنْ أَصْلِهَا أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ: نَهْرٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ، وَنَهْرٌ مِنْ لَبَنٍ، وَنَهْرٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى، وَنَهْرٌ مِنَ الْكَافُورِ، وَالْوَرْقَةُ مِنْهَا تَغْطِي أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ^(٢)».

وقال البخاري بإسناده عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاکِبُ فِي ظِلِّهَا مِثْلَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا، وَاقْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿وَزَلَّيْلٍ مَدْدُورٍ﴾ [الواقعة: ٣٠] متفق عليه^(٣)، ورواه أبو سعيد^(٤) وأبو هريرة^(٥).

وقال ابن عباس: ليس في الجنة قصر ولا بيت إلا وفيه غصن من أغصانها.

وسئل علي رضي الله عنه فقال: هي كالشمس في الدنيا.

وسمّاها عبد الله بن سلام: شجرة طوبى، قال: وكذا هي في التوراة. وفي القرآن ﴿طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَتَابٍ﴾ [الرعد: ٢٩].

وقال أبو إسحاق الثعلبي بإسناده عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها، قالت سمعت النبي ﷺ يذكر سدرة المنتهى فقال: «يسير الراكب في ظلّ الفَنّ مئة عام، ويستظلّ بالفن منها مئة ألف راكب، فيها فراش من ذهب كأنّ ثمرها القلال». وسنذكرها في المعراج إن شاء الله تعالى.

حدّثنا عبد الرحمن بن إبراهيم بن أحمد المقدسي رحمه الله تعالى بإسناده عن أبي سعيد الخدري قال: سأل رجل رسول الله ﷺ عن شجرة طوبى فقال: «غَرَسَهَا اللَّهُ

(١) البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤) من حديث مالك بن صعصعة.

(٢) أخرجه الطبري ٥٤/٢٧، وليس فيه: رأيتها بعد السماء السابعة.

(٣) صحيح البخاري (٣٢٥١) دون قوله: «واقروا إن شئتم...» وهو من أفراد البخاري، ولم يخرج مسلم كما في الجمع بين الصحيحين (٢٠٤٨).

(٤) أخرجه البخاري (٦٥٥٣)، ومسلم (٢٨٢٨).

(٥) أخرجه البخاري (٣٢٥٢)، ومسلم (٢٨٢٦).

تعالى بيده، ونَفَخَ فيها من رُوحِهِ، تُنْبِتُ حُلِيَّ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَحُلَلَهُمْ، وَأَنَّ أَغْصَانَهَا لَتُرى من وراءِ سُورِ الْجَنَّةِ»^(١).

وقال مقاتل: لو أَنَّ ورقة منها وقعت في الأرض لأضاءت لأهلها، وهي طوبى التي ذكرها الله في سورة الرعد.

فصل

في ذكر الكرسي والعرش ومقدار ما بينهما وبين الفرش^(٢)

قال الجوهري: الكرسيُّ واحد الكراسي المعروفة^(٣).

واختلفوا فيه على أقوال:

أحدها: أنه الكرسي، وقد فسّر ابن عباس قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] بهذا، قال: ومعنى وَسِعَ أي مَلَأَها وأحاط بهما.

والثاني: أَنَّ الكرسيَّ علم الله، ومنه قيل للصَّحيفة فيها العلم: كَرَّاسَة، ويقال للعلماء: الكراسيُّ، قاله الضَّحَّاك وروي عن ابن عَبَّاسٍ أيضاً.

والثالث: قدرة الله وسلطانه وملكه، والعرب تسمي المُلْك القديم: كرسيًّا، قاله مقاتل.

والرابع: سرّه، قال الشاعر:

ما لي بأمرِك من سرِّ أكَاتمه ولا بكرسيِّ علمِ الله مخلوقُ
قاله الحسن.

والخامس: أهله، قاله أبو جعفر الطبري، قال: ومعناه وسع عباده أهل السماء والأرض.

والسادس: أَنَّ الكرسيَّ هو العرش، قاله الحسن^(٤).

(١) أخرجه أحمد (١١٦٧٣)، والطبري (٢٠٣٩٥) بنحوه، وإسناده ضعيف.

(٢) انظر «كنز الدرر» ١/ ٦٣.

(٣) «الصَّحاح»: «كرس».

(٤) انظر الأقوال السابقة في تفسير الطبري ٥/ ٣٩٧-٤٠٣.

والسابع: أنه مُلك عظيم أضافه إلى نفسه تخصيصاً لينبّه به على عظمته وقدرته، قاله مقاتل بن حيان، قال: ومعناه أن خلقاً من خلقي يملأ السماوات والأرض فكيف تُقدر قدرتي وتُنال عظمتي.

قلت: والأصح أنه الكرسي بعينه، وباقي الأقوال مجاز وعدولٌ عن الحقيقة، لأنّ الأخبار والآثار دالة عليه.

قال أبو إسحاق الثعلبي بإسناده عن أبي ذرٍّ، قال قلت: يا رسول الله، أيُّما أنزل عليك أعظم؟ قال: «آية الكرسي» ثم قال رسول الله ﷺ: «يا أبا ذرٍّ، ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة في أرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الحلقة»^(١).

وروي عن علي^(٢) عليه السلام أنه قال: الكرسي من لؤلؤة بيضاء، وهو فوق السماء السابعة بمسيرة خمس مئة عام، وطول كل قائمة منه مثل السماوات السبع والأرضين السبع، وهو بين يدي العرش، ويحمل الكرسي أربعة أملاك، أقدامهم على الصخرة التي تحت الأرض السابعة.

وأما ما ذكروه من معنى العلم والقدرة ونحو ذلك، فالعرب لا تعرف الكرسي بمعنى العلم والقدرة والملك والأهل، وما استشهدوا به فشاذاً لا يعرج عليه.

وأما العرش، فقال الجوهرى: العرش سرير الملك^(٣). وقال الزجاج: سرير الملك يسمى عرشاً، وأنشد قول أمية بن أبي الصلت^(٤):

مَجَّدُوا اللَّهَ فَهُوَ لِلْمَجْدِ أَهْلٌ رَبُّنَا فِي السَّمَاءِ أَمْسَى كَبِيرًا
بِالْبِنَاءِ الْأَعْلَى الَّذِي سَبَقَ النَّاسَ سَوْىَ فَوْقَ السَّمَاءِ سَرِيرًا
أَي: عرشاً.

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٣٦١).

(٢) في النسخ: «جبريل» والمثبت من «كنز الدرر» ١/٦٤، وانظر تفسير القرطبي ٣/٢٧٦.

(٣) «الصحيح»: (عرش).

(٤) البيتان في ديوانه ص ٣٩٩-٤٠٠.

وقال الحسن البصري: العرش هو الكرسي بعينه^(١).

وليس كما ذكر، لأن الله تعالى فرّق بينهما فقال: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ثم قال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٣] وذكر العرش في عدة مواضع.

وروى مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: العرش بعد الكرسي، والعرش من ياقوتة حمراء، وتحت بحر تنزل منه أرزاق الحيوانات، يوحى الله إليه فيقطر ما شاء، ثم يقسم بين الخلائق، وبين حملة العرش وحملة الكرسي سبعون حجاباً من نور، غلظ كل حجاب مسيرة خمس مئة سنة، ولولا ذلك لاحترق حملة الكرسي من نور [حملة] العرش.

وروى أبو صالح عن ابن عباس قال: للعرش ثلاث مئة وستون ألف برج، في كل برج ثلاث مئة ألف صف من الملائكة، لا يعلم عددهم إلا الله تعالى، يسبح كل واحد منهم بلسان لا يعرفه الآخر.

فإن قيل: فما الحكمة من خلق العرش، والله أعظم من كل عظيم؟ فالجواب من وجوه: أحدها: أنه موضع خدمة الملائكة، فهم حاقون به إلى يوم القيامة كما قال الله تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ [الزمر: ٧٥] فهو كباب الملك. والثاني: لأن الله جعله قبلة الدّاعين، وملجأ المكروبين، ومفرج الخائفين، وحرم القاصدين، وجناب اللائذين.

والثالث: لأنه سقف الجنان، وتأوي إليه أرواح الشهداء في قناديل من ذهب معلقة فيه، على ما ورد به الحديث الصحيح^(٢).

والرابع: لأن الله جعله معدن الستر واللفظ، فروى عطاء عن ابن عباس قال:

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١٠/٣.

(٢) أخرجه مسلم (١٨٨٧) عن مسروق قال: سألنا عبدالله عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْزَنَ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ قال: أما إنا قد سألنا عن ذلك فقال: «أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع عليهم ربهم اطلاعة، فقال: هل تشتهون شيئاً، قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا، قالوا: يارب، نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا».

حدثني كعب الأحبار قال: قرأت في بعض الكتب: أن ما في الدنيا مؤمن إلا وله تمثال على هيئته تحت العرش، فإذا ركع المؤمن وسجد في الصلاة فعل ذلك التمثال مثل فعله، فتنظر إليه الملائكة فيستغفرون له، وذلك قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥] فإذا ارتكب المؤمن خطيئة أرخى الله عز وجل على ذلك التمثال سترًا لئلا يتطلع عليه الملائكة، فذلك معنى قولهم في الدعاء^(١): يا مَنْ أظهر الجميل وستر القبيح^(٢).

فصل في حمّله

أنبأنا جدي بإسناده عن محمد بن المنكدر عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أُذِنَ لي أن أُحدّث عن ملك من ملائكة الله من حمّلة العرش، ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبع مئة سنة». ذكر جدي هذا الحديث في كتاب «تبصرة المبتدي وتذكرة المنتهي»^(٣) في الوعظ.

وروى مقاتل عن عليّ وابن عباس: أن حملة العرش أعظم الملائكة خلقة، وهم اليوم أربعة: أحدهم وجهه وجه رجل يسأل الله الرزق لبني آدم، والثاني وجهه وجه نسر يسأل الله الرزق للطيور، والثالث: وجهه وجه ثور يسأل الله الرزق للبهائم، والرابع وجهه وجه أسد يسأل الله الرزق للوحوش. فإذا كان يوم القيامة صاروا ثمانية، فذلك قوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ﴾ [الحاقة: ١٧] وقيل: ثمانية أصناف.

وذكر جدي رحمه الله في كتاب «التبصرة» هذا وقال: من أعظم الملائكة خلقة حملة العرش، أحدهم على صورة البشر قد وكل^(٤) بالدعاء للنسل الآدمي، وذكر الباقي على هذا.

(١) في (ب): «الدنيا».

(٢) وقوله: «يا مَنْ أظهر الجميل وستر القبيح» هو قطعة من حديث أخرجه الحاكم ١/٥٤٤-٥٤٥ من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، فإن رواه كلهم مدينون ثقات.

(٣) «التبصرة» ٢/١٧٤-١٧٥، وهو عند أبي داود (٤٧٢٧).

(٤) في (ب): البشر فيسأل الله أو قد وكل، وفي (ل): البشر يسأل الله وقد وكل، وعلى لفظ الجلالة إشارة أنها نسخة، والمثبت من التبصرة ٢/١٧٤.

فإن قيل: فما الحكمة فيه؟ فالجواب أنه قد جاء الحديث أنه إذا نوقش الجبارة والعصاة الحساب^(١) يشتد غضبُ الله عليهم فزيد في الحَمَلَة لهذا المعنى. وقال بعضهم: هذا ضربٌ مثل لينزجر العصاة عن المعاصي.

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما خلق الله العرش خلق له ملائكة عظام الخلق: أحدهم من النور، والثاني من النار، والثالث من الماء، والرابع من الرحمة، وأعطاهم قوة جميع الخلائق، وأمرهم بحمل العرش فحملوه فلم يطيقوا حمله، فقال لهم الله تعالى: قولوا سبحان الله، فقالوها، فرفعوا بعضه حتى بلغ إلى ركبهم وضعفوا، فقال الله عز وجل: قولوا الحمد لله، فقالوها، فرفعوه إلى أوساطهم ووقفوا، فقال لهم: وقولوا لا إله إلا الله، فقالوها، فحملوه إلى أكتافهم ووقفوا، فقال لهم: قولوا الله أكبر، فقالوها، فرفعوه على رؤوسهم، فرؤوسهم ناشبة فيه وأقدامهم على الأرض السفلى. قلت: وقد جاءت في العرش والكرسي أخبار وآثار:

فقال أحمد بن حنبل بإسناده عن وكيع بن عُدَس عن عمه أبي رَزِين العقيلي قال: قلت: يا رسول الله، أين كان ربُّنا قبل أن يخلق خلقه؟ فقال: «كان في عَمَاء ما تَحْتَهُ هَوَاءٌ، [وما فَوْقَهُ هَوَاءٌ] ثم خَلَقَ عَرْشَهُ على الماء»^(٢).

وقال الجوهري: عُدَس - بفتح الدال - اسم رجل، مثال قُثَم^(٣). قال: والعَمَاء - بالمد - سحب رقيق شبه الدخان يركب رؤوس الحيطان^(٤). وذكرُ الفوقِ والتحت والهواء عائدٌ إلى السحاب لا إلى الله تعالى، لأنه لا يعلوه شيء ولا يحلُّ في شيء.

وحكى أبو جعفر الطبري في «تاريخه» عن ابن عباس قال: أول ما خلق الله تعالى العرش فاستوى عليه^(٥). وروى أيضاً عن ابن عباس أنه قال: أول ما خلق الله تعالى الماء قبل العرش، ثم وضع العرش عليه^(٦). والله أعلم وأحكم بالغيب.

(١) من قوله: فما الحكمة فيه. . إلى هنا ليس في (ب).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٦١٨٨)، وما بين معقوفين زيادة منه.

(٣) «الصحاح»: (عدس).

(٤) «الصحاح»: (عمي)، وفيه: «رؤوس الجبال».

(٥) «تاريخ الطبري» ٣٩/١.

(٦) «تاريخ الطبري» ٣٩/١.

فصل

في ذكر الملائكة المقربين والرُّوحانيين والكُرُوبيين^(١)

قال الجوهرى: المَلَكُ من الملائكة واحد [وجمع]^(٢). والمقربون من التقريب وهو الدنو^(٣). وكذا الكُرُوبيون من كرب الشيء، أي: دنا^(٤)، والرُّوحانيون من الرُّوح^(٥).

فصل

في خلق الملائكة

قال أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «خُلِقَتِ الملائكة من نُورٍ». انفرد بإخراجه مسلم^(٦).

فصل

في جبريل عليه السلام

قال علماء التأويل: جَبْرِ اسم، وإيل من أسماء الله عز وجل، فَجَبْرٌ بمنزلة عبد، وإيل هو الله تعالى، ومعناه: عبدالله. وثبت أن جبريل عليه السلام كان يأتي النبي ﷺ في صورة دحية الكلبي لما نذكر في سيرته.

وقال ابن عباس: جبريل صاحب الوحي والعذاب، إذا أراد الله أن يهلك قوماً سلطه عليهم، كما فعل بقوم لوط لما نذكر.

وقال ابن الكلبي: سأل النبي ﷺ جبريل أن يأتيه في صورته التي خلقه الله عليها فقال له: لا تستطيع أن تثبت، فقال: بلى، فظهر له في ست مئة ألف جناح سدَّ الأفق

(١) انظر «كتر الدرر» ٦٨/١.

(٢) «الصحاح»: (ملك).

(٣) «الصحاح»: (قرب).

(٤) «الصحاح»: (كرب).

(٥) «الصحاح»: (روح).

(٦) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٥١٩٤)، ومسلم (٢٩٩٦).

جناح منها، فشهد رسول الله ﷺ أمراً عظيماً، فصُعِقَ، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٣].

وقال أحمد بإسناده عن ابن مسعود قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته وله ست مئة جناح، كلُّ جناح منها قد سدَّ الأفقَ، يسقط من جناحه من التَّهاويل والدرِّ والياقوت ما الله به عليم. أخرجه أحمد في «المسند»^(١).

ولفظ الصحيحين عن ابن مسعود: رأى النبي ﷺ جبريل له ست مئة جناح لا غير^(٢). والتَّهاويل: الألوان المختلفة.

وقال ابن عباس: قال رسول الله ﷺ لجبريل: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَصَفَكَ بِالْقُوَّةِ وَالطَّاعَةِ وَالْأَمَانَةِ، فَأَخْبَرَنِي عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: أَمَّا قُوَّتِي فَإِنِّي رَفَعْتُ قُرَى قَوْمِ لُوطٍ مِنْ تُخُومِ الْأَرْضِ عَلَى جَنَاحِي إِلَى السَّمَاءِ حَتَّى سَمِعَ أَهْلُ السَّمَاءِ نُبَاحَ كِلَابِهِمْ ثُمَّ قَلْبَتْهَا عَلَيْهِمْ، وَأَمَّا طَاعَةُ الْمَخْلُوقَاتِ لِي فَإِنِّي أَمُرُّ رِضْوَانًا خَازِنَ الْجَنَّةِ مَتَى شِئْتُ بِفَتْحِهَا، وَكَذَا مَالِكُ خَازِنُ النَّارِ، وَأَمَّا أَمَانَتِي فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مِئَةَ كِتَابٍ وَأَرْبَعَةَ كُتُبٍ لَمْ يَأْتِمْنَ عَلَيْهَا غَيْرِي»^(٣). وسنذكر جبريل في ليلة المعراج وغيرها.

فصل

في ميكائيل عليه السلام

وفيه أيضاً لغات، قال ابن الأنباري: لم يختلفوا أن «ميكاً» مثل «جبر»، و«إيل» هو الله تعالى.

وقال ابن عباس: ميكائيل هو صاحب الرِّزْق والرحمة.

وقال أحمد بن حنبل بإسناده عن ثابت البناني، عن أنس، عن النبي ﷺ أنه قال لجبريل عليه السلام: «مَا لِي لَا أَرَىٰ مِيكَائِيلَ ضَاحِكاً؟» فقال: مَا ضَحِكَ مِنْذُ خُلِقَتِ النَّارُ»^(٤).

(١) أحمد في «مسنده» (٣٧٤٨).

(٢) البخاري (٣٢٣٢)، ومسلم (١٧٤).

(٣) أخرجه ابن عساکر في «تاريخه» ٦٤٠/١٤.

(٤) أحمد في «مسنده» (١٣٣٤٣).

وقال ابن عباس: أول ما امتنع من الملائكة من الضحك ميكائيل لما خلقت النار.

فصل في إسرائيل

قال الجوهري: إسرائيلُ اسم أعجمي، كأنه مضاف إلى إيل^(١).

وروى مجاهد عن ابن عباس أنه قال: إن زاوية من زوايا العرش على كاهله، ورأسه قد مرق في السماء السابعة^(٢).

قال: ولما أمر الله الملائكة بالسجود، أول من سجد لآدم إسرائيل، فأثابه الله بأن كتب القرآن في جبهته^(٣).

وقد روي موقوفاً على عمر بن عبد العزيز^(٤) لما نذكر في قصة آدم.

قال: ومنذ خلقت النار لم تجف له دمة، ومن يُخلق من الملائكة إنما يخلق من دموع إسرائيل، وهو صاحب اللوح المحفوظ والصور.

وقال ابن عباس: ينفخ النفخة الأولى فيموت الخلائق، وتسير الجبال وتكوّر الشمس والقمر، ثم ينفخ الثانية لقيام الخلق من القبور.

وقال الترمذي بإسناده عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «كَيْفَ أَنْعَمَ عَيْشاً وَقَدْ أَلْتَمَمَ صَاحِبُ الْقَرْنِ الْقَرْنَ، وَحَتَّى جَبْهَتَهُ وَأَصْغَى سَمْعَهُ يَنْتَظِرُ أَنْ يُؤْمَرَ، فَيَنْفُخَ فِيهِ؟» فقال المسلمون: فكيف نقول؟ قال: «قُولُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ»^(٥).

ذكر النبي ﷺ في هذا الحديث القرن، والله تعالى يقول: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ [المؤمنون: ١٠١]. قال ابن قتيبة: الصور هو القرن في لغة أهل اليمن. وقال

(١) «الصحيح»: (سرف).

(٢) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٢٩٠)، وأبو نعيم في الحلية ٦ / ٦٥ - ٦٦ من طريق شهر بن حوشب، عن ابن عباس، وإسناده ضعيف، وانظر المنتظم ١ / ١٩٠.

(٣) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» (١٠٤٥) من حديث ضمرة.

(٤) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» ٢ / ٦٢٥، وسيدكره المصنف في سجود الملائكة لآدم.

(٥) سنن الترمذي (٢٤٣١) و(٣٢٤٣)، وهو عند أحمد في «مسنده» (١١٠٣٩)، وكلمة «عيشاً» لم ترد في كتب السنة.

مجاهد: هو شبه البوق. وقال الجوهري: قال الكلبي: لا أدري ما الصُّور. وقرأ الحسن: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾^(١) [طه: ١٠٢].

وقد أخرج الحميدي في «الجمع بين الصحيحين» لفظ الصور في حديث طويل عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، وفيه: «ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْغَى لَيْتًا»^(٢). والليث: صفحة العنق.

فصل في عزرائيل

وهذه الإضافة مثل جبرائيل ونحوه.

وروي عن ابن عباس عن كعب الأحبار قال: وجدت فيما أنزل الله تعالى من الكتب أن ملك الموت جالس في السماء الدنيا، وبين يديه لوح فيه أسامي مَنْ يموت إلى يوم القيامة، فإذا وقع بصره على اسم إنسان مات.

وقال مجاهد: له أعوان من الملائكة، فيبعث ملائكة الرحمة إلى المؤمنين وملائكة العذاب إلى الفاجرين. وقيل: في ملك الموت خاصية، إذا رآه إنسان مات.

وروى مجاهد عن ابن عباس قال: هؤلاء الأربعة هم رؤساء الملائكة وهم المُقَسَّماتُ أمراً، بأمر الله تعالى، وهم مثل ملوك الدنيا، وأقربهم إلى الله جبريل. وقد ذكرنا حملة العرش.

فصل في الروح

روى عبد خير عن علي عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ﴾ [النبا: ٣٨] قال: هو ملك عظيم له سبعون ألف وجه، في كل وجه سبعون ألف لسان، لكل لسان سبعون ألف لغة، يسبح الله تعالى بتلك اللغات كلها، يخلق الله من كل

(١) «الصحاح»: (صور)، وانظر «المختص» ٥٩/٢.

(٢) «الجمع بين الصحيحين» (٢٩٥٨) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص.

تسيحة ملكاً يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة^(١).

وذكر أبو إسحاق الثعلبي عن ابن مسعود موقوفاً عليه قال: الروح ملك عظيم، أعظم من السماوات والأرض والجبال والملائكة، وهو في السماء الرابعة، يسبح كل يوم اثني عشر ألف تسيحة، يُخلق من كل تسيحة ملك، يجيء يوم القيامة صفافاً وحده والملائكة بأسرهم يجيئون صفافاً^(٢).

وقال ابن عباس: وهو الذي ينزل ليلة القدر، زعيم الملائكة ويده لواء طوله ألف عام، فيغرز على ظهر الكعبة، ولو أذن الله له أن يلتقم السماوات والأرض لفعل^(٣).

فصل

في أصناف الملائكة

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل بإسناده عن خالد بن معدان قال: إن لله ملائكة أربعة يسبحون تحت العرش، فيسبح لتسيحهم أهل السماوات، يقول الأول: سبحان ذي الملك والملكوت، ويقول الثاني: سبحان ذي العزة والجبروت، ويقول الثالث: سبحان الحي الذي لا يموت، ويقول الرابع: سبحان الذي يُميت الخلائق ولا يموت^(٤).

وقال وهب: عبادة أهل السماء الدنيا القيام، والثانية الركوع، والثالثة السجود، والرابعة القراءة، والخامسة التسبيح، والسادسة الذكر، والسابعة الجلوس في التحيات.

وقال سهل بن عبد الله: عبادة أهل السماء الدنيا على الخوف، والثانية على الرجاء، والثالثة على الحياء، والرابعة على الإنابة، والخامسة على الاجتهاد،

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١٥/١٥٦، وأبو الشيخ في «العظمة» (٤١٠)، وأورده ابن كثير في «تفسيره» ٣/٦١ وقال: هذا أثر غريب عجيب.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٢٤/٤٦-٤٧، وأورده ابن كثير في «تفسيره» ٤/٤٦٥ وقال: هذا قول غريب جداً.

(٣) انظر «عمدة القاري» ١٩/٣٣.

(٤) أخرجه ابن الجوزي في «المنتظم» ١/١٩٤-١٩٥.

والسادسة على المراقبة، والسابعة على المشاهدة.

وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَالْتَلَيْتَ ذِكْرًا﴾ [الصفات: ٣]: إنهم الملائكة. وحكى جدي في «التبصرة» عن عبدالله بن سَلام قال: لما خلق الله الملائكة رفعت رؤوسها إلى السماء، وقالت: يا رب، مع من أنت؟ قال: مع المظلوم حتى يؤدي إليه حقه^(١).

ومنهم من يشهد معنا صلاتنا، قال أحمد بن حنبل بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يَتَعَابُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ، يَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَى اللَّهِ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ - أَوْ فِيهِمْ - فَيَسْأَلُهُمُ اللَّهُ وَهُوَ أَعْلَمُ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: أَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يَصَلُّونَ وَتَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يَصَلُّونَ». [متفق عليه^(٢)].

وفي «الصحيحين» أيضاً عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تَفْضُلُ صَلَاةِ الْجَمِيعِ صَلَاةِ أَحَدِكُمْ وَحْدَهُ بِخَمْسٍ وَعَشْرِينَ جُزْءًا، وَتَجْتَمِعُ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ». قال أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتم: ﴿وَقَرَأَ الْفَجْرَ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨] متفق عليه^(٣).

ومنهم صفوف في السماء كصفوف بني آدم في الصلاة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالصَّفَّاتِ صَفًّا﴾ [الصفات: ١] قاله ابن عباس.

وقال الحسن: تصفأ أجنتها في الهواء واقفة فيه حتى يأمرها الله تعالى بما يريد. ومنهم كتبة على بني آدم، يكتبون أعمال النهار والليل، قال الله تعالى: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

وقال أبو إسحاق الثعلبي بإسناده عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «كاتب

(١) «التبصرة» ١٧٥/٢، و«المنتظم» ١٩٢/١.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٠٣٠٩)، والبخاري (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢).

(٣) البخاري (٦٤٨)، ومسلم (٦٤٩) (٢٤٦)، وما بين معقوفين زيادة استدركنها من الصحيحين لضرورة السياق.

الحَسَنَاتِ عَلَى يَمِينِ الرَّجُلِ، وَكَاتَبُ السَّيِّئَاتِ عَنْ يَسَارِهِ، وَكَاتَبُ الْحَسَنَاتِ أَمِيرٌ عَلَى كَاتِبِ السَّيِّئَاتِ مُوَكَّلٌ بِهِ، فَإِذَا عَمِلَ الرَّجُلُ حَسَنَةً كَتَبَهَا صَاحِبُ الْيَمِينِ عَشْرًا، وَإِذَا عَمِلَ سَيِّئَةً قَالَ لَصَاحِبِ الشَّمَالِ: دَعُهُ سَبْعَ سَاعَاتٍ لَعَلَّهُ يَسْتَغْفِرُ، فَيُمْسِكُ عَنْهُ، فَإِنْ اسْتَغْفَرَ مِنْهَا لَمْ تُكْتَبْ، وَإِنْ لَمْ يَسْتَغْفِرْ كُتِبَتْ عَلَيْهِ سَيِّئَةٌ وَاحِدَةً»^(١).

وَقَالَ الثَّعْلَبِيُّ بِإِسْنَادِهِ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ، عَنْ أَبِيهِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَقْعَدُ مَلَائِكَةٍ مِنْكَ عَلَى ثَنِيَّتَيْكَ، وَقَلَمُهُمَا لِسَانُكَ، وَمِدَادُهُمَا رِيقُكَ، وَأَنْتَ تَجْرِي فِيمَا لَا يَعْنِيكَ، لَا تَسْتَحْيِي لِمَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ»^(٢).

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: مَقْعَدُهُمَا عَلَى الْكَتِفَيْنِ. وَقَالَ الْحَسَنُ: تَحْتَ الشَّعْرِ الَّذِي عَلَى الْحَنْكِ. وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ وَلَأنَّهُ أَقْرَبُ إِلَى إِحْصَاءِ اللَّفْظِ.

وَاخْتَلَفُوا فِيمَا يَكْتَبَانِ، فَقَالَ مُجَاهِدٌ: لَا يَكْتَبَانِ إِلَّا مَا يُؤْجَرُ عَلَيْهِ. وَقَالَ عَطَاءٌ: يَكْتَبَانِ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى أَنْيْنَهُ فِي مَرَضِهِ، وَلِهَذَا كَانَ طَاوُسُ الْيَمَانِيِّ يَكْرَهُ الْأَنْيْنَ فِي مَرَضِهِ. وَقَالَ أَبُو إِسْحَاقَ الثَّعْلَبِيُّ بِإِسْنَادِهِ عَنْ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَنْسٍ قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ حَافِظَيْنِ يَرْفَعَانِ إِلَى اللَّهِ مَا حَفِظَا فَيَرَى فِي أَوَّلِ الصَّحِيفَةِ خَيْرًا وَفِي آخِرِهَا خَيْرًا إِلَّا قَالَ اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ: اشْهَدُوا أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي مَا بَيْنَ طَرْفِي الصَّحِيفَةِ»^(٣).

وَقَالَ الثَّعْلَبِيُّ أَيْضًا بِإِسْنَادِهِ عَنْ أَنْسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا مَاتَ الْعَبْدُ قَالَ الْمَلَائِكَةُ الْمُوَكَّلَانِ بِهِ: يَا رَبِّ، مَاتَ فُلَانٌ، وَهُوَ أَعْلَمُ، أَفْتَأْذُنُ لَنَا أَنْ نَضَعَدَ إِلَى السَّمَاءِ؟ فَيَقُولُ اللَّهُ: سَمَائِي مَمْلُوءَةٌ مِنْ مَلَائِكَتِي يَسْبِّحُونَنِي وَيُحَمِّدُونَنِي، فَيَقُولَانِ: أَفُنْقِمْ فِي الْأَرْضِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّ أَرْضِي مَمْلُوءَةٌ مِنْ خَلِيقَتِي يَسْبِّحُونَنِي، فَيَقُولَانِ: فَمَاذَا نَصْنَعُ؟ وَأَيْنَ نَكُونُ؟ فَيَقُولُ: قُومَا عَلَى قَبْرِ عَبْدِي فَكَبِّرَانِي وَهَلِّلَانِي، وَاكْتُبَا ذَلِكَ لِعَبْدِي

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي «الْكَبِيرِ» (٧٧٨٧)، (٧٩٧١).

(٢) أَخْرَجَهُ الثَّعْلَبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ ٥/٥٤٨ مِنْ طَرِيقِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بِهِ.

(٣) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (٩٨١)، وَابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي «الْعِلَلِ الْمُتَنَاهِيَةِ» (٢٨) مِنْ حَدِيثِ أَنْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: هَذَا حَدِيثٌ لَا يَصِحُّ.

إلى يوم القيامة»^(١).

وكان سهل بن عبدالله التستري يقول: يَا ملكاي قد طالت صحبتكما لي فاشفعا لي.
ومنهم موكل بالشمس، وقد ذكرناه.

ومنهم موكل بالقطر والرياح والنبات. حدثنا أبو القاسم علي بن مسلم الموصلي بإسناده عن ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ قَطْرَةٍ تَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَّا وَمَعَهَا مَلَكٌ، وَمَا مِنْ رِيحٍ تَهْبُ إِلَّا وَمَعَهَا مَلَكٌ، وَمَا مِنْ حَبَّةٍ تُنْبِتُ إِلَّا وَمَعَهَا مَلَكٌ».

ومنهم موكل بالسحاب، قال الله تعالى: ﴿فَالزَّجَرَتْ زَجْرًا﴾ [الصافات: ٢] قال ابن عباس: هي الملائكة تزجر السحاب، وقال علي رضي الله عنه: الرعد صوت ملك والبرق مضعه - أي ضربه - ، يضرب السحاب بالمخاريق^(٢).

ومنهم موكل بصخرة بيت المقدس، قال كعب الأحبار: قد وكل الله بها ملكين.
[ومنهم ملكان] يقول أحدهما في صبيحة كل يوم: «اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا»^(٣).

وقال ابن عباس: يقول أحدهما: ليت الخلائق لم يخلقوا، ويقول الآخر: وليتهم إذ خلقوا لم يبعثوا.

ومنهم موكل بالمدينة يمنعونها من الدجال، قال البخاري بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «عَلَى أَنْقَابِ الْمَدِينَةِ مَلَائِكَةٌ لَا يَدْخُلُهَا الطَّاغُوتُ وَلَا الدَّجَالُ». أخرجه في الصحيحين^(٤).

ومنهم موكل بتصوير النطف، قال أحمد بن حنبل: بإسناده، عن حذيفة بن أسيد قال: قال رسول الله ﷺ: «يَدْخُلُ الْمَلَكُ عَلَى النُّطْفَةِ بَعْدَ مَا اسْتَقَرَّتْ فِي الرَّحِمِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، مَاذَا؟ أَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ؟ أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى؟ فَيَقُولُ: اكْتُبْ، فَيَكْتُبُ،

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٩٩٣١).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١/١٥٢.

(٣) هو قطعة من حديث أخرجه البخاري (١٤٤٢)، ومسلم (١٠١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وما بين معقوفتين مستدرك من «المنتظم» ١/١٩٤.

(٤) البخاري (١٨٨٠)، ومسلم (١٣٧٩).

وَيُكْتَبُ عَمَلُهُ وَأَثَرُهُ وَمُصِيبَتُهُ وَرِزْقُهُ، ثُمَّ تُطَوَّى الصَّحِيفَةُ فَلَا يُزَادُ عَلَى مَا فِيهَا وَلَا يُنْقَصُ مِنْهَا»^(١). وقد أخرجاه في الصحيحين عن ابن مسعود عن النبي ﷺ بمعناه^(٢).

ومنهم سَيَّاحُونَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مَجَالِسَ الذِّكْرِ، فَإِذَا رَأَوْا حَلْقَةً فِيهَا قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللَّهَ جَلَسُوا إِلَيْهِمْ، قَالَ الْبُخَارِيُّ بِإِسْنَادِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ مَلَائِكَةٌ يَطُوفُونَ فِي الطَّرِيقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَنَادَوْا: هَلُمُّوا إِلَى حَاجَتِكُمْ، فَيَحْفَتُونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ - وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ - مَاذَا يَقُولُ عِبَادِي؟ قَالُوا: يُسَبِّحُونَكَ وَيُحَمِّدُونَكَ وَيُكَبِّرُونَكَ وَيُسَمِّحُونَكَ، قَالَ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: فَهَلْ رَأَوْنِي؟ فَيَقُولُونَ: لَا، فَيَقُولُ: فَلَوْ رَأَوْنِي؟ فَيَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْنَا أَشَدَّ عِبَادَةً وَأَشَدَّ تَمَجُّدًا وَتَسْبِيحًا وَتَكْبِيرًا، قَالَ فَيَقُولُ: فَمَا سَأَلُونِي - أَوْ يَسْأَلُونِي؟ - فَيَقُولُونَ: الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: وَهَلْ رَأَوُهَا؟ فَيَقُولُونَ: لَا، فَيَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوُهَا؟ فَيَقُولُونَ: [لَوْ رَأَوُهَا لَكَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصًا، وَلَهَا طَلَبًا، وَأَعْظَمَ رَغْبَةً. قَالَ فَيَقُولُ: فِمِمَّ يَتَعَوَّذُونَ؟ فَيَقُولُونَ: مِنَ النَّارِ، فَيَقُولُ: وَهَلْ رَأَوُهَا؟ فَيَقُولُونَ: لَا، فَيَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوُهَا؟ فَيَقُولُونَ: لَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا فِرَارًا وَهَرَبًا، فَيَقُولُ: أَشْهَدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ، قَالَ فَيَقُولُ بَعْضُ الْمَلَائِكَةِ: فِيهِمْ فُلَانٌ لَيْسَ مِنْهُمْ إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: هُمُ الْجُلُوسَاءُ الَّذِينَ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ». أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ^(٣).

وَلِمُسْلِمٍ: «هُمْ السُّعْدَاءُ»^(٤). وَلِمُسْلِمٍ^(٥) أَيْضًا: «إِنَّ اللَّهَ مَلَائِكَةٌ سَيَّارَةٌ فَضْلًا يَتَّبِعُونَ مَجَالِسَ الذِّكْرِ» وَفِيهِ: «فَإِذَا تَفَرَّقُوا عَرَجُوا إِلَى اللَّهِ فَيَسْأَلُهُمُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى»، وَذَكَرَهُ. وَمِنْهُمْ^(٦) مَلَائِكَةٌ يَبْلُغُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ السَّلَامَ، قَرَأَتْ عَلَى أَبِي الْمَظْفَرِ يَوْسُفَ بْنِ عَبْدِ الْمَعْطِيِّ الْإِسْكَنْدَرِيِّ وَيَعْرِفُ بَابَنَ الْمَخِيلِيِّ بِالْإِسْكَنْدَرِيَّةِ، فِي سَنَةِ إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ

(١) أَحَدٌ فِي «مُسْنَدِهِ» (١٦١٤٢)، أَخْرَجَهُ أَيْضًا مُسْلِمٌ (٢٦٤٤).

(٢) الْبُخَارِيُّ (٣٢٠٨)، وَمُسْلِمٌ (٢٦٤٣) مَطْوَلًا.

(٣) الْبُخَارِيُّ (٦٤٠٨)، وَمُسْلِمٌ (٢٦٨٩)، وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ.

(٤) لَمْ نَقِفْ عَلَى هَذَا اللَّفْظِ عِنْدَ مُسْلِمٍ، وَأَخْرَجَ هَذَا اللَّفْظَ أَبُو نَعِيمٍ فِي «الْحَلِيلَةِ» ١١٧/٨.

(٥) صَحِيحُ مُسْلِمٍ (٢٦٨٩).

(٦) مِنْ هُنَا بَدَأَ خَرَمٌ فِي (ب)، وَسَنَعْتَمِدُ مَا فِي (ل) وَالْمَطْبُوعِ.

وست مئة، قال: حدثنا الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد بن إبراهيم السلفي بإسناده عن عاصم بن عمر عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يُبَلِّغُونَنِي السَّلَامَ مِنْ أُمَّتِي»^(١).

ومنهم من يشهد الحروب معنا، كما جرى يوم بدر^(٢).

ومنهم من يستغفر لبني آدم ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: ٧].

ومنهم حفظة لبني آدم ﴿لَهُمْ مَعْقَبَتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ الآية [الرعد: ١١].

ومنهم مبشرون عند الموت بالسلامة: ﴿الَّذِينَ نُوَفِّهِمُ الْمَلَائِكَةَ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [النحل: ٣٢]. وقال ابن مسعود: إذا احتضر المؤمن جاءه ملك الموت فقال: ربُّك يقرئك السلام.

ومنهم مسألون في القبور كمنكر ونكير.

ومنهم خُزَّانُ أبواب السماء، بدليل قول الملك ليلة المعراج لجبريل: من معك؟ فقال: معي محمد ﷺ^(٣).

ومنهم خُزَّانُ الجنان والنيران، كمالك ورضوان.

ومنهم من يغرس شجر الجنة، روي عن الحسن أنه قال: إن في الجنة قيعاناً تغرسها الملائكة حتى إن أحدهم ليفتر من الغرس، فيقول له صاحبه: مالك فترت؟ فيقول: فتر صاحبي من العمل. فكان الحسن يقول: أمدوهم بالبذر فهذه أيام الزرع^(٤).

ومنهم من يصوغ حُلِيِّ أهل الجنة، روي عن كعب الأحبار أنه قال: إن في الجنة ملكاً يصوغ حلي أهل الجنة منذ خُلِقَ إلى يوم القيامة، ولو شئت أن أسميه لسميته، ولو أن قلباً أُخرج منها إلى الدنيا لردَّ شعاع الشمس^(٥). وفي رواية: إن لله ملائكة.

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣٦٦٦).

(٢) أخرج البخاري (٣٩٩٢) عن رافعة بن رافع قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: «من أفضل المسلمين» أو كلمة نحوها قال: وكذلك من شهد بدرأ من الملائكة. وانظر «سيرة ابن هشام» ١/٦٣٣.

(٣) أخرجه البخاري (٣٨٨٧)، ومسلم (١٦٤).

(٤) انظر «التبصرة» ١٧٦/٢، و«المنتظم» ١٩٤/١.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» ١١٥-١١٦، وانظر «المنتظم» ١٩٤/١.

ومنهم من نصفه نار ونصفه ثلج، وهو في حديث المعراج^(١).

ومنهم خدم أهل الجنة ﴿سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

ومنهم خائفون ومحبون، وعارفون وروحانيون وكروبيون ومشاهدون ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦] ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنَ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨]

ومنهم من يقذف الشياطين بالشهب، قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ إِلَىٰ آلِ الْأَعْلَىٰ وَيَقْدِفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۖ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ [الصفات: ٨-٩] قال ابن عباس: يسترق الشياطين السمع من زوايا السماء فتقذفهم الملائكة من كل جانب. والدُّحُور: الطرد والإبعاد ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ [الصفات: ١٠] أي: مسارقة ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصفات: ١٠] فيلقي الشيطان الكلمة إلى من هو دونه ويحترق هو. والحكمة في سرعة الرمي أن الشياطين كانوا يلقون أخبار السماوات إلى الكهنة، فمنعوا عند مبعث نبينا ﷺ، لما نذكر.

فصل

في تفضيل الملائكة على البشر

اختلف أهل القبلية في ذلك: فروي عن الحسن البصري أنه قال: جملة الملائكة أفضل من بني آدم، وهو قول المعتزلة^(٢). وقال ابن عباس: جملة بني آدم أفضل من جملة الملائكة، وهو إحدى الروايتين عن أحمد بن حنبل، وعن الشافعي ومالك كالْمُذْهَبَيْنِ.

وعندنا في المسألة تفصيل نذكره: وجه قول المعتزلة: قوله تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢] فقد فضّل الملائكة على عيسى لأنه نفى بطريق التأكيد، والشيء إنما يؤكد بما هو أفضل منه وأقوى، ولأن الملائكة خلقوا من النور، وبنو آدم خلقوا من التراب، والنور أفضل، والملائكة لا

(١) وهو حديث موضوع أخرجه ابن حبان في «المجروحين» ٣/ ١١-١٢، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١٣٥٣)، وأورده السيوطي بتمامه في «اللالئ» ١/ ٦٢-٧٤. قال ابن الجوزي: المتهم به ميسرة بن عبد ربه. وانظر «المنتظم» ١/ ١٩٥، و«التبصرة» ٣/ ١٧٧.

(٢) هم أتباع واصل بن عطاء لقبوا بذلك عندما اعتزل واصل مجلس الحسن البصري، فقال الحسن: اعتزلنا واصل فلقبوا بذلك، وسيذكر المصنف في ترجمة واصل سنة (١٣١) طرفاً من أخبارهم.

يعصون الله ما أمرهم، وبنو آدم يعصون.

وجه قول ابن عباس: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ وما كان سجود تحية بل لفضل المسجود له على الساجد.

وأنبأنا جدي قال: أنبأنا محمد بن ناصر بإسناده عن عطاء بن يسار، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «قالت الملائكة: أي رب، أعطيت بني آدم الدنيا فأعطنا الآخرة، فقال الله تعالى: لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له: كُنْ فكان»^(١).

ولأنهم يستغفرون لمن في الأرض، والمخدوم أفضل من الخادم.
والجواب: أمّا الآية التي احتجت بها المعتزلة، فقد قال ابن عباس: إن قوماً عبدوا عيسى والملائكة فنزلت الآية، ومعناها: لن يستكف المسيح والملائكة من العبادة فكيف يُعبدان؟

وأما سجود الملائكة لآدم فإنما أريد منهم الطاعة، لما نذكر في قصة آدم.
وأما الحديث الذي احتج به ابن عباس، فقال جدي في «الواهي»: هذا الحديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، في إسناده عبد المجيد ابن أبي رواد، قال ابن حبان: كان يقلب الأخبار ويروي المناكير عن المشاهير، فاستحق الترك. وقال الدارقطني: الموقوف أصح^(٢).

ولو سلم كان معناه: أن الخواص من بني آدم أفضل من خواص الملائكة، فإنه المختار عندنا، وقد نص عليه أبو حنيفة فقال: خواص بني آدم كالمرسلين والنبين أفضل [من جملة الملائكة، لأن لرسول الله فضلاً على الملائكة، لأن الله عصمهم بأعلى مراتب العصمة عن كل وصمة لكونهم حجج الله على عباده، ومن عوتب منهم على زلة فإنما كانت فيما هو مستوي الطرفين في الإمكان والثبوت، قال: وخواص الملائكة كجبريل وميكائيل ونحوهما أفضل من عوام بني آدم لما ذكرت المعتزلة. والمؤمنون من بني آدم أفضل] من عوام الملائكة غير جبريل ونحوه من الرسل، لما ذكر ابن عباس. وقد ابتلي بنو آدم بالإيمان بالغيب، وفيهم أيضاً نوازع الشهوة وهي معدومة في الملائكة، فكان ما ذكره أبو حنيفة رحمه الله أعدل.

(١) «العلل المتناهية» (٣٢).

(٢) «العلل المتناهية» ٤٨/١.

فصل في ذكر الجنة

وما لله سبحانه على عباده من خلقها من المنّة^(١)

لا خلاف بين العلماء أنّها في السماء لقوله تعالى: ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾ ﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ [النجم: ١٤-١٥] ولأنّها دار نعيم، فتكون من جهة العلوّ، بخلاف النار فإنّها سجن، والسجن يكون في السفلى.

وقالت المعتزلة والجهميّة: إنّ الجنة لم تخلق بعد، كما قالوا في النار، واحتجوا في الجنة بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٨٣] والجعل هو الخلق، وإنما يخلقها يوم القيامة.

ولنا قوله تعالى ﴿أَعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣] والمعدّ ما يكون موجوداً.

وما احتجوا به فليس المراد من الآية الخلق في المستقبل بل في الماضي، أي: جعلها، لئلا يقع التناقض بين الاثنين^(٢).

وإذا ثبت أنها موجودة فأهلها يتنعمون فيها على الأبد كما في أهل النار، فإنهم يُعذبون فيها على الأبد.

وقال جهم بن صفوان: يبيدان ويفنيان لئلا يصير أهلها شركاء لله تعالى.

ولنا قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧] في آيات كثيرة. وما ذكره فلا نسلم أنه يؤدّي إلى المشاركة، لأنّ الله تعالى واجب الوجود واجب البقاء مستحيل العدم، والعبد جائز الوجود جائز البقاء، فعدمت المشاركة.

وقد جاءت في فضائل الجنة أخبار وآثار منها:

قال أحمد بن حنبل بإسناده عن أبي بكر بن عبدالله بن قيس، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «جَنَاتُ الْفِرْدَوْسِ أَرْبَعُ ثِنْتَانٍ مِنْ ذَهَبٍ حَلِيتُهُمَا وَأَنْبِتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَثِنْتَانٍ مِنْ فِضَّةٍ حَلِيتُهُمَا وَأَنْبِتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَلَيْسَ بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِداءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ» أخرجه في الصحيحين^(٣).

(١) انظر «كنز الدرر» ١/ ٧٣.

(٢) هم أصحاب جهم بن صفوان المتوفى سنة (١٢٨) هـ وسيذكر المصنف طرفاً من أخباره فيها.

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٩٧٣١)، والبخاري (٤٨٧٨) ومسلم (١٨٠)، واللفظ لأحمد.

وفيهما حديث أبي موسى أيضاً عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَخَيْمَةً مِنْ دُرَّةٍ مُجَوَّفَةٍ عَرْضُهَا سِتُّونَ مَيْلًا، وَفِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْهَا أَهْلٌ مَا يَرَوْنَ الْآخَرِينَ، يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُ»^(١).

وفيهما من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»^(٢).

فإن قيل: فأعلى ما في الجنة النظر، وقد خطر على قلوبنا أننا نراه، فكيف قال: ولا خطر على قلب بشر؟ فالجواب: أننا في وقت النظر يحصل لنا من اللذة والاستغراق ما لم يخطر على قلب بشر.

وفي الصحيحين أيضاً: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَلِجُ الْجَنَّةَ صُورَتُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لَا يَبْصُقُونَ فِيهَا وَلَا يَمْتَخِطُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ، آتِيَتُهُمْ فِيهَا الذَّهَبُ، وَأَمْشَاطُهُمْ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَمَجَامِرُهُمُ الْأُلُوءَةُ، وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ يُرَى مَخُحٌ سَاقَهُمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ مِنَ الْحُسْنِ، لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَبَاغُضَ، قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، يُسَبِّحُونَ اللَّهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا»^(٣).

وفيهما من حديث أبي ذرٍّ عن النبي ﷺ قال: «أُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ فَإِذَا فِيهَا جَنَابِذُ اللَّوْلُو، وَتُرَابُهَا الْمِسْكُ»^(٤). والجنابذ: القباب.

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْعَائِرُ فِي الْأَفْقِ مِنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، لَتَفَاضُلٍ مَا بَيْنَهُمْ»^(٥).

(١) أخرجه البخاري (٤٨٧٩)، ومسلم (٢٨٣٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤).

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٤٥)، ومسلم (٢٨٣٤)، والألوة: العود يتبخر به.

(٤) أخرجه البخاري (٣٣٤٢)، ومسلم (١٦٣)، وهو قطعة من حديث معراجة ﷺ.

(٥) أخرجه البخاري (٣٢٥٦)، ومسلم (٢٨٣١)، وروايتهما: «الغابر» وفي رواية للبخاري (٦٥٥٦):

«الكوكب الغارب».

قلت: وقد رويت هذه اللفظة «العائر» وليست بشيء، والمشهور من حديث أبي سعيد الذي أخرجه الحميدي «الغارب في الأفق الشرقي أو الغربي»^(١) وفي رواية «الكوكب الدرّي». فأما العائر: فهو السهم لا يدرى من رمى به.

تمام الحديث: قالوا يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ فقال: «بلى، والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين».

وفيهما من حديث سهل بن سعد^(٢)، وأبي سعيد^(٣)، وأبي هريرة^(٤)، وأنس^(٥) كلهم عن النبي ﷺ أنه قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مئة عام لا يقطعها» وقد ذكرنا الحديث^(٦).

وأخرج أحمد في «المسند» عن عتبة بن عبد السلمي: «أنها تشبه شجرة الجوز بالشام، قال: تنبت على ساق واحد وينفروش أعلاها»^(٧).

وقال مسلم بإسناده عن أنس عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة لسوقاً يأتونها كل جمعة فتهب فيها ريح الشمال، فتحثو في وجوههم وثيابهم، فيزدادوا حسناً وجمالاً، فيرجعون إلى أهلهم فيقولون لهم: والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً، فيقولون: وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً». انفرد بإخراجه مسلم^(٨).

وقال الترمذي بإسناده عن حسان بن عطية عن سعيد بن المسيب، أنه لقي أبا هريرة، فقال له أبو هريرة: أسأل الله أن يجمع بيني وبينك في سوق الجنة، فقال سعيد: أفيها سوق؟ قال: نعم، أخبرني رسول الله ﷺ «أن أهل الجنة إذا دخلوها نزلوا فيها بفضل أعمالهم، ثم يؤذن لهم في مقدار يوم الجمعة من أيام دار الدنيا، فيزورون ربهم،

(١) «الجمع بين الصحيحين» (٩٢١) و(١٧٥٥).

(٢) البخاري (٦٥٥٢)، ومسلم (٢٨٢٧).

(٣) البخاري (٦٥٥٣)، ومسلم (٢٨٢٨).

(٤) البخاري (٣٢٥٢)، ومسلم (٢٨٢٦).

(٥) البخاري (٣٢٥١)، وهو من أفراد البخاري كما في «الجمع بين الصحيحين» (٢٠٤٨).

(٦) تقدم الحديث في فصل سدرة المنتهى.

(٧) أخرجه أحمد في «المسند» (١٧٦٤٢) مرفوعاً.

(٨) صحيح مسلم (٢٨٣٣).

وَيُبرِزُ لَهُمْ عَرْشُهُ، وَيَتَبَدَّى لَهُمْ فِي رَوْضَةٍ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، فَيُوضَعُ لَهُمْ مَنَابِرٌ مِنْ نُورٍ، وَمَنَابِرٌ مِنْ لَوْلُؤٍ، وَمَنَابِرٌ مِنْ يَاقُوتٍ، وَمَنَابِرٌ مِنْ زَبَرَجَدٍ، وَمَنَابِرٌ مِنْ ذَهَبٍ وَمَنَابِرٌ مِنْ فَضَّةٍ، وَيَجْلِسُ أَدْنَاهُمْ - وَمَا فِيهِمْ دَنِيٌّ - عَلَى كُثْبَانِ الْمِسْكِ وَالْكَافُورِ، مَا يَرُونَ بِأَنَّ أَصْحَابَ الْكَرَاسِيِّ أَفْضَلَ مِنْهُمْ مَجْلِسًا» قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَهَلْ نَرَى رَبَّنَا؟ قَالَ: «نَعَمْ، هَلْ تُمَارُونَ فِي رُؤْيَا الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟ قُلْنَا: لَا، قَالَ: «كَذَلِكَ لَا تُمَارُونَ فِي رُؤْيَا رَبِّكُمْ، وَلَا يَبْقَى فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ رَجُلٌ إِلَّا حَاضِرَهُ اللَّهُ مُحَاضِرَةً، حَتَّى يَقُولَ لِلرَّجُلِ: يَا فُلَانُ، أَتَذْكُرُ يَوْمَ قُلْتَ كَذَا وَكَذَا؟ فَيُذَكِّرُهُ بَعْضَ غَدْرَاتِهِ فِي دَارِ الدُّنْيَا، يَقُولُ: يَا رَبِّ، أَلَمْ تَغْفِرْ لِي؟ فَيَقُولُ: بَلَى، بِسَعَةِ مَغْفِرَتِي بَلَغْتَ مَنْزِلَتَكَ هَذِهِ. فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ غَشِيَتْهُمْ سَحَابَةٌ مِنْ فَوْقِهِمْ، فَأَمْطَرَتْ عَلَيْهِمْ طَيْبًا لَمْ يَجِدُوا مِثْلَهُ - أَوْ مِثْلَ رِيحِهِ - شَيْئًا قَطُّ، وَيَقُولُ رَبُّنَا: قُومُوا إِلَيَّ مَا أَعَدَدْتُ لَكُمْ مِنَ الْكَرَامَةِ فَخُذُوا مَا اسْتَهَيْتُمْ، فَنَآتِي سَوْقًا قَدْ حَفَّتْ بِهِ الْمَلَائِكَةُ، فِيهِ مَا لَمْ تَنْظُرِ الْعُيُونُ إِلَى مِثْلِهِ، وَلَمْ تَسْمَعْ الْأَذَانُ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَيُحْمَلُ إِلَيْنَا مَا اسْتَهَيْنَا لَيْسَ بِبَاغٍ فِيهِ وَلَا يُشْتَرَى، وَفِي ذَلِكَ السُّوقِ أَهْلُ الْجَنَّةِ يَلْقَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَيُقْبِلُ الرَّجُلُ ذُو الْمَنْزِلَةِ الْمَرْتَفَعَةِ فَيَلْقَى مِنْ هُوَ دُونَهُ. وَمَا فِيهِمْ دُونُ فَيَرَوْهُ مَا عَلَيْهِ مِنَ اللَّبَاسِ، فَمَا يَنْقُضِي حَدِيثَهُ حَتَّى يَتَخَيَّلَ عَلَيْهِ مَا هُوَ أَحْسَنُ مِنْهُ، وَكَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَحْزَنَ فِيهَا. ثُمَّ تَنْصَرِفُ إِلَى مَنَازِلِنَا فَيَلْقَانَا أَزْوَاجُنَا فَيَقْلُنَ: مَرْحَبًا وَأَهْلًا لَقَدْ جِئْتُمْ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ مِنَ الْجَمَالِ أَفْضَلَ مِمَّا فَارَقْتُمُونَا عَلَيْهِ، فَيَقُولُونَ: إِنَّا جَالِسْنَا الْيَوْمَ رَبَّنَا الْجَبَّارَ، وَبِحَقْنَا أَنْ نَنْقَلِبَ بِمِثْلِ مَا انْقَلَبْنَا»^(١).

وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ بِإِسْنَادِهِ عَنْ أَبِي الْمُدَلِّلَةِ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، حَدِّثْنَا عَنْ الْجَنَّةِ مَا بَنَآؤُهَا؟ فَقَالَ: «لَبَنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ وَلَبَنَةٌ مِنْ فَضَّةٍ، وَمِلَاطُهَا الْمِسْكِ الْأَذْفَرُ، وَحَصْبَاؤُهَا اللَّوْلُؤُ وَالْيَاقُوتُ، وَتُرَابُهَا الزَّعْفَرَانُ، مَنْ يَدْخُلُهَا يَنْعَمُ لَا يَبُؤُسُ، وَيَخْلُدُ لَا يَمُوتُ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ»^(٢).

وَحَدَّثَنَا جَدِي رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: حَدَّثَنَا هَبَةُ اللَّهِ بْنِ أَحْمَدَ الْحَرِيرِيِّ بِإِسْنَادِهِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ

(١) سنن الترمذي (٢٥٤٩).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٨٠٤٣).

الخديري قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِثَّةَ دَرَجَةٍ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَإِنَّ جَنَّةَ الْفِرْدَوْسِ أَوْسَطُهَا وَأَعْلَاهَا سَمَاءٌ، وَعَلَيْهَا يُوضَعُ الْعَرْشُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمِنْهَا تَنْفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ» فقال له رجل: بأبي وأمي أنت يا رسول الله، هل فيها خيل؟ قال: «نعم»، والذي نفسي بيده، إِنَّ فِيهَا لَخَيْلًا مِنْ يَاقُوتَةٍ حُمْرَاءَ، تَرَفُّ بِهِمْ بَيْنَ خِلَالِ وَرَقِ الْجَنَّةِ يَتَزَاوَرُونَ عَلَيْهَا» فقال له رجل: فهل فيها من إبل؟ قال: «نعم» والذي نفسي بيده، إِنَّ فِيهَا لِإِبِلًا مِنْ يَاقُوتَةٍ حُمْرَاءَ، رَحَالُهَا الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ، عَلَيْهَا نَمَارِقُ الدِّبَاجِ، تَرَفُّ بِهِمْ بَيْنَ خِلَالِ وَرَقِ الْجَنَّةِ يَتَزَاوَرُونَ عَلَيْهَا» فقال له رجل: هل فيها صوت؟ قال: «نعم»، إِنَّ اللَّهَ لِيُوحِي إِلَى شَجَرَةٍ فِي الْجَنَّةِ: أَنْ أَسْمِعِي عِبَادِي هَؤُلَاءِ الَّذِينَ شَغَلَهُمْ ذِكْرِي فِي الدُّنْيَا عَنْ عَزْفِ الْمَزَاهِيرِ وَالْمَزَامِيرِ بِالتَّسْبِيحِ وَالتَّقْدِيسِ»^(١).

وحدثنا جدي قال: حدثنا ابن ناصر بإسناده عن ابن مسعود قال: أَنْهَارُ الْجَنَّةِ تَنْفَجَّرُ مِنْ جَبَلٍ مُسَلِّكٍ. وفي رواية: وتجري في عين أخدود.

وقال ابن عباس: خمر الجنة أشدَّ بياضاً من اللبن.

وعن ابن عباس أنه قال: الجنان سبع: دار الجلال، ودار السلام، وجنة عدن، وهي قصبة الجنة وهي مشرفة على الجنان، وجنة المأوى، وجنة الخلد، وجنة الفردوس، وجنة النعيم.

قال: ونخل الجنة جذوعها زمرد أخضر وكربها ذهب أحمر، وسعفها كسوة أهل الجنة^(٢).

وقال أحمد بن حنبل: حدثنا عبدالرزاق بإسناده عن سهل بن سعد، عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ ثَمَانِيَةَ أَبْوَابٍ: فِيهَا بَابٌ يُسَمَّى الرِّيَاضُ، لَا يَدْخُلُهُ إِلَّا الصَّائِمُونَ» أخرجاه في الصحيحين^(٣).

وحدثنا عبدالوهاب بن علي الصوفي بإسناده عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ عَلَى طُولِ آدَمَ سَتِينَ ذِرَاعًا، وَعَلَى حُسْنِ يُوسُفَ، وَعَلَى

(١) أخرجه ابن سمعون في أماليه (٢) من حديث أبي سعيد، وأبو نعيم في صفة الجنة (٥٤٦) من حديث أبي هريرة، وأورده ابن الجوزي في الياقوتة ٧٩/١ من حديث سهل بن سعد.

(٢) أخرجه هناد في «الزهد» (٩٩)، والحاكم ٤٧٥/٢. والكرب: أصول السعف الغلاظ العراض.

(٣) أحمد في «مسنده» (٢٢٨١٨)، والبخاري (٣٢٥٧)، ومسلم (١١٥٢).

ميلاد عيسى ثلاثاً وثلاثين سنةً، وعلى لسان محمد ﷺ^(١).

وقال ابن أبي الدنيا بإسناده عن الحسن قال: قال النبي ﷺ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ يَشْتَأِقُ الْإِخْوَانُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، فَيَسِيرُ سَرِيرٌ هَذَا إِلَى سَرِيرٍ هَذَا وَسَرِيرٌ هَذَا إِلَى سَرِيرٍ هَذَا، حَتَّى يَجْتَمِعَانِ، فَيَبْكِي هَذَا وَيَبْكِي هَذَا، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: تَعَلَّمَ مَتَى غُفِرَ لَنَا؟ فَيَقُولُ صَاحِبُهُ: نَعَمْ، يَوْمَ كَذَا وَكَذَا فِي مَوْضِعٍ كَذَا وَكَذَا»^(٢).

وقال أحمد بن حنبل: حدثنا أبو معاوية، حدثنا عبد الملك بن أبجر بإسناده عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً لَيَنْظُرُ فِي مُلْكِهِ أَلْفِي سَنَةٍ، يَرَى أَقْصَاهُ كَمَا يَرَى أَدْنَاهُ، وَإِنْ أَفْضَلَهُمْ مَنْزِلَةً مَنْ يَنْظُرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي كُلِّ يَوْمٍ مَرَّتَيْنِ»^(٣).

فإن قيل فهل في الجنة توالد؟ فالجواب: أن فيه قولين:

أحدهما: أنه لا يكون فيها توالد لأن الولادة محل الأقدار، والجنة طاهرة.

والثاني: أنه يكون فيها توالد وقد دلّ عليه الحديث، قال أحمد: حدثنا علي بن عبدالله بإسناده عن أبي سعيد الخدري أن نبي الله ﷺ قال: «إِذَا اشْتَهَى الْمُؤْمِنُ الْوَلَدَ فِي الْجَنَّةِ كَانَ حَمْلُهُ وَوَضْعُهُ وَسِنُّهُ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ»^(٤).

اقتصرنا على هذه الجملة مما يتعلّق بالجنة من الأحاديث والآثار، ولو استقصينا في جمعها لخرج الكتاب عن مقصوده من الاختصار.



(١) أوردته ابن كثير في «تفسيره» ٢٩٣/٤ وعزاه إلى ابن أبي الدنيا.

(٢) أوردته ابن القيم في «حادي الأرواح» ٣٣٤ عن ابن أبي الدنيا بإسناده عن أنس، وأخرجه البزار في كشف الأستار (٣٥٥٣)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٦١٢).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤٦٢٣).

(٤) أحمد في «مسنده» (١١٠٦٣).